

المُدْلِّلُ الْفَيْنِيَقِيَّةُ

دكتور محمد أبو المحاسن عصافور
الأستاذ بجامعة بيروت العربية

١٩٨١

دار النهضة العربية
لطبع وتأليف ونشر
سبعينات بي. م. ب.

مقدمة

تُمْتَعِت بعض مدن الشرق الأدنى بشهرة واسعة في فترات مختلفة من تاريخها القديم نظراً لما كان لها من مكانة سياسية أو دينية، فبعض هذه المدن كانت تمثل وحدات سياسية أو تشكل دولات مدن تتصارع فيما بينها من أجل الزعامة أو فرض النفوذ والسيادة على غيرها، ولعل مدن سومر القديمة مثل أور وبخش والوركاء وغيرها خير دليل على ذلك - ومن المدن التي اشتهرت في التاريخ كذلك تلك التي كانت تمثل عواصم الدول الكبرى مثل منف وطيبة في مصر وبابل وأكاد وآشور ونيبو في بلاد النهرين وحاتوساس في آسيا الصغرى ويرسيبوليس في إيران وغيرها، وكانت شهرة هذه المدن بالطبع تستند في أساسها إلى تعاظم قوة الدول التي تنتمي إليها.

وإلى جانب تلك المدن التي استمدت شهرتها من مكانتها السياسية كانت هناك مدن أخرى تستند في شهرتها إلى مركز ديني كان يرجع في أغلب الأحيان إلى ما توارد من أساطير حولها، ومن أمثلتها هليوبوليس (أون) وطيبة في مصر ونيبور في بلاد النهرين وغيرها.

وربما كان استناد مدن الشرق الأدنى القديم في شهرتها إلى مكانتها السياسية أو الدينية هو الشائع في تاريخها القديم. ولم يشذ عن ذلك إلا المدن الفينيقية التي تمثل حالة فريدة في ذلك الإقليم، فقد استغلت ظروف بيئتها أحسن استغلال ونالت شهرة عريضة لم تستند إلى مكانة سياسية أو دينية، كما أن من الغريب أن المدن الفينيقية الشرقية الأصلية لم تلعب دوراً فعالاً في السياسة الدولية كالذي فعلته المدن الفينيقية الغربية الوليدة - وربما كان السبب في ذلك يرجع إلى أن المدن الفينيقية الشرقية كانت في طريق الدول

التي ظهرت كقوى كبرى في الشرق الأدنى القديم ولم تتهيأ لها الفرصة كي تصبح في مصاف هذه القوى بل وكثيراً ما وقعت تحت سيطرتها أما المدن الفينيقية الغربية وخاصة قرطاجة فقد غلت وترعرعت بعيداً عن مواطن الصراع في الشرق الأدنى حتى أصبحت أكبر قوة في حوض البحر المتوسط وظل الأمر كذلك إلى أن ظهر اليونان ومن بعدهم الرومان ودب التنافس بينها وبينها على السيادة على حوض البحر المتوسط إلى أن قضى الرومان عليها نهائياً.

ومهما يكن من أمر هذه المدن الفينيقية سواء الشرقية منها أو الغربية فإن شهرتها كانت تعتمد في أساسها على نشاطها الاقتصادي الذي هيأ لها مكانة تجارية مرموقة بين أقطار العالم القديم، وفي الوطن الأصلي (المدن الفينيقية الشرقية) توافت الأشجار الجيدة الأخشاب التي كانت محببة لدى الأقطار المجاورة من جهة والتي صنع منها الفينيقيون سفنهم التي ساعدتهم على ركوب البحر من جهة أخرى، كذلك فإن توصلهم إلى استخراج أصباغ جيدة لنسوجاتهم من الأصداف ومن بعض الديدان التي كانت تكثر على الأشجار قد جعل الشعوب المجاورة تهافت عليها وشجعهم ذلك على التجوال في البحر والتوغل فيه ثم اتجهوا إلى إنشاء مراكز تجارية لهم تطورت فيما بعد إلى مستعمرات تجارية تعاظم شأنها حتى فاقت إحداها (وهي قرطاجة) الوطن الأم.

وما من شك في أن ازدهار تجارتهم ونجاحهم في تبادلهم التجاري مع مختلف الجهات قد أثار فيهم حب المغامرة للوصول إلى أسواق جديدة والبحث عن سلع مرغوبة فلم يقتصروا على الاتجاه في منتجاتهم بل تبادلوا مختلف السلع مع الأقطار الأخرى، وقد جعلتهم تنقلهم بين مختلف الأقطار رسلاً حضارة ينقلون مظاهرها بين قطر وآخر كما تأثروا بثقافة البلدان الأخرى وأثروا فيها، وحتى في أوقات ضعفهم لم تفقد المدن الفينيقية أهميتها أو يتضاءل شأنها من الناحية الحضارية إذ أنها تركت بصماتها في التاريخ أكثر من غيرها من مدن الشرق الأدنى القديم فإليها ترجع أرقى أساليب الاستعمار الاقتصادي وإليها يرجع اختراع الكتابة بحروف هجائية راقية وهي من أهم أسس الثقافة الحديثة حيث انتقلت منها إلى اليونان ومنها إلى العالم الحديث.

ورغم ضخامة الدور الحضاري الذي قامت به المدن الفينيقية فإن تاريخها توجد به كثير من الفجوات ولا يمثل سلسلة متكاملة للحلقات، فضلاً عن أن كثيراً من أحداث هذا التاريخ أمدتنا به مصادر أقطار وأمم أخرى، ولذا فليس من الهين جمع شذرات الأحداث التاريخية التي وصلتنا عن هذه المدن في إطار تاريخي متكامل ولا يمكن أن نتبين منها بوضوح ضخامة الدور الذي لعبته في حضارات العالم القديم؛ ولا يمكن أن أدعى والحالة هذه أنني وافيت تاريخ المدن الفينيقية حقه تماماً ولكن حسبي أنني حاولت قدر الإمكان والله ولي التوفيق.

د/ محمد أبو المحاسن عصفور

محتوى الكتاب

العنوان	الصفحة
مقدمة	٥
تمهيد	١٣
الجهود الأثرية في الواقع الفينيقية	١٧
تاريخ الوطن الفينيقي	٢١
التوسيع الفينيقي	٥٣
الصراع القرطاجي اليوناني	٧١
الصراع بين قرطاجة وروما	٨٣
تغير ميزان القوى في البحر المتوسط	٩٣
الحضارة الفينيقية	
أولاً: المدن الفينيقية وتأسيسها	٩٩
ثانياً: النظم السياسية	١٠٧
ثالثاً: الشاطط الاقتصادي	١١٣
رابعاً: العسكرية	١٢٩
خامساً: الدين	١٣٩
سادساً: الفن	١٥١
سابعاً: نشأة الكتابة واختراع الحروف الهجائية	١٨٥

قائمة بالأشكال

الصفحة	الشكل
١٠٣	١ - معبد فينيقي
١٠٥	٢ - معبد سليمان في بيت المقدس
١٠٦	٣ - هيكل صغير في عمريت (ماراتوس)
١٤١	٤ - إله بعل إله الجبال والمطر والعواصف
١٤٣	٥ - تمثال صغير به ملامح وخصائص مصرية
١٤٨	٦ ، ٦ ب - رموز للإلهة «تانيت»
١٥٥	٧ - منظر لإلهة به مظاهر إيجيّة وأخرى فينيقية
١٥٧	٨ - لوح مثلث عليه امرأة في نافذة تلبس شعراً مصرياً مستعاراً
١٥٧	٩ - لوح مثلث عليه امرأة في هيئة الإلهة إيزيس المصرية
١٥٩	١٠ - إناء فضي به رسوم مصرية الطراز
١٦٠	١١ - إناء فضي مموه بالذهب رسومه تمثل أشخاصاً في أشكال خلبيطة آسيوية ومصرية
١٦١	١٢ - إناء فضي مموه بالذهب رسومه تمثل خلبيطاً آسيوياً مصرياً أيضاً
١٦٣	١٣ - نقش يمثل سجادة بزخارف تخيل فينية وشكل أبو المول مجنبح ويلبس الناج المزدوج
١٦٥	١٤ - لوحة بها شكل كاهن في طراز فينيقي
١٦٨	١٥ - تمثال من الحجر الجيري لسيدة حديث في مظهره
١٦٩	١٦ - تاج عمود به عناصر زخرفية خلبيطة
١٧١	١٧ - قارورة من الفخار في هيئة بقرة
١٧١	١٨ - إناء قرایین يحيى سبعة وحدات متفرقة
١٧٣	١٩ ، ٢٠ - أقنعة قرطاجية
١٧٥	٢١ - تمثال لسيدة من طراز أثيري فينيقي خلبيط
١٧٧	٢٢ - لوحات طراز المذبح في قوالب مصرية
١٨٠	٢٣ - أمواس نحاسية بها مناظر من طرز مختلفة

تمهيد

استعمل المصري القديم الكلمة «فتخو»^(١) منذ عهد الدولة القديمة^(٢) للدلالة على شعب من سكان الأقليم السوري^(٣) ، كذلك ورد اسم الفينيقيين (Phoivikn) كشعب ، واسم فينيقيا (Phoivikes) كبلاد (أو منطقة) في كتابات اليونان منذ أيام هومير أو قبل ذلك^(٤) حيث استعمل لفظ فينكس (Phoiviex) كدلالة جنسية وإن كان أصلاً يعني اللون الأحمر القاتم أو الأرجوان أو اللون البني الذي وصفت به التخيل أو الجماعات الكنعانية ذات البشرة التي لونها بني . ولذا يرى بعض الباحثين أن اليونان استخدموها هذا اللفظ كدلالة جنسية أطلقوا على الفينيقيين لشهرتهم في صياغ المنسوجات بهذا اللون والا تجار فيها - على أنها نرجم بأن اليونان استعملوا الكلمة المصرية «فتخو» بعد تحريفها إلى (Phoivikn) للدلالة على فينيقيا و (Phoivikes) للدلالة على الفينيقيين - كما أن الرومان بدورهم أطلقوا لفظ بوبي (Poeni) للدلالة على القرطاجيين وغيرهم من المثليين لهذا الشعب في غرب البحر المتوسط وهو لفظ محرف لاتينياً من اللفظ اليوناني ، ومع ذلك فقد فرقوا بينهم وبين الفينيقيين في الشرق حيث

(١) A. Erman and H. Grapow, Wörterbuch der ägyptischen Sprache, B1, p.577

(٢) الدولة القديمة في مصر يقصد بها فترة حكم الاسرات الستة الاولى من ٣١٠٠ إلى ١٥٠٠ ق. م . أو من الاسرة الثالثة الى السادسة حسب مختلف الاراء انظر كتاب المؤلف «معالم تاريخ الشرق الادنى القديم» ص ٩٨ (بيروت ١٩٧٩) ومن المؤكد أن كلمة «فتخو» ظهرت في عهد الاسرة الخامسة .

(٣) الأقليم السوري بمعناه الشامل حسب الاصطلاح^١ اليوناني هو المتد بين جبال طوروس شمالاً وسيناء جنوباً وبين البحر المتوسط غرباً والبادية وبلاط اليمرين شرقاً .

أطلقوا على هؤلاء اسم فوينيقي (Poenices) وإن كانوا يعترفون بانتمائهم إلى جنس واحد .

ورغم أن النصوص الakkدية وبعض النصوص المصرية بل والفينيقين أنفسهم استخدمو لفظ كنعان للدلالة على البلاد التي استوطنوها ولفظ الكنعانيين للدلالة على أهلها ؛ فإن اليونان والروماني لم يستعملوا الاسم «الكنعاني» ومشتقاته في أي صورة من الصور^(١)، بينما استعمل لفظ «كنعان» للدلالة على موطنهم في الكتاب المقدس^(٢) .

ويجمع المؤرخون على أن الكنعانيين وفدوا إلى الأقليم السوري من بلاد العرب في هجرة واحدة مع الأموريين في حوالي منتصف الألف الثالث قبل الميلاد حيث أخذ الأموريون يتتجولون في شمال سوريا ثم استقر بهم المقام في أواسط حوض الفرات بينما استقر الكنعانيون على الساحل واشتهروا فيها بعد باسم الفينيقين، ونظراً لما عرف عنهم من مهارة في الملاحة فإن بعض الباحثين يرى أنهم جاءوا أصلاً من مكان ما في شبه جزيرة العرب يطل على البحر حيث اكتسبوا هذه المهارة مثل سواحل البحر الأحمر أو الخليج العربي قبل أن يفدو إلى الساحل السوري^(٣) ، غير أنه من الممكن - من جهة أخرى - أن يكونوا قد جاءوا من منطقة بعيدة عن البحر ثم اكتسبوا مهاراتهم البحرية في منطقة استيطانهم الجديدة على الساحل السوري نتيجة تطور طبيعي ، وربما يكون وفود جماعات أخرى إلى نفس المنطقة قد زاد من الضغط عليهم وعدم قدرتهم على الانتشار في المناطق المجاورة فأدى ذلك إلى اتجاههم إلى البحر ، أي أن هذه المهارة البحرية التي اكتسبوها كانت نتيجة لظروف جغرافية وسياسية ولا تدل على موطن أصلي ذو مظاهر جغرافية معينة .

(١) Donald Harden , (The Phoenicians) , (New York 1962) p.22

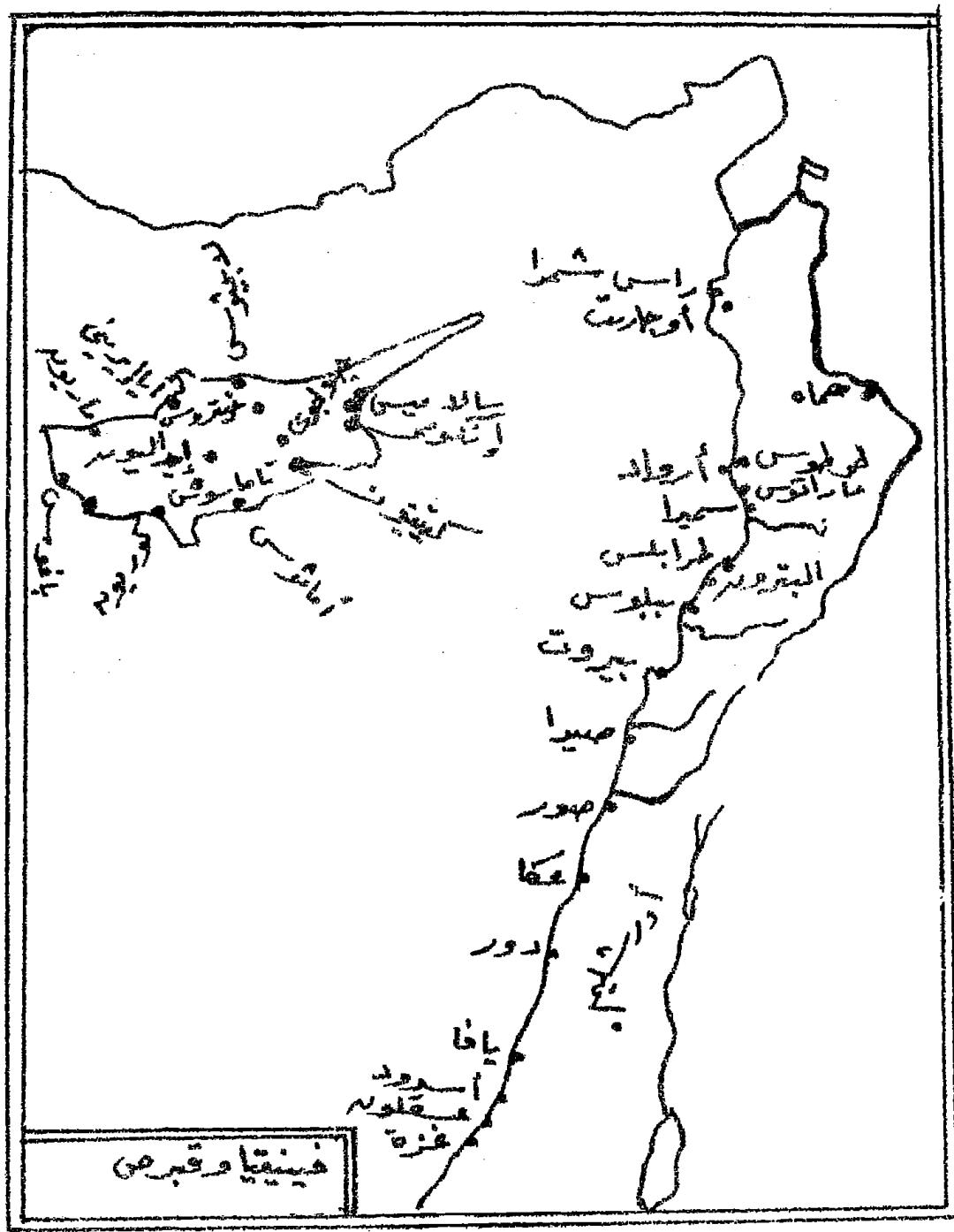
(٢) انجل مقى ٢٢/١٥ ، انظر كذلك التكرين ١٥/١٠ ، وأشار الكتاب المقدس أيضاً إلى الصيد ونيين للتعبير عن الفينيقين .

(٣) ربما تأثر بعض الباحثين بما ذكره هيرودوت من أن الفينيقين جاءوا من الخليج العربي (الفارسي سابقاً) انظر 89 Herodotus I , 1 and VII بينما يرجع البعض الآخر أنهم جاءوا من ساحل الاحساء بالذات .

وليس من السهل ، كذلك ، تحديد منطقة استيطان الفينيقيين على الساحل تحديداً دقيقاً ، فقد اختلف الباحثون في ذلك رغم أن الاماكن التي عثر على آثار لهم فيها معروفة - وربما يرجع ذلك إلى أن مدى انتشار هذه الآثار كان مختلفاً في العصور المختلفة ويفهم من ذلك أنهم لم يمثلوا في بعض المناطق في بعض الأحيان أو أن نفوذهم كان ينحصر عنها ، غير أن غالبية الباحثين يجمعون على أنهم في أزهى عصورهم كانوا يتشربون في سهول الساحل الشرقي للبحر المتوسط وبعض المناطق الداخلية القرية في مساحة تتد ، على الأقل ، من أروداد شماليّاً إلى جبل الكرمل جنوبيّاً - أي نحو الثلث الأوسط من الساحل الشرقي للبحر المتوسط ، وعلى ذلك يمكن اعتبار لبنان الحالية مثل الجزء الأكبر من المنطقة التي استوطنوها^(١) .

وما لا شك فيه أن ما كشف عنه من تلك الآثار أصبحت المصدر الرئيسي لمعلوماتنا عنهم بالإضافة إلى ما عثر عليه من آثار البلاد الأخرى التي تشير إليهم رغم أن الجهد الأثري في منطقة الشرق الادني بصفة عامة لم تبدأ إلا في وقت متاخر عنها في مناطق أخرى.

(١) انظر الخريطة رقم ١ .



الجهود الأثرية في الواقع الفينيقي

لم يعرف العالم شيئاً عن تاريخ فينيقا سوى ما ورد في كتابات اليونان والرومان حتى القرن السابع عشر - وبعدئذ أخذت الشعوب المتحضرة تهتم بدراسة الحضارات القديمة وأثارها ، وفي خلال ذلك القرن كان الرحالة قد تناولوا هذه الآثار بالوصف فلم يضيفوا إلا معلومات ضئيلة متفرقة عن تلك الحضارات .

ومنذ أن نجح شامبليون في قراءة الهيروغليفية المصرية في أوائل القرن الماضي أخذ الاهتمام بدراسة الحضارات القديمة يزداد وأقبل الرحالة على زيارة آثارها ونشطت البعثات العلمية في التنقيب عنها ودراسة كل ما يتعلق بها - ولم تسفر هذه الجهد عن العثور على وثائق تشير إلى تاريخ الفينيقيين في جزء كبير من تاريخهم ، وخاصة في العصور الأولى منه ، بينما أمدتنا رسائل تل العمارنة^(١) التي ترجع إلى منتصف ألف الثاني ق . م . بمعلومات عن جيران مصر ومن بينهم الفينيقيين الذين كانت لها بهم علاقات في ذلك الوقت ، كما أمدتنا النصوص التي عثر عليها في رأس شمرا (وترجع إلى أوائل القرن الرابع عشر ق . م .) بمعلومات عن عقائدهم الدينية - وترجع إلى ألف الأول قبل الميلاد نصوص أشورية ومصرية بالإضافة إلى بعض النقوش الفينيقية التي تلقي بعض الضوء على تاريخهم .

(١) هي عبارة عن مكابن بين مصر ودول الشرق الأدنى خلال عصر الدولة الحديثة في مصر محفوظة في أرشيف عثر عليه بالقرب من قرية تل العمارنة في مصر الوسطى .

وقد لعبت الصدفة أحياناً دوراً فعالاً في العثور على بعض الآثار الفينيقية، ففي سنة ١٨٥٦ انهار جزء من تل صغير بالقرب من صيدا ونجم عن ذلك ظهور قبر في أسفل الجزء المنهار وبداخله تابوت على شاكلة التوابيت المصرية وعلى غطائه نقش فينيقي طويل تبين أنه لأحد ملوك صيدا .

وحينها قام الدروز بثورة عجز الباب العالي عن قمعها وجهت اليهم حملة فرنسية سنة ١٨٦٠ بحججة حماية المسيحيين، واتبعت فرنسا في هذه الحملة نفس الاسلوب الذي اتبنته في حملة نابليون الى مصر حيث زودتها ببعثة من العلماء كان من بينهم رينان الذي كان يعد في مقدمة الباحثين في تاريخ الساميين ، وقد قام هذا بحفائر تركزت في أربعة مناطق كانت معروفة في ذلك الحين على أنها المراكز الرئيسية في تاريخ الحضارة الفينيقية وهي من الشمال الى الجنوب :

- أرورد وطرطوس وعمريت (ماراتوس) .

٢ - جبيل .

٣ - صيدا .

٤ - صور .

وقد نقل رينان كثيراً من الآثار الظاهرة على سطح الأرض والآثار التي عثر عليها في تنقيباته الى متحف اللوفر.

وما يدعوا الى الأسف أن أعوانه لم يقدروا تماماً قيمة الآثار التي كانوا يعشرون عليها فيهملون الكثير منها وخاصة الفخار ، مع أن هذا الاخير من أهم ما يعتمد عليه الباحثون في التوصل الى كثير من الحقائق عن تاريخ المناطق التي يعثر عليه فيها بصفة عامة .

كذلك لعبت الصدفة دورها أيضاً في الاكتشافات التي تمت في صيدا أيضاً، فبينما كان أحد الفلاحين يحرث ارضه سنة ١٨٨٧ في مكان الى الشرق من صيدا قرب قرية الملالية إذا بحراثه يغوص في الأرض ويختفي في فتحة بئر مقبرة انشقت عنها الأرض ، فحضر الى المكان « حمدي بك » مدير المتحف الامبراطوري العثماني حينئذ وأسفرت أبحاثه عن مقبرة ذات طابقين أولها على

عمق عشر أمتار ، وبالرغم من أنه كان قد تعرض للنهب إلا أن مدير المتحف وجد به سبعة عشر تابوتاً ليست بسبعة منها أية نقوش ، أما الطابق الثاني فكان سليماً عثراً به على توابيت منقوشة ومن بينها تابوت عليه نقش يدل على أن الملك «تابنيت أبو اشمونز» هو صاحب المقبرة ،^(١) وتابوته من طراز مصرى - وقد وجدت معه توابيت أخرى من عصور متأخرة وهي من رخام أبيض وذات طابع يوناني . وقد عثر «حمدى بك» أيضاً عند قصر صيدا على شواهد جنزية منقوشة بمنقوشة ملونة ذات طابع يوناني كما عثرا على توابيت من طرز مختلفة وعلى أواني وفيرة .

وبينما كان بعض الاهالى يهدمون حائطاً شمال صيدا (في بستان الشيخ) سنة ١٩٠١ عثروا داخل الحائط على أحجار منقوشة فينية - ثم اشتراك حمدى بك مع بعثة المانىة فى التنقيب فى هذا المكان وأسفرت جهودهم عن الكشف عن معبد^(٢) يرجع إلى أحد الملوك من سلالة «تابنيت واشمونز». ثم قامت بعثة فرنسية بالحفر حول صيدا في أماكن مختلفة أسفرت جهودها عن آثار من عصور مختلفة تنتد إلى حوالي القرن الثامن عشر ق . م . وفيها بين ١٩١١ - ١٩٢٣ م أسفرت عن الكشف عن آثار قيمة من العصر اليوناني الروماني .

وفي سنة ١٩١٤ كلفت الحكومة الفرنسية المسيو كونتنو بالحفر في صيدا وما حولها بالاشتراك مع المتحف الامبراطوري العثماني ولكن العمل توقف بسبب الحرب العالمية الأولى ثم استئنف بعد ذلك في سنة ١٩٢٠ ، وأسفرت التنقيبات عن الكشف عن آثار من عصور مختلفة .

كذلك نجد أن «مونتيه» حينما زار جبيل رأى الاهالى يعشرون على قطع أثرية نقشت بعناصر زخرفية أو كتابات هيروغليفية ، فبدأ يوالي حفائره في دائرة المدينة ابتداء من سنة ١٩٢١ وتبيّن له من نتائج حفائره أن بيبلوس (جبيل)

(١) يرجح أن أشمونز المقصود هنا هو أشمونز الثاني - انظر فيها بعد ص ٥١ .

(٢) معبد أشمون الله الفينيقي الذي يماثل الله ادونيس اليوناني .

كانت ذات صلة وثيقة بمصر الى الألف الأول ق. م . كما تبين له أن آثار العصر اليوناني الروماني تعلو آثاراً تنتهي الى عصر القرنين السادس عشر والسابع عشر ق. م . باستثناء آثار قليلة من فترة تالية تنتهي بالقرن الثاني عشر ق. م - أما الفترة الواقعة بين القرن الثاني عشر ق. م والعصر الهمجي فقد هجرت فيها المدينة كما تبين له أن المدينة نكبت في آخر الألف الثالث بحريق هائل أثر في مباني لم يرجع الى أول الألف الثالث ق. م . وفي سنة ١٩٢٤ كشفت احدى البعثات في مكان قريب عن اثنى عشر قبر وجدت سليمة وأضاف الى معلوماتنا عن تاريخ فينيقيا بعض الحقائق .

ومنذ سنة ١٩٢٩ قام الاستاذان «شيفر» و «شينيه» بالتنقيب في رأس شمرا ، ومع أن التنقيبات الأثرية ظلت مستمرة في هذا الموقع الى سنة ١٩٣٩ الا أن قسماً كبيراً منه لم ينقب فيه بعد ، غير أن ما عثر عليه فيه يكفي لتكوين فكرة عامة عن خصائصه إذ يبدو في آثاره ما يدل على وجود مؤثرات خارجية مصرية وحبيبة وحورية ، ولا تقتصر هذه المؤثرات على منتجات أجنبية أستوردت من الخارج أو منتجات محلية تحاكي تلك المنتجات الأجنبية بل وتبدو هذه المؤثرات أيضاً في بعض العادات التي أقتبسها أهلها من شعوب أخرى - أما عن التنقيب في قرطاجة فقد ساهم فيه عدد كبير من العلماء جاءوا في بعثات رسمية تحت إشراف ادارة الآثار التونسية .

والى جانب هذه المراكز الرئيسية تشير النصوص الى اکثر من عشرين مدينة أو قرية ربما كان بعضها لا يمثل الا بقاع استيطان صغيرة أو محلات قليلة السكان .

وكان لوقوع الوطن الفينيقي الرئيسي في شرق البحر المتوسط بين آسيا وأفريقيا أثره وخاصية عند ظهور دول قوية في أقليم الشرق الادنى إذ كان سهل الاجتياز نسبياً وتحرص الدول القوية على ضمه اليها تأميناً لحدودها ضد الجيران من جهة واستغلال موارده من جهة أخرى ، أي أنه كان من العسير أن ينأى عن الصراعات التي تنشأ في هذا الاقليم وأن يحافظ على كيانه أو أن يظل منطقة محايدة .

تاريخ الوطن الفينيقي

كان هذا الوطن آهلاً بالسكان منذ أقدم العصور، وكان استيطانهم في أول الأمر بالطبع في السهول القرية من الأنهر والمجاري المائية أو المدرجات النهرية . وقد عثر على آثار من العصر الحجري القديم بجوار نهر الجوز (شمال البترون)، وعند نهر ابراهيم، نهر الكلب، بيروت (فرن الشباك، بير حسن ، صخور الحمام ، ونهر بيروت)، جبيل (بالكهوف في سفوح التلال) ، خالدي ، صيدا وفي الحاجز الصخري في قصر عقيل ، قرب انطلياس - وربما يعثر على آثار من نفس العصر في بقاع أخرى - وقد استخدم انسان هذا العصر في أقدم مراحله الآت حجرية تمثل فتوساً يدوية خشنة تعرف الفترة التي استخدمت فيها باسم **الحضارة الابفيلية^(١)** وهي عبارة عن

(١) للتعرف على تاريخ الانسان قبل معرفة الكتابة رتب العصور التي عاش فيها هذا الانسان على أساس حضارية مختلفة وأشهرها التقسيم الذي بني على أساس المواد التي صنع منها الآلة في كل عصر كالآتي :

- ١ - العصر الحجري
- ٢ - عصر البرونز
- ٣ - عصر الحديد

وأصطلاح على تقسيم العصر الحجري الى :

- (أ) العصر الحجري القديم
- (ب) العصر الحجري المتوسط
- (ج) العصر الحجري الحديث

وقد قسم العصر الحجري القديم بدوره الى عصر حجري قديم اسفل وقد تميز بمرحلةين هما مرحلة الحضارة الابفيلية (أو الشيلية) ، مرحلة الحضارة الاشولية .
وعصر حجري قديم أووسط وتميز بالحضارة الليفالوازية - الموستيرية - ، وعصر حجري قديم أعلى وتميز بحضارات ثلاثة هي : الاوريينية والسولتانية والمادلينية .

أحجار صوانية يمكن القبض عليها ولكنها خشنة كبيرة الحجم يختارها الإنسان البدائي كسلاح له . وقد يهذبها قليلا أو يستخدمها دون تهذيب - ثم استخدم فيما بعد الآت أكثر تهذيبا تميل إلى الشكل الثلاثي في مرحلة الحضارة الأشولية ، ولا يعرف شيء عن جنس الإنسان الذي عاش في تلك الفترة وأنتج هاتين الحضارتين .

وما أن انتهت هذه الفترة حتى تغيرت الظروف المناخية التي كانت سائدة في العالم القديم واضطرب إنسان الاقليم السوري بصفة عامة إلى أن يلتجأ إلى الكهوف أو يت redux ملجاً إذ لم تعد الحياة في السهول المكشوفة تلائمه نظراً لميل الجو إلى البرودة وربما كان توصله إلى معرفة النار في ذلك الوقت قد أحدث تطوراً خطيراً في حياته ، فقد ساعده ذلك على الحصول على الدفء وعلى إخافة الحيوانات المتوجحة لإبعادها عنه وعن الذين يعيشون بينهم أو يعولهم كما ساعده النار على تطوير أسلحته فأنتج أسلحة من رقائق صغيرة من الصوان كان يصنعها من شظايا كتل من الصوان - وربما كان إنسان أوائل هذا العصر من نوع النياندرتال ، أي أسلاف الإنسان الحديث - وفي نهاية هذه الفترة أخذ الإنسان العاقل (*Homo sapiens*) في الظهور وتتفوق على سلفه الذي اختفى تدريجياً إلى أن انعدم وجوده تماماً، وكان ذلك في مرحلة العصر الحجري القديم الأوسط التي انتهت منذ نحو ٨٠،٠٠٠ سنة تقريباً وقد سادتها الحضارة التي تعرف باسم الليفالوازية - المستيرية .

أما العصر الحجري القديم الأعلى الذي استغرق الفترة التي دامت منذ نحو ٨٠،٠٠٠ إلى منذ نحو ١٠،٠٠٠ سنة مضت فقد انتشرت فيه الآلات صغيرة تعددت أشكالها وقد كشف عن طبقات سكنية من عصور مختلفة قتلت آثار حضارات متتابعة في قصر عقيل بالقرب من انظلياس ، وهذه الطبقات تمثل مراحل حضارية مختلفة فقد وجدت طبقات بها الآلات أورينيسية تعلوها طبقات وجدت بها آثار ذات طابع محلى تطور عن هذه الآلات ، وبالإضافة إلى هذه عثر على أصداف كثيرة بها ثقوب كبيرة يتحمل أنها كانت تعلق بسيور من الجلد حول الرقبة - وبالرغم من أن الإنسان لم يكن قد توصل إلى الزراعة في هذه المرحلة الحضارية فقد عثر على رحى من البازلت يرجح أنه استخدمها في طحن حبوب كانت تنمو برياً .

ولم يستمر العصر الحجري المتوسط طويلاً ومع ذلك فقد استطاع الإنسان خلاله أن يصل إلى مرحلة حضارية أكثر تقدماً فانتج الآلات أصغر حجماً وأكثر إتقاناً وجمالاً : منها ما كان هلامي الشكل ورؤوس سهام ومحنات ومخازن استخدمت للحفر على العظام ، ونظراً لدقة حجمها فقد أطلق عليها اسم الآلات ميكروليثية . ويرى فريق من الباحثين أن بعض هذه الآلات كانت تثبت في خشت (ذراع) من الخشب أو العظام لاستخدام كمناجل أو كمناشير ، واستنتاج الباحثون من ذلك أن إنسان هذا العصر عرف الزراعة وهكذا خرج عن طور الاعتماد في حياته على جمع القوت عن طريق التقاط الشمار أو الصيد إلى طور انتاج القوت ، وربما توصل كذلك إلى استئناس بعض الحيوانات كالكلاب والأغنام والماعز وغيرها ، وإن كان غالبية العلماء يرون أن استئناس الحيوان بدأ منذ أن عرف الصيد على الأقل حيث أن بعض الحيوان كان يتبع الإنسان كوسيلة سهلة للحصول على الغذاء مما يتركه الإنسان أو يلقيه لعدم حاجته إليه مما يلتقطه أو يصيده وخاصة العظام وما يعلق بها من بقايا بعد أن يتناول طعامه من الحيوانات التي يصيدها - أما عن استخدام المناشير والمناجل فلا يعني بالضرورة معرفة الإنسان للزراعة وإنما من المحتمل أن تكون الحاصلات الزراعية التي استخدمت في حصدتها هذه الأدوات قد نتجت عن زراعة متنقلة أو بدائية أي أن الإنسان في هذه الحالة لم يكن متوجاً على أي حال ، ومع ذلك يمكن تأكيد أنه غير في أسلوب حياته وأصبح أكثر حضارة وتقدماً واتسع أفق معارفه ، وما دام الأمر كذلك ، فإن أهل الأقاليم الذي عرف فيها بعد باسم فينيقيا زادت احتياجاتهم وتشعبت رغباتهم فاضطروا أن يستجيبوا لها وأن يعملوا على تلبيتها - وقد أدى هذا الاستقرار النسبي إلى تطور حضاري آخر حيث استطاع الإنسان أن يتوصل إلى معرفة الزراعة المستقرة بدلاً من اعتماده على الزراعة البدائية المتنقلة واضطره ذلك إلى عدم الابتعاد طويلاً عن المساحة التي يزرعها ، فأصبحت سكنى الكهوف غير ملائمة وحتمت الضرورة أن يلجأ الإنسان إلى إقامة مستوطنات يعيش فيها وأن تربطه بغيرها بعض العلاقات - وحين تزايدت أعداد المستوطنات المتقاربة نشأت القرى التي أخذت في النمو حجماً وعددًا ومنها ما أصبح أشبه بالمدن ، ومن معرفة الإنسان للزراعة أخذ يتطور من الآلة فاختلقت عن الآلة السابقة

ويوصل الى وسائل تخزين مخصوصه فعرف صناعة الأواني الفخارية وقد عرف هذا العصر باسم الدور الحجري الحديث .

ولا تعني معرفة الانسان للزراعة أنه انصرف نهائياً عن حرفة الصيد واستئناس الحيوان ، بل ظل يمارسها الى جانب الزراعة بل وما زال يمارسها حتى عصرنا الحالي .

وقد اختلفت مساكن الانسان بين مكان وأخر حسب ظروف كل بيئة ولكنها جمِيعاً كانت من مواد خفيفة على أي حال ويغلب فيها أن تكون في مستوى أعلى من مستوى سطح الأرض لتكون بمنأى عن فيضان الأنهار والمجاري المائية وجدارتها من الطمى المدعى بالقش المحزوم في قوائم على أبعاد متقاربة .

وكان الموق يدفنون في وضع مقرفص ، بحيث يقترب الذقن من الركبتين أو بهيئة تشبه هيئة الجنين في حفر غير عميقه صغيرة المساحة ، وقد عثر على خلفات الدور الحجري الحديث في أماكن متفرقة في الاقليم السوري .

وفي خلال الألف الرابع ق. م. أخذ النحاس يستعمل في صناعة - بعض الأدوات على نطاق محدود مع بقاء استخدام الأدوات الصوانية وهذه الفترة تمثل مرحلة الانتقال بين الدور الحجري الحديث وبين عصر البرونز وتعرف باسم العصر الشالكوليسي أو عصر استخدام الحجر والنحاس ، ولو أن النحاس لم يتشر استعماله إلا ابتداء من النصف الثاني لهذا العصر ، غير أن أهم ما تميز به ما يليدو في آثاره من تطور في العمارة وانتشار الفخار بكثرة فقد بنيت المساكن من جدران من اللبن فوق أساس من الحجر واستعملت الأخشاب في التسقيف في هيئة أساطين أو عروق - أما الفخار فقد تعددت أشكاله وظهرت أنواع ملونه منه ، وفي هذه المرحلة دفن الموق في أواني فخارية كبيرة تحت أرضية المنازل ويعطي دفن بعض الأواني التي كانت دون شك تحوي طعاماً أو شراباً بأن الانسان اعتقاد في البعد ، وحوالي نهاية هذه الفترة أخذت أواني الفخار الملونة بلون واحد وزخرفت بزخارف هندسية تختفي أمام الانتشار التدريجي لفخار متعدد الألوان ، وفي النهاية كان ظهور الفخار الرمادي اللون الجيد الصقل مؤذناً بانتهاء هذا العصر والدخول في عصر

البرونز المبكر - ولم يعثر على آثار أسوار في بيلوس أو رأس شمرا من عصر الحجر والنحاس ولكن عثر على آثار أسوار ترجع إلى العصر الحجري الحديث في جريكو وإلى عصر الحجر والنحاس في موقع آخر مما يبعث الأمل في العثور على أسوار فيها من عصر البرونز أيضاً في المستقبل.

ومهما كان الأمر فإن ما عثر عليه من آثار حتى الآن لا يستدل منه على وجود خلافات حضارية تمثل كافة العصور السابقة للكتابة - أو العصر قبل التاريخي - في مختلف بقاع هذه المنطقة، كذلك لم يعثر على آثار من العصر التاريخي تكفي لتكوين هيكل تاريخي متكملاً للمدن ومرافق الاستيطان الفينيقية، غير أنها عن طريق هذه الآثار ومن مصادر بعض الأقطار الأخرى يمكن أن نتتبع تاريخ أهم المراكز الفينيقية من الشمال إلى الجنوب على نحو الآتي :

أولاً : رأس شمرا :

على بعد نحو سبعة كيلو مترات إلى الشمال من أوجاري عثر في أعمق الطبقات التي أسفرت عنها عملية التنقيب على آثار وأدوات جرية من طراز أقدم حضارات العصر الحجري القديم المعروفة باسم الحضارة الابفلية (الشيلية) مما يدل على أن هذه المنطقة كانت عامرة بالسكان خلالها ، وتعلو هذه طبقة عثر فيها على آثار تنتمي إلى العصر الحجري الحديث تمثل في أدوات من الصوان والمعظم وأواني فخارية تزيينها بعض الثقوب⁽¹⁾ أو الخدوش التي ربما استخدمت الأظافر في عملها في الأواني قبل حرقها ثم تلي هذه طبقة عثر بها على فخار مزдан بالرسوم الملونة وهو من مميزات العصر المعروف بعصر الحجر والنحاس (الشالكوليسي أو الأنويوليسي)، ومع أن هذه الطبقة لم توجد بها

(1) رتبت الطبقات في رأس شمرا بحيث رقت أقرب الطبقات إلى سطح الأرض وهي التي عثر فيها على آثار أحدث العصور بالأرقام الأولى ومن تحتها تلك التي تحتوي على آثار العصور الأقدم منها وتليها على الترتيب، الطبقات الأقدم - وهكذا تكون أعمق الطبقات التي تحتوي أقدم الآثار هي أعلى الطبقات رقمها .

معادن فإنها تؤرخ بهذا العصر نظراً لأن فخارها يماثل فخار موقع أثرية تنتهي له في شمال سوريا وخاصة تل حلف.

وتعلو هذه الطبقة طبقة تحتوي فخاراً يماثل الفخار الذي عثر عليه في كل من العبيد وجمدة نصر بالعراق التي ترجع لفترة تمثل قبيل الأسرات في العراق ، ويمكن أن ترجع هذه الطبقة إلى الألف الرابع وجوء كبير من الألف الثالث قبل الميلاد - هذا إلى جانب ظهور فخار كنعاني يتمثل في قبور ذات قواعد مسطحة تحليها زخرفة في هيئة المشط وأواني من الطمي المموه بالميناء تشبه الأواني القبرصية التي ترجع إلى العصر البرونزي القديم^(١) وهي ذات نصف دائري .

ومن المرجح أن الفينيقيين استقروا في أوجاريت خلال هذه الفترة وأن بعض العلاقات قامت بينهم وبين قبرص لتشابه أنواع الفخار التي عثر عليها في كلتيهما .

ثانياً : أوجاريت :

أسفرت التنقيبات التي أجريت في أوجاريت على آثار تدل على أن المدينة التي كانت في موقعها وصلت إلى درجة كبيرة من العمران والعظمة ابتداء من الألف الثاني قبل الميلاد وما يثبت مكانة هذه المدينة ما عثر عليه من نصوص ومنها مثلاً نص رسالة بعث بها والي حلب إلى ملك ماري^(٢) فيها بعزم ملك أوجاريت على زيارة ماري ، كما أن مدافن هذا العصر حوت كثيراً من الأثاث الجنزي وأدوات الزينة التي يرجع أنها جلبت من مناطق بعيدة مثل البلقان والدانوب الأوسط ومن مصر التي يبدو أنها كانت على علاقات طيبة معها ، كذلك وجدت بها آثار كرتية من العصر المينوي الأوسط .

وربما كان دخول الحوريين شمال سوريا من عوامل تحركات المحسوس وقد سيطر الحوريون على أوجاريت فترة ثُمت فيها الجالية الاجنبية التي كانت

(١) يختلف تاريخ هذا العصر بين منطقة وأخرى ولكن هنا يؤرخ بالفترة ما بين ٢٦٠٠، ٢١٠٠ ق. م.

(٢) ماري عاصمة مملكة الأморيين في وسط الفرات .

بها ، ولكن ذلك لم يدم طويلا لأن طردت المكسوس بسطت نفوذها على أوجاريت وإزاء ظهور قوى فتية في بلاد النهرين وفي آسيا الصغرى وتشكل خطرا على شمال وشرق الأقليم السوري وجدت مملكة سوريا الشمالية التي أسسها الحوريون (أي مملكة ميتاني) ومصر أن مصلحتها في التقارب وإقامة علاقات ودية فيما بينهم - وتعد الفترة من منتصف القرن الخامس عشر إلى العشرين سنة الأولى من القرن الرابع عشر قبل الميلاد تقريرا من أزهى عصور أوجاريت كما يتضح ذلك من الآثار التي عثر عليها ومن بينها آثار مساكن مريحة وطرق جيدة ومدافن بنيت باتقان كما عثر على خليج ميناء البيضاء بالقرب من المدينة على مراافق الميناء ووكالات تجارية متعددة وعثر على منتجات مصرية وإنجحية مما يوحى بأن فينيقيا عامة شهدت رواجا كبيرا .

وفي منتصف القرن الرابع عشر حدث زلزال في المنطقة أعقبه طغيان البحر فخرقت أوجاريت ولكنها مع ذلك نهضت من ذلك جديد ثم ما لبثت أن وقعت سريعا في قبضة الحيثيين في عهد أحد ملوكها ويدعى «نقماد» وأصبح هذا تابعاً لملك الحيثيين «سوبيلو ليوما» - وعند قيام رعمسيس الثاني في الأسرة التاسعة عشر المصرية بمحاولة استرداد أملاك مصر في سوريا وحدثت بينه وبين ملك الحيثيين وحلفائه من ملوك الدوليات السورية معركة قادش انضمت أوجاريت لهؤلاء الأحلاف بحكم تبعيتها للدولة الحيثيين، ثم وقعت مصر معاهدة مع الحيثيين فساد السلام في المنطقة وظل سكان أوجاريت كما كانوا من قبل وزادت عليهم عناصر من أهل ميكيني (ببلاد اليونان) وأهل قبرص لعبت دوراً كبيراً فيما بعد ، وانتعشت أوجاريت للمرة الأخيرة حيث أنها خربت حوالي سنة 1180 ق. م. أثناء إغارة شعوب البحر التي أسقطت الدولة الحيثية وحاولت غزو مصر ولكنها لم تنجح في ذلك حيث استطاع رعمسيس الثالث أن يبعد خططها عن مصر ، ولم تقم لأوجاريت قائمة بعد ذلك .

ويمكن القول بأن أوجاريت بحكم موقعها كانت أكثر تأثراً بقبرص والحيثيين والحوريين من تأثيرها بمصر .

ثالثاً : أرواد :

معظم معلوماتنا عنها من مصادر غير فيينيقية ، فهي من المدن الفينيقية الرئيسية التي تعرضت للكثير من أطماع الشعوب المجاورة فقد هاجمتها شعوب البحر ودمروها كما يستدل على ذلك من مظاهر التخريب الواضحة فيها عثر عليه من آثار بها ترجع إلى زمن هذا المجموع .

وعندما اعتلى تيجلات بلاسر الأول عرش آشور (١١٣ - ١٠٧٤ ق.م.) قام بحملة أخضاع فيها سوريا العليا لسلطانه وفرض الجزية على أرواد سنة ١١٠٠ ق.م. وبيلوس وصيدا ، ومن أرواد توجه في سفن أروادية إلى سميرا وبلاد الأموريين .

ولما اعتلى آشور ناصر بالعرش سنة ٨٨٣ ق.م. اكتفى سنة ٨٧٦ ق.م. بفرض الجزية على أرواد (صور وصيدا) .

أما شلمناشر الثالث (٨٦٠ - ٨٢٥ ق.م.) فقد هزم ملك أرواد لأنه خلع الطاعة له واضطربت أرواد إلى دفع الجزية ابتداء من حوالي سنة ٨٥٠ ق.م.

ومع أن تيجلات بلاسر الثالث (٧٤٥ - ٧٢٧ ق.م.) توسع في فينيقيا إلا أنه ترك بيلوس وأرواد تتمتعان بحكم ذاتي ، ولكن فرض غرامة على جبيل وأرواد وصور على أثر حملة قام بها سنة ٧٣٤ ق.م. في فينيقيا .

وفي عهد شلمناشر الخامس (٧٢٧ - ٧٢٣ ق.م.) ثارت صور ضده ، ولما أراد غزو قبرص جمع ستين سفينة من صيدا وجبيل وأرواد ولكن تصدت لها اثنا عشرة سفينة صورية ودمرتها وأسرت نحو خمسة وعشرين الأشوريين .

ويحتمل أن فينيقية ظلت تابعة لآشور في عهد سرجون الثاني (٧٢٢ - ٧٠٥ ق.م.). أما في عهد سنحريب (٧٠٥ - ٦٨١ ق.م.) فقد تختلف أمراء يهودا مع الفينيقيين وثاروا على آشور ولكن سنحريب شمل الثنائيين سنة ٧٠١ ق.م. ، وفي اللوحة التي أقامها على نهر الكلب تخليداً لانتصاره ذكر أسماء ملوك بعض المدن الفينيقية ومنهم ملك أرواد «عبدليتي» (Abdiliti).

وحيثما ثارت صور في عهد آشور بانيبال (٦٦٨ - ٦٢٦ ق.م.) أخضعاها بعنف وقسوة وحصل منها على نفائس عديدة ، وقدم ملك أرواد « ياكن لو » (Yakin-lou) خصوصه إلى آشور بانيبال وقدم له جزية وفيرة بالإضافة إلى إحدى بناته لتكون في حريمه الملكي وإن كان من المحتمل أن يكون هذا قد حدث على إثر مهاجمة آشور بانيبال لأرواد نظرا لأن الحاكم الأشوري في سميرنا كتب لآشور بانيبال يشكوا له من أن ملك أرواد كان يحول دون الملاحة إلى الموانئ التي تقع في الأراضي الأشورية .

وما يجدر ذكره أن أرواد ، فيما يبدو ، ظلت على ولائها لآشور حيث ذهب أبناء « ياكن لو » عقب موته لتقديم فروض الطاعة من جديد لآشور بانيبال .

وقد أشاد الأنبياء ، العبرانيون ببحارة أرواد^(١) وسفنهما - وفي أوائل عهد السيادة الفارسية زادت من نفوذها في المنطقة الساحلية ولكن حينها وصل الاسكندر كانت أرواد من بين المدن الفينيقية الرئيسية التي فتحت أبوابها له .

رابعا : بيلوس (جبيل) :

عثر على آثار من العصر الحجري القديم في كهوف في أسفل التلال كما عثر على آثار قرية للصياديون فيها ترجع إلى العصر الحجري الحديث ومن عصر الحجر والنحاس كذلك ، هذا بالإضافة إلى أن التنقيبات التي أجريت فيها فيما بين سنتي ١٩٢٥ ، ١٩٣٠ قد أسفرت عن آثار من عصور مختلفة ابتداءً من الألف الثالث قبل الميلاد إلى القرن الثاني الميلادي ، حيث عثر على أنقاض معبد من الألف الثالث قبل الميلاد تعرض لحرق دمره ، ومن فوقها أنقاض معبد آخر عثر فيها على آثار مصرية ترجع إلى عهود الأسرات المتعاقبة من الأسرة الثالثة إلى الأسرة السادسة (الدولة القديمة) وإلى عهد الأسرة الثانية عشرة (الدولة الوسطى) ومن عهد الأسرة التاسعة عشر أيضاً ، وتعلو هذا أنقاض وأثار تنتهي إلى العصرين اليوناني والروماني .

(١) حزقيال ٨/٢٧ ، ١١

وعلى العموم يبدو أن بيبلوس (جبيل) ظلت آهلاً من أقدم العصور وكانت بحكم موقعها ذات مركز تجاري هام فنشأت بينها وبين جاراتها علاقات وثيقة وإن كان البعض يرى أنها خضعت للنفوذ المصري في كثير من عهودها.

وترجع علاقتها مع مصر إلى أقدم العصور فقد عرفها مصر منذ عصر سحيق حيث أن أسطورة أوزير وست المصرية تشير إلى أن ست بعد أن قتل أخاه أوزير ألقى بالصندوق الذي يحوي جسنه في اليم فجرفه التيار إلى شاطيء بيبلوس ودفعه بين فرعي شجرة نبت بحيث تضمنت الجثمان بين طياتها، وحين شاهد ملك بيبلوس هذه الشجرة أعجب بضمانتها فأمر بقطعها وجعلها أحد أعمدة قصره - ولما علمت ايزيس بما حل بزوجها وأخيها أوزير وصلت إلى جبيل واحتالت حتى دخلت القصر ثم أذن الملك لها بحمل العمود الذي يحوي جثمان زوجها (أوزير) إلى مصر، ومع أن هذه الأسطورة تبدو غير معقولة من وجهة نظرنا إلا أنها دون شك تدل على علاقات بيبلوس بمصر لأن كثيراً من الأساطير لها جذور تاريخية وإن كان الخيال يطغى فيها إلى درجة تبعث على حشوها بالخرافات التي تصبح في نظر معاصرها من الأمور المسلم بها ، وعلى هذا يمكن القول بأن تلك العلاقات تعود إلى عصور سحيقة من القدم .

وما يؤيد وجود هذه العلاقات العثور في أنقاض معبد بيبلوس الذي سبقت الاشارة إليه على أختام اسطوانية من الأسرة الثالثة ، كذلك عثر على أوانى قرابين تحمل أسماء خم سخموى (الأسرة الثانية) وخوفو ومنكاورع (الأسرة الرابعة) وأنناس (الأسرة الخامسة) وتى وبيبي الأول وبيبي الثاني (الأسرة السادسة) - ومن جهة أخرى فقد وجدت أحشاب الأرز مستخدمة في مصر في المقابر والمعابد حيث سقطت بها مقبرة خم سخموى وصنعت منها مراكب الشمس ونوافيس تماثيل الآلهة كما دخلت في صناعة الأثاث الثمين الذي استعمله الملوك وعلية القوم فكانت مصر تستورد منها كميات ضخمة كما يستدل على ذلك من نص على حجر بلمرو^(١) حيث يشير إلى أن سنفرو (مؤسس

(١) كتلة من الحجر موجودة بمتحف بلمرو في صقلية - كانت جزءاً من قائمة بأسماء الملوك وأهم الأحداث في عهودهم من أقدم العصور حتى الأسرة الخامسة .

الأسرة الرابعة حوالي سنة ٢٧٢٣ق.م.) أحضر أربعين سفينه محملة بأخشاب الأرز كما تشير نقوش في معبد للملك ساحورع (أحد ملوك الأسرة الخامسة) إلى أنه أرسل حملة بحرية إلى آسيا عادت منها بأسلاب وأسرى كثيرين، وتدل شواهد الأحوال على أن هذه الحملة وصلت إلى بيلوس (جبيل)^(١) كذلك عثر في بيلوس على عدد من الأواني التي تحمل اسم بيبي الأول الذي أرسل حملة بحرية مع تعزيزات بحرية إلى جنوب الساحل الشرقي للبحر المتوسط ولكن لا يعرف مدى توغلها شمالاً، كذلك عثر على أواني باسم بيبي الثاني، ومن المرجح أن مصر خلال الجزء الأكبر من عصر الأسرات الثالثة إلى السادسة كانت ترسل بعض المدaiا إلى معبد بيلوس . ويرى بعض المؤرخين كذلك أن معبداً مصرياً أقيم في بيلوس منذ عهد خوفو مما يوحي بأن جالية مصرية أقامت بها لرعاية مصالح مصر التجارية .

ويبدو أن العلاقات بين مصر وبيلوس قد توقفت في عهد الأضمحلال الذي أعقب الأسرة السادسة المصرية حيث جاء في أحد النصوص التي تتضمن هذا العصر أن خشب الأرض لم يعد يأتي لمصر^(٢) .

ويعد أن انقضى هذا العهد ونهضت مصر في عهد الدولة الوسطى تطورت علاقات مصر مع بيلوس حيث تشير نصوص قصة سنوحى ، الذي كان من رجال القصر في عهد امتحات الأول مؤسس الأسرة الثانية عشرة وهرب عقب مقتل هذا الأخير ، إلى أنه قصد الوصول إلى جبيل (بيلوس) ،

(١) اختلفت الآراء بشأن هذه الحملة حيث يرى البعض ومنهم مونتيه بأنها كانت حملة أو بعثة سلمية قصد منها إحضار أميرة سورية ليتزوجها الملك . انظر :

Montet, P., "Le drame d'Avaris", Essai sur la penetration des semites en Egypte", (Paris 1941), PP. 23f

ولكن من الأرجح أنها كانت بعثة تجارية عادت إلى مصر ومعها بعض الآسيويين ربما تكون البعثة قد أسرتهم عندما تعرضوا لها .

Wilson, J., "Egyptian Oracles and Prophecies", in Pritchard, J. B., (٢) «Ancient Near Eastern Texts Relating to the Old Testament», p.441.

ومنها رحل ليعيش مع إحدى القبائل - ويبدو في سياق قصته أن مصر كانت تنعم بنفوذ قوي في تلك الجهات بما فيها جبيل (بيبلوس) - وتتضح قوة هذا النفوذ في أجل صورها في إطلاق فراعنة هذه الأسرة لقب «النبيل الأمير» على أمراء بيبلوس في عهدهم وهو لقب كانوا يمنحونه لحكام المدن المصرية ، كما أن «أبشم وابي» أمير بيبلوس الذي كان معاصرًا لامتحات الثالث - أحد ملوك هذه الأسرة - نقش اسمه بالهيروغليفية المصرية على سلاحه وعلى قلائده مما يوحى بتغلغل النفوذ المصري هناك .

ولا يعرف شيء عن علاقة بيبلوس بمصر أثناء حكم الهكسوس الذي خضعت له مصر لمدة تبلغ مائة وخمسين عاماً تقريباً ، ولكن بعد طرد الهكسوس خضع الأقليم السوري لعظام ملوك الأسرة الثامنة عشر بما في ذلك بيبلوس ، ثم أخذ النفوذ المصري في سوريا في التأرجح خلال عهد الأسرتين التاسعة عشر والعشرين إلى أن انحصر عنها في عهد الأسرة الحادية والعشرين ، ففي عهد من منتخب (امنوفيس) الثالث في أواخر الأسرة الثامنة عشر ، ظهرت قوة الحيثيين الذين كانوا في آسيا الصغرى وأخذوا في ضم أجزاء من شمال سوريا كانت خاضعة لمصر ، وقد تعاون «عبد عشراتا» حاكم «امورو»^(١) مع الحيثيين وفي نفس الوقت كان يظهر الولاء لمصر وأنفذ يخضع بعض المناطق المجاورة بحجج إعادة النفوذ المصري إليها بينما كان يستولي عليها لنفسه أو يثبت نفوذه الحيثيين فيها ، فاستنجد الأمراء الموالين لمصر مراراً بالملك المصري ليرسل إليهم مددأً أو أعواناً للحفاظ على الممتلكات المصرية من التوغل الحيثي ولتفادي الواقع تحت سيطرة «عبد عشراتا» ، ومن بين هؤلاء الأمراء «ربعدي» حاكم جبيل الذي كتب للملك المصري رسالة جاء فيها : «... ليسرع مولاي بإرسال الجندي ... فإذا لم يرسل سيدي الملك جنداً هلكنا وتصيب علينا جبيل التي كانت وما زالت إلى الآن في قلق ... وأهلها

(١) يرى معظم المؤرخين أن هذا الاسم يقصد به الاموريون وأن الحاكم المذكور هنا كان يحكم جزءاً من سهل البقاع إلى جنوب قادش .

يقولون : ليس لدينا جنود . . . الأعداء يسعون للاستيلاء على جبيل ويقولون : «لو استولينا على جبيل أصبحنا بها أقوياء - إنهم لو استولوا عليها القويت شوكتهم وأنا لا منجد لي إذا لم تأت إلى لنحاربهم معا ، واعلم اني أحفظ مدينة الملك ليلا ونهارا ولو أني سرت (وحدي) لإنخضاع بلد تخاذل الناس عني لكي يستولوا عليها لأنفسهم - ليس لدينا جند لحفظ مدينة جبيل التي هي مدينة سيدتي الملك فليس رع مولاي بإرسال الجند وإلا هلكنا . . . وسيدي يعلم أني لا أبلغ سيدتي خبرا كاذبا . . . إني أود أن يسير الملك بجنوده وأن يرى بلاده وأن يستولي على كل شيء - اذا ما تحركت للمسير تنحاز بلالاتك كل البلاد ، فمن الذي يجرؤ على الوقوف في وجه جند الملك ؟ سيدتي لا تجعل هذا العام يمر إذ أن أبناء « عبد عشراتا » - وأنت تعرفهم - نزلوا جميعا في أرض سيدتي الملك » .

ومن ذلك يتضح سوء الحالة التي أصبح عليها النفوذ المصري في الاقليم التورى بصفة عامة ومدى تمك حاكم جبيل بالولاء لمصر ومحاولته اليائسة في الاحتفاظ بمدينته في ظل الحكم المصري رغم التهديدات التي تعرضت لها من قبل جيرانه وخاصة « عبد عشراتا » وأولاده .

واشتد سوء الحالة بالنسبة لنفوذ مصر في سوريا في عهد من منتخب (امنوفيس) الرابع الشهير ياسم « اختاتون » الذي اهتم كل الاهتمام بنشر مذهبة الدينى وظل الحال على ذلك في عهد خلفائه حتى أوائل عهد الأسرة التاسعة عشر حيث استطاع سيتي الأول^(١) أن يسترد جزءاً كبيراً من الممتلكات المصرية ومن بينها المنطقة التي تقع فيها جبيل - أما ولده رعمسيس الثاني فقد بني عاصمة جديدة له قرب الحدود الشمالية الشرقية لمصر ليتسنى له مراقبة الحالة في الأماكن المصرية بسوريا عن كثب نظرا لأن الحيثين أخذوا يشددون الضغط على الأماكن المصرية في سوريا وبلغ الصراع بين رمسيس وبين الحيثين أشد

(١) ثالث ملوك الأسرة ١٩ إذا ما اعتبرنا حور محب مؤسس هذه الأسرة .

فالتحقى معهم في معركة قادش التي سجل أحداثها على معظم المعابد والمبانى التي خلفها . ومع أن المعركة لم تكن حاسمة فيها ييدو إلا أن الطرفين اتفقا على عقد معاهدة سلام فيما بينهما ثم تأكّد هذا السلام بزواج رمسيس من ابنة ملك الحيثيين .

ومعهم كان الأمر فإن شواهد الأحوال تدل على أن جبيل بقيت تحت النفوذ المصري في عهده ، حيث عثر مونتىه الذي قام بالتنقيب في جبيل كما أشرنا سابقاً^(١) على أواني عليها اسم والقاب رعمسيس الثاني بين الآثار التي وجدت في مقبرة أحد ملوك جبيل مما يوحى بأنها ظلت على تبعيتها لمصر كذلك نقش هذا الملك - وكان يدعى أحيرام - على تابوتة مناظر تحاكي اسلوب النقوش المصرية ولكنه نقش اسمه بالفينيقية وليس بالهيروغليفية .

غير أن النفوذ المصري في جبيل أخذ في الأفول إلى أن زال نهائياً . ففي عهد رعمسيس التاسع (في أواخر الأسرة العشرين) احتجزت بيبلوس رسلاً فترة طويلة يحتمل أنها بلغت سبعة عشر عاماً .

وعندما انهارت الأسرة العشرين ، وانقسمت مصر إلى منطقتين نفوذاً ، حيث حكمت في الدلتا أسرة ضعيفة ، وظل الوجه القبلي تحت نفوذ الكهنة ، لم يقتصر الأمر على خروج بيبلوس عن نطاق النفوذ المصري بل أصبح حكامها لا يأبهون بالمعوثين المصريين الذين يوفدون إليها من أجل الحصول على الأخشاب - وخير دليل على ذلك ما ورد في بردية عن أحد المعوثين ويدعى « وينامون » الذي أرسله كاهن طيبة إلى ملك الوجه البحري ليزوذه بسفينة ويقدار من الذهب اللازم من أجل شراء أخشاب من الأرز لصنع قارب آمون المقدس وأعطي الكاهن للمبعوث تمثلاً للإله آمون ، وقد تعرض هذا المبعوث للعديد من المتاعب فقد كثيراً من المال الذي كان يحمله ولكنه واصل رحلته إلى بيبلوس وكان يأمل في أن لا يتواتي ملكها « زكرابل » في إمداده بالأخشاب المطلوبة دون مقابل ظناً منه بأنها ما زالت خاضعة للنفوذ المصري أو على الأقل

(١) انظر فيما سبق ص ١٩ .

يغتبط للحصول على تمثال آمون (الذي كان الله الامبراطورية المصرية الرسمى) عوضاً عن قيمة الأخشاب من الذهب إلا أن ملك بيبلوس لم يأبه للمبعوث المصري ولا لمن أرسلوه حيث يبدي «زكريابل» عدم اكتراثه بفرعون مصر بقوله مخاطباً هذا المبعوث «ولست خادماً لمن أرسلك» وبعد توصل «وينآمون» أعطاه «زكريابل» جزءاً من الخشب المطلوب فقط - وهكذا يتضح أن بيبلوس أصبحت مملكة تشعر بقوتها ومنتها ولم تعد خاضعة للنفوذ المصري .

ويبدو أن إغارة شعوب البحر (حوالي سنة ۱۲۰۰ ق.م.) كان لها أثر مباشر على بعض المدن الساحلية فقد دمرت كل من أرواد وصيدا . غير أن الفترة التي أعقبت هذه الإغارة كانت بداية مرحلة من الاستقلال لتوقف نشاط القوى الكبرى في الأقليم السوري - وبينما انتعشت الدوليات العبرية والأرامية اقتصرت المدن الفينيقية على الساحل ، وكانت بيبلوس من بين المدن الرئيسية (وهي أرواد وبيبلوس وصيدا وصور وعكا) - وتدل شواهد الأحوال على أن صيدا تعمت بنوع من السيادة على هذه المدن أو أنها تزعمت تحالفًا مكونا منها .

وحينما اجتاح تحالفات بلاسر الأول ملك آشور (في الفترة ما بين ۱۱۱۲ ، ۱۰۷۴ ق.م.) جنوب الأقليم السوري بهدف الحصول على أخشاب الأرز قدمت له الجزية كل من أرواد وبيبلوس وصيدا ، مع أنه من المرجح أنه لم يخض معركة ضد هذه المدن ، ومع ذلك لم تدم سيادته عليها طويلاً لأنه لم يترك حاميات بها .

ومن نصوص مختصرة ترجع إلى القرن العاشر ق.م. نتبين أن بيبلوس تتبع على عرشه الملك أحيرام ^(۱) ، إيتوبعل ، أبي بعل ، ييعي ملك ، إيلي بعل ، شيببيت بعل ، فقد عثر على تابوت أحيرام الذي نقش عليه نص جنزي ذكر به اسمه ، أما الآخرون فقد وجدت أسماؤهم على مباني أو عماثيل

(۱) وهو غير أحيرام الذي عاش في القرن الثالث عشر أيام رمسيس الثاني (قارن ص ۳۶، ۳۴).

بها نقوش يرجون فيها حماية الآلهة . وقد استتتح المؤرخون بمقارنته بعض النقوش أن ترتيب حكمهم كان على النحو الآتي :

حوالي سنة ١٠٠٠ ق.م.	أحيرام
سنة ٩٨٠ ق.م.	إيتو بعل
سنة ٩٤٠ ق.م.	أبي بعل
سنة ٩٢٠ ق.م.	بيحي ملك
سنة ٩٠٠ ق.م.	إيلي بعل
سنة ٨٨٠ ق.م.	شيببيت بعل

ومن المحتمل أن «بيحي ملك» أسس أسرة جديدة على إثر أبي بعل -
ولما كان كل من هؤلاء يلقب نفسه بلقب «ملك بيبلوس» فإن ذلك يوحي باستقلالهم الفعلي عن مصر .

ويرى بعض المؤرخين أن ملوك بيبلوس زادوا من مساحة ملكهم على حساب جيرانهم وبسطوا نفوذهم على صور التي يرجع أنها أصبحت مقر ملوكهم ولكن هذا التوسيع كان محدوداً نظراً لأن الفلسطينيين ^(١) والعربين كانوا ينافسونهم وأصبحوا عائقاً في سبيل توسيعهم - وتنحصر معلوماتنا عن علاقتهم بالفلسطينيين في أن هؤلاء دمروا مدينة صيدا - أما مع العربين فإن الكتاب المقدس يذكر هذه العلاقات بشيء من الأفاضة ومنه نعلم أن داود (فيها بين ١٠٠٠ ، ٩٦١ ق.م. تقريباً) ، حين وسع مملكته ، فسم جزءاً كبيراً من الساحل الفينيقي لملكته - ولكن من المرجح أن بيبلوس حافظت على استقلالها لأن ملوكها «حيرام» (أو أحيرام) تبادل مع «سليمان» بن «داود» وخلفيته على العرش علاقات الود والصداقة وربطت بينهما منافع مشتركة ، فكان حيرام يرسل لسليمان الأخشاب ومواد البناء والحرفيين لبناء معبده وقصره ويتقى منه مكافآت سخية عنها مما يؤكّد استقلال كل منها .

(١) من قبائل شعوب البحر الذين تركزوا في خمسة مدن رئيسية على الساحل وكانت تترعّمها مدينة أسدود . وكان يطلق عليهم اسم Pulusati أو Phillistines ومنه اشتقت أسم فلسطين .

خامساً : صور :

يستدل من الشواهد الأثرية والتاريخية على أن موقع المدينة كان عامراً منذ القرن الثامن والعشرين قبل الميلاد حيث أشار هيرودوت إلى أن كهنة صور ذكروا له أن معبد الإله ملقارت الذي كان فيها ، بني في وقت بناء المدينة قبل زيارته لها (سنة ٤٥٠ ق.م.) بحوالي ٢٣٠٠ سنة ، كما أن من المرجح أن الهجرة السامية التي وصلت إلى شمال سوريا في منتصف الألف الثالث توحي بأن الأقليم السوري بأكمله كانت تسكنه أقوام أخرى قبل وصولها مما يوحي بأن المدينة كانت قائمة في ذلك الحين ، وتشير الأساطير الصورية إلى أن جنساً من أنصاف الآلهة جاء بعد خلق الكون وتلاه جنس من العمالقة اخترعوا ما أفاد العالم ومن هؤلاء أوزوس الصياد (وهو أسطوري) الذي كان أول من خاطر برکوب البحر فوق جذع شجرة رسا به على جزيرة من جزر الشاطئ السوري ، وأقام بها عمودين أحدهما للنار والآخر للريح وقدم القرابين ، وفي نفس الوقت أسس مدينة صور .

ولا شك في أن هذه الأساطير تشير إلى قدم معرفتهم بالملاحة التي مكنتهم من تبادل التجارة على طول سواحل البحر المتوسط ، وعلى أجزاء من سواحل المحيط الأطلسي حتى وصلوا إلى بريطانيا وداروا حول أفريقيا ، وكانوا أحياناً يتغلبون في داخلية البلاد المطلة على تلك السواحل إذا ما أتيح لهم ذلك ، ففي إحدى مقابر طيبة عاصمة مصر في عهد الدولة الحديثة منظر يمثل وصول سفينة تجارية فينية إلى طيبة (وهي من بيلوس أو صور) وكانت تحمل بضائع صيدونية وأواني ميكينية^(١) .

ومهما كان الأمر فإن صور والمدن الفينيقية بصفة عامة خضعت لمصر خلال الأسرة الثامنة عشر - وحينما أخذ الحيثيون في التقدم جنوباً وأخضعوا شمال سوريا بدأت الولايات السورية تنفصل عن الحكم المصري ولم يبق موالياً لمصر سوى صور وبيلوس بينما كان «عبد عشراتاً» وهو أمير شعب يدعى

Hall, H.R., «The Ancient History of the Near East», 11 th. ed., (1) London 1963), p. 293

أموره يتظاهر بالولاء لمصر ويماليء الحبيسين وفي نفس الوقت ينقض على الولايات التابعة لمصر ويضمها للأقليم الخاضع له . كذلك استمر «عزيزو» بن «عبد عشراتا» على سياسة والده فأخذت مصر تفقد أملاكها في الأقليم السوري شيئاً فشيئاً ، ولكن من المرجح أن كلا من صور وبيلوس وصيدا وبيروت ظلت على ولائهما لمصر، ولم يدم ذلك طويلاً فقد زال النفوذ المصري من الساحل السوري في نهاية الأسرة الثامنة عشر وبداية الأسرة التاسعة عشر، وحينما اعتلى سيتي الأول^(١) عرش مصر استطاع أن يستعيد الجزء الجنوبي من الأقليم السوري من قبضة الحبيسين الذين كانوا قد استولوا عليه في نهاية الأسرة الثامنة عشر .

وحينما تولى الملك خلفه رعمسيس الثاني قام في السنة الثانية من عهده بحملة إلى الأقليم السوري ولم تتعارضه عقبات إلى أن وصل إلى سفوح الجبال عند مصب نهر الكلب بالقرب من بيروت وهناك أقام نصباً رمزاً لانتصاره ثم زحف شمالاً للقاء الحبيسين الذين استعدوا له في قادش (قرب مدينة حمص الحالية) بينما بقيت المدن الفينيقية تتربّى ما تسفر عنه الأحداث بين المصريين والحبسين - ولم يسفر اللقاء بين القوات المصرية والحبشية في قادش عن معركة حاسمة غير أن أهم نتيجة لها هي المعاهدة التي عقدت بين المصريين والحبسين وأدت إلى حلول السلام فيما بينهم .

وبعد معاهدة رعمسيس الثاني والحبسين ظل الفينيقيون في جنوب أر棹اد مستمرين في جمع الثروات عن طريق التجارة في ظل الحماية المصرية بينما كان أمراء الكنعانيين والخابiro قد أخذدوا مؤقتاً - وكان نواب الحكم المصريين المقيمين في غزة وعسقلون وأورشليم وجedo وصور وصيدا يرقبون الامراء والزعيماء المحليين ويرشدونهم - وبينما كان الاموروبيون في الشمال على وفاق تام مع الحبيسين كان هؤلاء يصدرون أخشاب لبنان وغيرها من المناطق إلى مصر - أي أن التجار المصريين كانوا يقطعون الاخشاب في المناطق الخاضعة للحبسين لقاء أثمان باهظة^(٢) .

(١) انظر الملاحظة ص ٣٣.
(٢) Hall, op.cit., 367-8.

وكان الفينيقيون آمنين في مدنهم الحصينة وعلى سفنهم فلم يتأثروا كثيراً بالإسرائيليين أو الاراميين أو الفلسطينيين - ومع أن قبائل الخابiro (الذين يحتمل أنهم كانوا أسلاف العبرانيين) أزعجتهم في عهد اخناتون إلا أنهم لم يحتلوا أرضاً فينية - أما في البحر فقد تعرضوا لهجمات الفلسطينيين والجكر الذين احترفوا القرصنة غير أن هجمات هؤلاء لم تؤثر على الفينيقيين الذين احتفظوا باستقلالهم وفرديتهم منذ عهد تحتمس الثالث إلى عهد الاسكندر ، ولم تتوقف تجاراتهم وتابعوا إنشاها ونشرها إلى أقصى نهايات البحر المتوسط وإلى ما وراء من ذلك .^(١)

ولم يمض وقت طويل بعد ذلك حتى تبدل الحال في إقليم الشرق الأدنى بصفة عامة ، ويهمنا هنا أن نذكر بأن الشعوب التي عرفت باسم شعوب البحر غزت غرب آسيا وأسقطت الدولة الحيثية حوالي سنة ١٢٠٠ ق . م . وامتد غزوهم إلى الأقليم السوري وهددوا الحدود المصرية ولكن رعمسيس الثالث (ثاني ملوك الأسرة العشرين) استطاع أن يصدthem عن مصر ، وبالطبع خرجت المدن الفينيقية عن نطاق النفوذ المصري إلا أنها تعرضت لبعض الأضرار - فحينما أغارت شعوب البحر عليها قامت بنهب عدد منها وخاصة مدینتي صيدا وصور . ولكن ما أن زال أثر تلك الاغارة حتى نهضت المدن الفينيقية ومن بينها صور التي نعمت بنشاط ورواج لم تشهد له مثيلاً من قبل ، ففي أوائل الالف الأول قبل الميلاد لم يتهدد المدن الفينيقية خطر من الخارج ونعمت بالسلام فترة لا تقل عن قرنين من الزمان وهي تعد العصر الذهبي للمدن الفينيقية - أما صور فقد ظلت مستقلة فيها بين عامي ٥٠٠ ، ١٠٠٠ ق . م . تقريرياً حيث وصل نشاطها التجاري إلى منتهائه ووصلت أساطيلها إلى أماكن بعيدة أسسوا فيها وكالات تجارية ومسنة «مرات دائمة .

ومن أشهر ملوك صور « حيرام » (أو أحيرام) بن « أبي بعل » الذي عرف باتصالاته مع سليمان ، وينسب إليه أنه زاد في مساحة مدینته ورمم المعابد القديمة وشيد معابد أخرى جديدة ، وكان معبد ملقارات (بعل صور)

ومعنى اسمه «الله المدينة»^(١) فائماً على جزيرة صغيرة منفصلة عن جزيرة صور الكبيرة فردم حiram ما بينهما وانشاً بهذا السد مينائيين أحدهما في الشمال والآخر في الجنوب .

وينسب الى حiram أنه كان حكيمًا ذكيًا تبادل مع سليمان الاحاجي - وقد شارك سليمان في حملاته البحرية ، وفي نفس الوقت كان ينمی تجارتہ مع قبرص وأسبانيا .

وقد تبعه في الحكم ولده بعل - اتسار (Baalezat) الذي ظل في الحكم سبعة عشر عاماً (٩٣٥ - ٩١٩ ق . م .) ثم تبعه عبد عشتارت الذي حكم تسعة سنوات (٩١٨ - ٩١٠ ق . م .) ثم قتله أبناء مربيته واغتصبوا العرش ، وأول من تولاه منهم ميشو عشتارت الذي حكم اثنى عشرة سنة (٩٠٩ - ٨٩٨ ق . م .) ثم تبعه عشتاريyo الذي حكم تسعة سنوات (٨٩٧ - ٨٨٩ ق . م .) ثم اغتاله أخوه فيلبس الذي حكم ثمانية أشهر فقط (٨٨٨ ق . م .) ثم أزاحه أيتو بعل كاهن عشتارت عن العرش وقتله ، وظل يحكم من بعده اثنين وثلاثين عاماً (٨٨٧ - ٨٥٦ ق . م .) ، مؤسساً أسرة حاكمة جديدة ظلت في الحكم قرناً من الزمان على الأقل .

ومن الجدير بالذكر أن عهد الفوضى والحروب الأهلية التي أنتهت بارتفاع ايتو بعل على العرش في صور صاحبتها فترة مظلمة في اسرائيل حيث انقسمت المملكة وأشتد الشقاق في القصر - كذلك يتفق ارتفاع ايتو بعل في صور مع ارتفاع عمري على عرش اسرائيل وتأسيس أسرة ظلت في الحكم بضعة عشرات من السنين سادتها علاقات الصداقة بين الدولتين ، ويشير الكتاب المقدس الى أن ايتو بعل زوج ابنته «ايزايل» الى آحاب بن عمري الذي حكم حوالي سنة ٨٥٤ ق . م . مما أدى الى امتداد نفوذ اسرائيل السياسي الى

(١) كان لكل مدينة الله أي «بعل» يعني «سيد» وملقارب الله كانت له صفات شخصية ثم أضيفت اليه صفات بحرية - وكانت المدن الفينيقية تمثل الى نسبة صفات بحرية الى آخرها لارتباط حياتها بالبحر .

الساحل الفينيقي كما امتد تأثير الديانة الفينيقية بدورها في داخل اسرائيل^(١) وإذا أضفنا إلى ذلك أن عتليا إبنة ايزابيل تزوجت من «يهورام» ملك يهودا فإن من اليسير تفسير انتشار المعتقدات والطقوس الفينيقية بين العبرانيين ، وقد ظل التأثير الفينيقي سائداً في كل فلسطين زماناً ليس بالقصير إلى أن ثار عليه الانبياء العبرانيون .

ولا شك أن صور كانت قوية في عهد ايتو بعل ، وما يؤكده ذلك أن الكتاب المقدس يشير إليه باعتباره ملك الصيدونيين^(٢) بينما يشير إلى حiram على أنه ملك صور- ولا يعني ذلك أن هذا التعبير يطابق مدلوله لأن يوسيفوس^(٣) يصف «ايتو بعل» بأنه ملك صور وصيدها مما يثبت امتداد سلطانه على الساحة الفينيقية كما يذكر عنه أنه أسس مدينة البترون (بوتريس) شمال بيبلوس ، ولكن يحتمل أنه جدد فيها نظراً لأن هذه المدينة كانت معروفة من قبل كما تشير إلى ذلك خطابات تل العمارنة ، وأسس مدينة أخرى في ليبيا لم يمكن تحديد موقعها حتى الآن .

ومع أن الفترة التي تلت حكم ايتو بعل كانت غامضة ويرجح أنها كانت مضطربة إلا أن أحدى الأساطير تشير إلى أن صور كان لها الفضل في تأسيس قرطاجة ، فهي تروى أن مтан (Mattan) حفيد ايتو بعل أنجب ابنة تدعى «إليسا» وابنا يدعى «بيجماليون» وأن إليسا اعتلت العرش فترة قصيرة ثم عزلت وأصبح اخوها ملكاً وقتل زوجها فهربت «إليسا» إلى قبرص بعد أن تعرضت لبعض المخاطر ، ومن قبرص اتجهت إلى شمال أفريقيا ونزلت بالموقع الذي عرف فيما بعد باسم قرطاجة حيث أمكنها أن تؤسس مستعمرة بمعاونة أنصارها الصوريين من كافة الطبقات .

ومع أن شمال فينيقيا تعرض للخطر من قبل الاشوريين حينما وصلوا إلى درجة من القوة تسمح لهم بالتوسيع فإن جنوب فينيقيا ظل محتفظاً باستقلاله

(١) الملك الأول ٣٠/١٦ - ٣٢ .

(٢) الملك الأول ٣١/١٦

(٣) مؤرخ يهودي عاش من سنة ٣٧ إلى ٩٨ م

فترة بعد ذلك ، ففي حوالي سنة ١١٠٠ ق . م . احتل «تيجلات بلاسر الأول» ملك آشور ارواد ولكن هذا الاحتلال الآشوري لم يدم طويلاً - ويبدو أن الدوليات الآرامية والعبرية كانت تمتلك شطراً كبيراً من النشاط العسكري الآشوري مما أتاح الفرصة للمدن الفينيقية كي تتبعه ولم يكن للحملات الآشورية عليها أثر يذكر ، فقد اكتفى «آشور ناصر بالثاني» سنة ٨٧٦ ق . م . بفرض الجزية على ملوك صور وصيدا وارواد - ولما خلفه على عرش آشور ولده «شنناصر الثالث» (٨٦٠ - ٨٢٥ ق . م .) أخذ الجزية من صور وصيدا وبيلوس عدة مرات ، ولما خرجت ارواد عن الطاعة لآشور هزمها في معركة حاسمة .

وبعد أن اعتلى «اداد نيراري الثالث» العرش في آشور قام بحملة على الأقليم السوري سنة ٨٠٥ ق . م . وهي الحملة الوحيدة التي قام بها هناك ، ثم نعمت سوريا وفينيقيا بهدوء نسبي إلى أن اعتلى عرش آشور «تيجلات بلاسر الثالث» سنة ٧٤٥ ق . م . حيث يذكر في نقوشه أنه قام بحملة على الأقليم السوري وفرض الجزية على صور وصيدا - وما تجدر الاشارة إليه أن التوسع الآشوري لم يتخذ صفة الاحتلال الدائم لفينيقيا بل كان ينحصر في بسط السيادة الآشورية عليها من بعد وفرض الجزية عليها ، وقد ازداد الضغط الآشوري عليها في عهد «تيجلات بلاسر الثالث» (٧٥٤ - ٧٢٧ ق . م .)، ومع أنه قام في سنة ٧٤٣ ق . م . بحملة على الأقليم السوري وانضم شمال فينيقيا (على الأقل) لسلطانه فإن بيلوس وأرواد تمعنت باستقلال ذاتي نسبياً - وقد دفعت صور الجزية في عهد ملكها حيرام الثاني الذي يظهر اسمه في نص فينيقي عثر عليه في قبرص يشير فيه صاحبه إلى أنه تابع أو خادم الملك «حيرام» ملك الصيدونيين^(١) ، ومعنى ذلك أن صور احتفظت باستقلال جوهري وحكمت المنطقة المجاورة - ولم تشر نصوص «تيجلات بلاسر الثالث» إلى أن «حيرام الثاني» تلاه ملك يدعى «ميتيينا» الذي دفع الجزية هو الآخر لملك آشور .

(١) انظر بعد ص ٤٩ .

ويحتمل أن «تيجلات بلاس الثالث» عين ولده «شلمناصر (الذي تبعه على العرش باسم «شلمناصر الخامس» فيها بين سنة ٧٢٧ ، ٧٢٣ ق . م .) حاكماً على فينيقيا بينما كان «لولي» أو «ايلولا يوس» ملكاً على صور وصيدا ، وحينها تولى «شلمناصر الخامس» عرش آشور أراد أن يغزو جزيرة قبرص فجمع ستين سفينة من صيدا وببيلوس وارواد ولكن صور قامت بالثورة وتصدت اثنتا عشرة سفينة صورية لهذا الاسطول الذي جمعه ودمته وأسرت نحو خسمائة من الأشوريين ، فقام ملك آشور بحصار جزيرة صور ولكنه مات قبل أن يخضعها .

وحينها تولى «سرجون الثاني» عرش آشور (٧٢١ - ٧٠٥ ق . م) استطاع أن يستولي على قبرص وأن يحصل منها على الجزية في مناسبات عدّة ، وقد أدى ذلك إلى حدوث تغيير في سلوك قبرص وإلى حدوث تغيير جوهري في اقتصadiات شرق البحر المتوسط فلم يعد الفينيقيون قادرين على الاحتفاظ بالسيطرة على الطرق التجارية فيه بل وخضعوا لنفوذ الأشوريين الذين كانوا أعظم منهم بقوة . ولكن بالرغم من ذلك ظلت قوة المدن الفينيقية ملحوظة ، فقد نشبت الثورة في شمال ووسط سوريا ضد الأشوريين ولكن «سرجون الثاني» أخضعها في السنة الثانية من حكمه .

ولا يعرف شيء عن الساحل الفينيقي في عهده سوى ما ذكره في حولياته من أنه تلقى الجزية في السنة السابعة من حكمه من ملوك قلائل من بينهم ملوك الساحل ، كما أنه وصف في نقش عثر عليه في خورسبياد بأنه «قاهر كيليكيما (كوي) وصور» - ومع كل فإن شواهد الاحوال تجعلنا نميل إلى أنه لم يتخد موقفاً معادياً من الفينيقيين بل على العكس ربما استعان بهم في مغامرة بحرية كبيرة قام بها في البحر المتوسط .

وفي عهد «سنحريب» (٦٨١ - ٧٠٥ ق . م) تكون حلف من المدن السورية بما فيها المدن الفينيقية ضد آشور ، وقد انتصر «سنحريب» على هذا الحلف في معركة يحتمل أنها كانت في سنة ٧٠١ ق . م - فر على أثرها ملك صور (الذي كان يحكم صيدا أيضاً) إلى قبرص حيث مات بها .

ويبدو أن صور كانت موالية لها ثم انقلبت الأوضاع فأصبحت صيدا معادية لآشور، وحين أصبح بعل ملكاً على صور عاون الآشوريين، ولكن ما لبثت صور أن ثارت فيها بين ٦٧٦، ٦٧١ ق.م. غير أن آشور أخذت الثورة وأجبرت صور على عقد معاهدة معها، وكانت معاهدة مجحفة حيث أنها تضمنت العديد من الالتزامات التي يجب على ملك صور أن يفي بها وحتمت بأن تكون الشؤون الآشورية في صور من اختصاص الحاكم الآشوري، كذلك أضعف سلطة الملك بأن ألزمته بتعيين مجلس للشيخوخ يعاون الملك في كل اختصاصه - ويتبين في المعاهدة أيضاً أن الملاحة كانت ذات أهمية خاصة حيث أنها حددت اسماء الموانئ السورية التي يمكن لسفن صور الوصول إليها للتجارة تحت الرقابة الآشورية بعد الحصول على إذن بذلك .

ونظراً لأن صور شعرت بشدة وطأة هذه المعاهدة فإنها انتهت فرصة الصراع بين مصر وآشور واتحدت مع «طهرقة» ملك اثيوبيا ومصر معلنـة الثورة على آشور وبين «اسرحدون» ملك آشور ذلك في أحد نصوصه بقوله : «استوليت على صور التي هي في وسط البحر وجردت ملكها «بعل» الذي وثق في «طهرقة» ملك اثيوبيا من مدنـه ومتلكاته وأخضعت مصر ، مصر العليا ، وأثيوبيا»^(١) - ومع كل فإن نصوصاً أخرى توحـي بأن إخضاع صور تم بعد حصارها وقطع الإمدادات عنها وقد فرض «آشور بانيال» خليفة «اسرحدون» عليها الجزية إلا أنها ظلت متمتعـة بالحكم الذاتي في عهد ملكها المعـاصر له وهو «بعل» .

ومهما كان الأمر فإن عهد «اسرحدون» أدى إلى الحد من استقلال فينيقيا إذ قسمـت إلى ثلاثة ولايات آشورية هي : سميرا في الشمال ، صيدا في

(١) رغم أن اثيوبيا هي الاسم الرسمي للدولة الحبشية حالياً ، إلا أنها كانت في العصور القديمة تطلق على كل البلاد الواقعـة في جنوب مصر - وقد تألفت مملكة في أقاليم الشلال الرابع في السودان الشمالي استطاعـ ملوكها أن يحكمـ مصر حيث كانوا فيها الأسرة الخامسة والعشرين - ونلاحظ هنا أن اسـرـحدـون ذـكرـ مصرـ على أنهاـ الدـلتـا أوـ مصرـ السـفـلـ ومـصرـ العـلـىـ علىـ أنهاـ الصـعيدـ وأـثـيوـبيـاـ علىـ أنهاـ شمالـ السـودـانـ . والـواقعـ أنهـ لمـ يـتوـغلـ إـلـىـ أـبعـدـ مـنـ مـنـفـ وـلمـ يـصلـ إـلـىـ مصرـ العـلـىـ .

الوسط وصور في الجنوب ولم تبق مستقلة سوى مدن قليلة منعزلة هي : ارواد وبيلوس وجزيرة صور^(١).

وفي عهد «آشور بانيبال» (٦٦٨ - ٦٢٦ ق . م) ثار «بعل» ملك صور من جديد فأخضعه آشور بانيبال بقسوة ولكنه عامله بالرأفة فيما بعد - ويظهر أن هذه الثورة قد ارتبطت بمحاولات مصر التخلص من السيادة الآشورية وإن كانت لم تشارك معها في محاولتها هذه ، وبعد إخضاع صور يفخر آشور بانيبال بأنه أخضع أروداد التي لم تخضع من قبل لأسلافه ويعدد الغنائم النفيسة التي أخذها منها - ثم يشير آشور بانيبال إلى حملة أخرى قام بها ضد مدن أخرى في فينيقيا ومنها عكا .

ولا تشير النصوص التي من عهد خلفائه إلى فينيقيا - وبسقوط الامبراطورية الآشورية (٦١٢ ق . م) يبدو أن المنطقة عادت إلى الحالة التي كانت عليها في زمن اسر حدون أي أنها كانت مقسمة إلى ثلاث ولايات هي سميراء وصيدا وصور كما سبقت الاشارة وثلاث مدن هي ارواد وبيلوس وصور وكلها تدفع الجزية .

ولا توجد أدلة تاريخية عن حالة المدن الفينيقية فيما بين ٦٤٠ ، ٥٩٠ ق . م . ، ولكن يبدو أن ضعف الامبراطورية الآشورية والقضاء عليها على يد الميديين والبابليين سنة ٦١٢ ق . م . هيئا لتلك المدن فترة من الرخاء المؤقت كما يحتمل أنها لم تمانع في توسيع «نخاو» ثاني ملوك الأسرة السادسة والعشرين المصرية ، الذي توغل في فلسطين وأراد فتح سوريا بأكملها ولكن انتصار نيوخذ نصر ملك بابل عليه في قرقميش سنة ٦٠٥ ق . م . كان بداية محنة للمدن الفينيقية فقد هاجمها نيوخذ نصر (٦٠٥ - ٥٦٢ ق . م .) وحاصر صور التي ظلت تقاوم ثلاثة عشر عاماً (٥٨٦ - ٥٧٢) حتى خضعت في النهاية كما خضعت صيدا وغيرها - وقد خلع نبوخذ نصر ملك صور المهزوم «إيتوبعل» وعين في مكانه «بعل» الذي أخلص له بقعي على عرش صور

(١) انظر ص ٥٠.

من سنة ٥٧٥ إلى سنة ٥٦٤ ق. م. وكان يعاونه وزير بابلي - وبانتهاء عهد «بعل» توقف تتابع الملوك مؤقتاً وتولى الحكم قضاء مدة سبع سنوات باستثناء ملك واحد حكم لمدة سنة واحدة ثم جاءت بعد ذلك سلالة من الملوك بدأها «ميربال» الذي حكم أربعة أعوام ثم تبعه أخوه حيرام (٥٥٢ - ٥٣٢ ق. م.).

ولا توجد معلومات مباشرة عن المدن الفينيقية على أثر سقوط الدولة البابلية على يد الفرس ولكن من الواضح أنها لم تكن في حالة تسمح لها بإبداء أي معارضة بل وربما رحبت بذلك الحدث التاريخي إذ خلصهم من نير الحكم البابلي الذي عرف بالقسوة - ومع أن الكتاب المقدس يشير إلى أن كورش الثاني^(١) سمح لليهود بالعودة من منفاهم في بابل إلى فلسطين ليحصلوا على أخشاب الأرز من الصيدليين والصوريين لبناء معبدهم الجديد إلا أن ذلك لا يعطينا فكرة واضحة عن حالة المدن الفينيقية ولكننا نعرف عنها أكثر من ذلك في عهد خلفة قمبيز الثاني حيث وضعت المدن الفينيقية أسلوبها تحت إمرته حينما أعد لحملته على مصر غير أنها ، كما يذكر هيرودوت ، لم تتوافقه على الإسهام في الحملة التي كان يعدها لغزو قرطاج مما يوحي بأنها كانت متمسكة بأواصر الود مع مستعمراتها السابقة .

وعندما قسم «داريوش» إمبراطوريته إلى ولايات إدارية جعل المدن الفينيقية تمثل الولاية الخامسة في إمبراطوريته ولكنه أبقى لها حكمها الذاتي تحت رقابة وزراء عسكريين من الفرس لكي يضمنوا ولاءها واستمرارها في دفع الجزية .

ومن المحتمل أن المدن الفينيقية قنعت بهذا النظام إذ لا يوجد ما يدل على حدوث ثورة ضده بل تشير المصادر اليونانية إلى المساعدة القيمة التي قدمتها المدن الفينيقية «لداريوش» (٤٨٦ - ٥٤٢ ق. م.) و«اجزركيس» (٤٧٥ - ٤٦٥ ق. م.) في حروبها ضد اليونان كما تشير أيضاً إلى

(١) مؤسس الأسرة الاحسينية في فارس .

معاونتهم «لارتجزركسيس الأول» (٤٦٥ - ٤٨٦ ق. م) و«لداريوش الثاني» (٤٢٥ - ٤٠٤ ق. م.) ومن هذه الاشارات يبدو أن أخلاق الفينيقيين للفرس كان في مقابل السماح للمدن الفينيقية بالتوسيع فيما جاورها - فبعض المصادر الكلاسيكية تشير الى أن رقابة جزء كبير من الساحل السوري (الفينيقي) نيت بمدينة صور ، وأن أرواد مدّت نفوذها في المنطقة الساحلية ، وأن صيدا امتلكت دوراً (طنطورة الحالية) ويافا كما أشارت مصادر أخرى الى أن هذه المدن الثلاثة اشتراك في بناء أو إعادة بناء طرابلس إذ أن كلّ منها أسست فيها قسماً (حيّاً) خاصاً بها ، ومن ذلك تبين أن الحكم الذاتي والوفاق السياسي ساد بين المدن الفينيقية^(١).

وبعد معركة إسوس (سنة ٣٣٣ ق. م.) فتحت مدن فينيقيا الرئيسية أبوابها للأسكندر بينما ظل ملك صور على ولائه للفرس وفي نفس الوقت اراد أن يحتفظ بالاستقلال - وقد شجعت بعثة قرطاجية صور على المقاومة ، غير أن الاسكندر لم يكن على استعداد للتخلي عن جزيرة صور لوقعها الاستراتيجي فبني حائطاً يوصل بينها وبين الساحل وحاصرها بمساعدة سفن المدن الفينيقية الأخرى التي نقضت تبعيتها للفرس على إثر موقعة إسوس وتجمعت السفن في صيدا بينما رجعت سفن إلى جزيرتها - ولم تلتقط صور من قرطاجة المعونة التي كانت قد وعدت بها ونجح الاسكندر في الاستيلاء عليها بعد مقاومة عنيفة ، وقد بُجا الملك والزعماء والمعوثين القرطاجيين إلى معبد ملقارب للاحتماء به فعفا عنهم الاسكندر وأعيد بناء المدينة في هيئة قلعة مقدونية استعمرها المقدونيون .

وقد تعرضت المدن الفينيقية بعدئذ لأزمات خطيرة وتغلغلت فيها الثقافة الهللينية التي قضت تدريجياً على التراث القديم واختفت كذلك اللغة الفينيقية تدريجياً وحلت محلها اللغة اليونانية ، غير أن تدهور المدن الفينيقية لم يكن سريعاً بل تم ببطء وتخلله فترات متباينة من الانتعاش والاستقلال وفي هذه الائتاء كانت في كل من صور وصيدا أسرة حاكمة حصلت على استقلال

(١) انظر ص ٥٠.

مؤقت وتتعدد لفترات قصيرة بدويارات مدن قامت في صور ابتداء من سنة ١٢٠ ق.م. وفي صيدا ابتداء من سنة ١١١ ق.م. وحتى بعد الغزو الروماني سنة ٦٤ ق.م. تنتع كل من صور وصيدا وطرابلس باستقلال جزئي ولم يكن ذلك الا لمجرد التمسك بإحياء الماضي والعودة الى التقاليد الموروثة وأوجبه الظروف الجغرافية كما أنه كان يتلاءم مع إطار التطور التاريخي العام.

سادساً : صيدا :

منذ عام ١٨٥٦ أخذ الاهتمام بالتنقيب يتزايد في المدن الفينيقية وبالقرب منها ، وحظيت صيدا بقدر كبير من هذا الاهتمام وربما كان سبب ذلك يرجع إلى أن أحد الفلاحين لاحظ انهياراً في أحد اركان تل صغير قائم عند التقاء طريقين من الطرق المؤدية من صيدا إلى الريف فلما اقترب منه وجد قبراً أعلاه انهيار التل وبه تابوت في هيئة توابيت الموتى المصرية وعلى غطائه نقش طويل ، وقد تبين فيما بعد أن النعش فينيقي وأن المقبرة لأحد ملوك صيدا وقد نقل هذا التابوت إلى متحف اللوفر .

ويعکن القول بأن تلك الاكتشافات تؤيد إلى حد بعيد ما تشير إليه دلائل أخرى من أن صيدا كانت ذات أهمية خاصة بين المدن الفينيقية . فالكتاب المقدس يشير إلى الصيداويين للتعبير عن الفينيقين مما يوحى بأن صيدا كانت لها السيادة على المدن الرئيسية للفينيقين أو على الأقل اختارتها تلك المدن لزعامتها ، ومن روایة جاءت في كتابات يوسيفوس يمكن أن نستنتج بأن جماعات صيدونية ذهبت إلى صور في أعقاب غزو شعوب البحر لمدينتهم وأنها جددت في مبانيها التي كانت تلك الشعوب قد خربتها من قبل .

وبعد أن قام «تیجلات بلاسر الأول» (١١٢ - ٨٢٤ ق.م.) بحملة على سوريا العليا فرض الجزية على أر棹اد وبيلوس وصيدا ، ومن المحتمل كذلك أن العبرانيين أخضعوا جزءاً كبيراً من الساحل الفينيقي حيث أن الكتاب المقدس يشير إلى أن رسول داود وصلوا إلى مناطق مختلفة ومن بينها صيدا .

وقد قام «شلمناس الثالث» (٨٥٩ - ٨٢٤ ق.م.) في السنة الحادية والعشرين من حكمه بحملة إلى فينيقيا وحصل على جزية صور وصيدا

وبيلوس، أما «أدادنيراري الثالث» (٨٠٩ - ٧٩٢ ق. م.) فقد توغل في الأقليم السوري إلى مناطق الفلسطينيين والآيودميين وفرض الضرائب على صور وصيدا.

ومن الممكن القول بأن سياسة ضم أجزاء من الأقليم السوري إلى ممتلكات آشور اتخذت شكلاً ايجابياً في عهد «تيجلات بلاسر الثالث» (٧٥٤ - ٧٢٧ ق. م.) فقد ضم بعض دويلات المدن في الساحل وعين عليها حكامًا آشوريين ولكن من المرجح أنه اقتصر على شمال فينيقيا تاركًا بيلوس وارواد في حالة استقلال ذاتي نسبياً، ويشير نقش فينيقي عثر عليه في قبرص إلى أن حاكماً محلياً بها كان تابعاً لخiram الثاني ملك الصيدونيين^(١) مع أن هذا الأخير كان يحكم صور ودفع الجزية «لتنيجلات بلاسر الثالث» مما يوحى بأن هذه المدينة لم تستعد استقلالها فحسب بل حكمت المنطقة المجاورة لها أيضاً، وهذا ولم تذكر صيدا في نقوش هذا الملك وربما كانت خاضعة لصور.

ولا توجد إشارات صريحة عن صيدا في حملات «سلمناشر الخامس» وخليفه «سرجون الثاني» على الأقليم السوري ، ولكن سنخريب (٧٠٥ - ٦٨١ ق. م.) قام بأكثر من حملة . ويدرك في نصوصه أنه في حملته الثالثة وجه ضرباته إلى بلاد سوريا الحبيبية وأن ملك صيدا هرب إلى البحر رعياً منه ثم مات ، وقد أخضع سنخريب صيدا وأجلس على عرشهها «إيتو بعل الثاني» وفرض عليه جزية دائمة وجعل له السيادة على فينيقيا وبذلك انتزع من صور نفوذها وقوتها إذ أنها نعلم من نصوص أخرى أن ملك صور فر إلى قبرص حيث مات بها مما يدل على أن صيدا كانت تابعة لصور وأن ملك هذه الاختيرة كان يحكم صيدا ومناطق أخرى مجاورة ، ومع أن «سنخريب» يشير إلى أنه أخذ أسري من الصوريين والصيدونيين والبحارة القبرصيين إلا أن من المرجح أن هؤلاء كانوا من حملاته السابقة .

وفي عهد «اسر حدون» (٦٨١ - ٦٦٨ ق. م.) تحالف «عبد ميلكوفي»

(١) انظر أعلاه ص ٤٢ .

خليفة «إتيوبعل الثاني» ملك صيدا مع ملك كيليكيا ضد العاهل الآشوري الذي استطاع أن يدمر صيدا وأن يسوي مبانيها بالأرض سنة ٦٧٧ق.م. بعد أن حصل منها على غنائم كثيرة وقبض على ملكها في عرض البحر عند فراره وقتلها ، ثم بني مدينة جديدة على انقاض صيدا التي دمرها وجلب لها سكاناً من جهات مختلفة وعين عليها حاكماً آشورياً ، وقد انقسمت فينيقيا في عهده إلى ثلاث ولايات كانت صيدا تمثل الوسطى منها^(١) ، ولا يعرف شيء على وجه التحديد عن حالة المدن الفينيقية فيها بين عامي ٦٤٠ ، ٥٩٠ق.م. أي في أواخر عهد الدولة الآشورية وبداية الدولة البابلية الكلدانية ثم تعرضت بعد ذلك لحملات نبوخذ نصر (٥٦٢-٦٠٥ق.م.) الذي أخضع صوراً وصيدا وغيرها من المدن الفينيقية .

ولما انتقلت السيادة في الشرق الأدنى القديم إلى الدولة الفارسية كانت فينيقيا تعتبر الولاية الخامسة في الإمبراطورية الفارسية ، وتحت حكم «أرتخترس الأول». وبالرغم من أن الحكم الذاتي والوفاق السياسي ساداً بين المدن الفينيقية في عهد الفرس كما سبق أن أشرنا^(٢) إلا أن بعض الدلائل تشير إلى أن صيدا كانت لها السيادة وكان للعاهل الفارسي قصر بها كما يستدل على ذلك من البقايا الأثرية التي عثر عليها .

وقد حكمت صيدا أسرة حاكمة ترك ملوكها نقوشاً تلقى بعض الضوء على تاريخها، ويبدو أن مؤسس هذه الأسرة كان يدعى «اشمونازار» الذي لا نعرف عنه شيئاً يذكر - وخلفه ولده «تابنيت» ثم جاء من بعد هذا الأخير «اشمونازار الثاني» الذي ترك نقوشاً تبين أنه بني معابد للآلهة وتذكر بوضوح أن «ملك الملوك» (أي إمبراطور فارس) زاد في مساحة صيدا وأضاف إليها دوراً (طنطورة) وبافا ومنطقة أخرى في سهل شارون مكافأة له على أعماله المجيدة ، ويضيف «اشمونازار الثاني» إلى ذلك قوله بأنه أضاف هذه البلاد إلى حدوده «وهكذا ستصبح تابعة لصيدا إلى الأبد» .

(١) انظر من ٤٤-٤٥.

(٢) انظر من ٤٦.

ومن ملوك هذه الاسر الصيدونية ثلاثة كل منهم يدعى «بودا شتارت» وفي نقش لأحدهم يذكر أنه حفيد «اشمونازار» وأن ولي عهده «ياتون ملك» ولكننا لا نعرف من هو «اشمونازار» الذي يقصده ، كما أنها لا يمكن ان نجزم بأن ولي عهده تولى الحكم بالفعل ، ومن الواضح ان «أشمونازار» المقصود لا يمكن ان يكون هونفسه الذي ذكر صراحة في نقوشه بأنه تولى العرش وهو صغير كما تدل نقوشه على انه لم يعش طويلاً مما يوحى بأنه حكم تحت وصاية امه .

ويدل طراز النقوش التي على توابيت هؤلاء الملوك على أنهم عاشوا في القرن الخامس قبل الميلاد ، وإذا ما افترضنا أن الاعمال المجيدة التي من أجلها كافأ الملك الفارسي «اشمونازار الثاني» تتلخص في مساعدة هذا الأخير ملك فارس باسطوله في حربه ضد اليونان فإن من المرجح أن «اشمونازار» كان يعيش حوالي سنة ٤٥٠ ق.م.

وفي القرن الرابع قبل الميلاد حدث تحول في سياسة المدن الفينيقية تجاه الفرس ، فحينما احتل اليونان قبرص سنة ٣٩٢ ق.م. وهاجموا المدن الفينيقية خضعت لهم صور ومدن فينيقية أخرى مؤقتاً ، ثم أصبح «عبد عشتارت» ملك صيدا سنة ٣٦٢ ق.م. علي علاقات ودية معهم حتى أطلق عليه لقب «محب الهلاليين» وفي نفس الوقت رحب بوصول جيش مصرى حينما كانت فارس مشغولة بإخماد الثورات التي حدثت في بعض ولاياتها ، وربما كان الفينيقيون يطمعون في الاستقلال عن فارس ولكن نجاح فارس في إخماد الثورات التي قامت ضدها قضى على آمال المدن الفينيقية في الاستقلال .

وحينما ثار «تنيس» ملك صيدا سنة ٣٤٦ ق.م. جاء «ارتجزركسيس» وقضى على ثورته بقسوة حيث أحرق صيدا وقتل أكثر من أربعين ألفاً من سكانها ولم ينج ملكها من نفس المصير - ثم تولى الحكم في صيدا والي جديد ولكن ما لبث أن وصل الاسكندر فخضع له هذا الوالي خضوعاً تماماً وبذلك انتهى الحكم الفارسي منها .

سابعاً : عكا :

ربما كانت أقصى مراكز الاستقرار الفينيقية جنوباً ولا يعلم الكثير عن تاريخها القديم ، ولكنها كمعظم المدن الفينيقية تعرضت لغزوات مختلفة من أهمها تلك التي استولى فيها سنحريب عليها في حملته الثالثة^(١) ، وتلك التي أخضعها فيها اشور بانيبال بقسوة بعد ثورتها ضده^(٢) .

Moscati, S., "The world of the Phoenicians", Translated from Italian (١)
by Alastair Hamilton (London, 1968), p.19

Moscati, op.cit., p.23 (٢)

التوسيع الفينيقي

لا شك في أن الظروف الطبيعية والحضارية لعبت دوراً كبيراً في اتجاه الفينيقيين إلى البحر واعتمادهم عليه في صميم حياتهم ، فبالإضافة إلى صيد الأسماك حصلوا منه على نوع من الأصداف استخرجوا منه نوعاً من الأصباغ كان له أثر غير مباشر في نشاطهم التجاري إذ كانوا يصبغون به منسوجاتهم التي تزايد الاقبال عليها واشتهرت باسم «الأرجوان» ، وقد ارتفعت أثمان هذه المنسوجات حتى أصبحت من ملبوسات الملوك وعليه القوم ورمزاً لهم حيث كان الواحد منهم يوصف بأنه «مولود في الأرجوان» - ولم يكتف الفينيقيون بالحصول على هذه الأصداف من سواحلهم بل كانوا يجلبونها أيضاً من سواحل بعيدة.

وأدى تنقلهم في البحر إلى تبادل التجارة مع الأماكن التي ترسو سفنهم على سواحلها ، وشيئاً فشيئاً أنشأوا مراكز تجارية لهم ومراكز استيطان تتوافر لهم فيها وسائل المعيشة والأمن .

ففي البداية كانوا يتنقلون في البحر مساحلة أو يقطعون مسافات صغيرة ، ويفضلون الالتجاء إلى جزر صغيرة أو رؤوس ساحلية يمكن لسفنهم أن ترسو عليها وتحتمي بها من هياج البحر - وينبغي أن تكون خلف هذه الأماكن مناطق داخلية يعيشون فيها منها صغرى مساحتها على أن يكون بها مصدر أو مصادر للمياه العذبة - ولم يكن من الأهمية لهم أن تكون سواحل تلك الأماكن ذات عمق كبير لأن سفنهم لم يكن غاطسها عميق ورسوها في المياه الضحلة كان أكثر أمناً .

وكان الفينيقي يحرصن على دفن موتاه في مقابر منحوتة في أعماق

الصخر ، ولذا عمد الفينيقيون الى اختيار الأماكن التي بها تلال صخرية يمكنهم حفر قبورهم فيها - وكان الملاحون قدما يرسون بسفنهم ليلا ثم يستأنفون الابحار نهارا ، وعلى ذلك يمكن تعين أماكن رسومهم بتقدير المسافة التي كان يمكنهم قطعها بين كل مرحلة والمرحلة التي تليها .

ونظرا لأن توسيع الفينيقيين والقرطاجيين كان عن طريق البحر ، فإن مراكز استيطانهم الداخلية كانت ذات أهمية ثانوية ، ومع ذلك فإنهم كانوا يحرصون على أن تكون في مرفقات يسهل الدفاع عنها وفي نفس الوقت تكفل الحماية للطرق الساحلية وتحرس الطرق المؤدية الى المناطق الداخلية كذلك - ولا بد من أن يكون الماء العذب ميسورا أيضا ، لهذا تعد «قسطنطينية» «بالجزائر» و «مونت سيراي» في سردينيا غوذجين في هذا المضمار .

ويغلب الطابع التجاري على التوسيع الفينيقي والقرطاجي من بعده، فلم تكن هناك اتجاهات للاحتلال وتكون مراكز ثابتة أو لتهجير السكان على نطاق واسع ، فالتوسيع الفينيقي والقرطاجي لم تصحبه مثل هذه المظاهر في أول الأمر وربما لم تحدث على الاطلاق ولكن أمكن حدوثها فيما بعد، أي أن حدوثها جاء متاخرأً عن هذا التوسيع .

ومن المرجح أن التوسيع الفينيقي بدأ في نهاية القرن الثاني عشر قبل الميلاد حيث يذكر بعض الكتاب الكلاسيكيين أن قادس (على الساحل الجنوبي لاسبانيا في شمال غرب جبل طارق) أُسست في سنة 1110 ق. م. وأوتيكا (على الساحل الشمالي لأفريقيا غرب قرطاجة) في سنة 1101 ق. م. أما ليكسوس (على الساحل الاطلنطي لأفريقيا) فإنها كانت قبل ذلك - ومهما كان الأمر فإن انتشار الفينيقيين غربا جاء في أعقاب وصول شعوب البحر وقبل ظهور اليونان ، وما يؤكّد ذلك أن الكتاب المقدس يشير إلى أن أسطول صور التجاري في عهد سليمان كان قادرا على القيام برحلات طويلة وشاقة^(١) كما أن شواهد الأحوال تدل على أن هجوم شعوب البحر على شرق البحر المتوسط

(١) الملوك الأول ٢٢/١٠ .

(حوالي سنة ١٢٠٠ ق.م.) قضى على نفوذ الميكينيين الذين كانوا يسيطرون عليه وأدى إلى ظهور الفينيقيين في انطلاق شديد - ومرت ثلاثة قرون (الحادي عشر والعاشر والتاسع قبل الميلاد) قبل أن يبدأ اليونان في توسعهم وبعدئذ حدث تناقض شديد بين اليونان والفينيقيين في ميدان التجارة ، وعلى أي حال يمكن أن نستنتج بأن التوسع الفينيقي في البحر المتوسط بدأ حوالي سنة ١١٠٠ ق.م. أو قبل ذلك ببعض الوقت .

ولا شك في أن الفينيقيين لم يقتصروا على الاستيطان في الأماكن التي نشأت بها مستعمرات ازدهرت فيها بعد بل كانت جماعات صغيرة منهم تؤسس مراكز تجارية في مناطق تختلف عنها جنسياً وسياسياً ، وقد تبقى هذه المراكز كأماكن استيطان صغيرة أو تؤول إلى الزوال .

ومن المخالفات الأثرية يمكن الاستدلال على أن الثقافة واللغة الفينيقية انتشرتا في (القرنين التاسع والثامن قبل الميلاد) شمالاً إلى جنوب الأنضول وجنوباً في بضعة أماكن جنوب فلسطين يحتمل أنها كانت محطات تتوقف فيها السفن الفينيقية في طريقها إلى مصر .

ومن المحتمل أن أماكن استيطان الفينيقيين في قبرص وجدت منذ الألف الثاني قبل الميلاد إذ أنها كانت بالتأكيد قائمة في بداية الألف الأول قبل الميلاد . ومن أهم مدنهما فيها كيتيون التي يحتمل أن تكون هي نفسها «قارتها داشتي» التي ذكرت النصوص الأشورية أن ملكها قدم خصوصه للملك الأشوري «سرجون الثاني» - ومن مدنهما فيها أيضاً جوجلوي وأيداليون وتاموسوس وماريون ولايتوس .

ومن الواضح أن الفينيقيين اتخذوا مراكز استيطان في أرخبيل اليونان ، ففي رودس استوطنوا المدينتين كاميروس وباليوسوس حيث تشير الروايات اليونانية إلى أن ذلك تم بإرشاد شخص يدعى فالاس في حوالي الوقت الذي حدث فيه حروب طروادة وقد طردهم اليونان أو الكاريون فيما بعد - كذلك تشير الروايات اليونانية إلى استيطانهم في جزر إيجيه أخرى مثل تاسوس وكثيراً وميلوس وثيراً وفي جزيرة كريت أيضاً .

أما على الساحل الأفريقي فمن المحتمل أنهم أنشأوا مراكزا لهم في مصر حيث يذكر هيرودوت أن أحد أحباء منف كان يسمى «ساحة صور» ويضيف إلى ذلك أنه يفترض أن معبداً لاستارته «أفرويت الأجنبية» تأسس هناك عند وصول «هيلين» بعد الحرب الطروادية ومن الواضح أن ما ذكره هيرودوت لا يخرج عن كونه من الأساطير ولكن العثور على أواني فينيقية في تل الرطبة^(١) وغيره من الأماكن في الدلتا يوحي بأن من الممكن أن يكون الفينيقيون قد اتخذوا مراكز تجارية لهم في بعض المدن أو أماكن للتوقف فيها أثناء رحلاتهم البحرية الطويلة ، وبالطبع فإن الاستيطان والاستعمار الفينيقي لم يكن ممكنا إلا في الجهات الضعيفة نسبياً بينما لا يتأق لهم ذلك في البلاد القوية مثل مصر .

وما يؤثر أن أقدم المستعمرات الأفريقيية على ساحل البحر المتوسط هي أوتيكا ، ويروي أحد الكتاب الكلاسيكيين أن «قادس» تأسست بعد سقوط طروادة بنحو ثمانين عاماً وأن أوتيكا تأسست بعدها بقليل ، ولما كانت طروادة قد سقطت حوالي سنة ١١٩٠ ق. م. فإنه يبدو أن قادس تأسست حوالي سنة ١١١٠ ق. م. و«أوتيكا» حوالي سنة ١١٠٠ ق. م. وتأسست «قرطاجة» حوالي سنة ٤٨١ ق. م. - وتشير نصوص صور إلى أن «أوتوبيل» أسس مستعمرة «أوسا» في القرن التاسع قبل الميلاد ولكن لم يمكن التعرف على موقعها - أما «ليبسن ماجنا» فيعزى تأسيسها تارة للاجئين الصيدونيين وتارة للصوريين كذلك ينسب إلى الصوريين تأسيس «هادرميتم» وينسب للفينيقيين أيضاً تأسيس «هيبيو» - ولا شك في أن هذه الروايات ليست مؤكدة والأخرى أن ينسب تأسيس غالبية هذه المراكز إلى قرطاجة التي إزدهرت بسرعة - ويحتمل أن المستعمرات الأخرى كانت «بونية» مثل «أويا» و«سبراتا» و«أشولا» و«تابسوس» و«ليبسن بارفا» و«هرماكون» (رأس بون) ، و«فيليب فيل» و«قسطنطينة» و«تشوللو» و«جيجلبي» و«تيباسا» و«جورايا» و«ميليلا» و«إيسا» و«سيدي عبد السلام» و«تامودا» .

وفي جزر البحر المتوسط يبدو أن الفينيقيين استوطروا في «سيلينونتي» بচقلية منذ نهاية ألف الثاني قبل الميلاد ، وفي «موتيا» في حوالي القرن

(١) غرب «بيثرم (تل السخوطة)» أي أنها تقع إلى الشمال الغربي من مدينة الاسماعيلية الحالية.

الثامن أو السابع قبل الميلاد وتلتها «بالرمو» و«سولونتو» ومن المرجح أن تكون «قرطاجة» قد لعبت دوراً كبيراً في ذلك - وكانت مالطة دون شك قاعدة فيئيقية وتعود إلى القرن الثامن قبل الميلاد ، وقد استوطن القرطاجيون كذلك «جوزو» و«باتليريا» و«لامبيدوس» من نفس الفترة أو بعدها بقليل - وفي سردينيا استوطن الفينيقيون «نورا» و«سولسيس» (سانت أنتونيو) و«كارلوفورت» و«ثاروس». وقد كشفت التنقيبات الحديثة أن استيطانهم في «كارلوفورت» التي عرفت باسم «جزيرة الصقور» كان أسبق من استيطانهم في قرطاجنة التي ينسب إليها تأسيس «إيبيزا» في جزر البليار في حوالي سنة ٦٥٤ ق. م. كما يوحى اسم «بورت ماهون» في «مينورقا» بأنها مؤسسة بونية - أما فيما وراء جبل طارق (أعمدة هرقل) ففيه وجدت المستعمرات «طنجة» و«ليكسوس» و«موجادور» وربما كانت هذه المستعمرات قرطاجنية أو أن مستعمرات إسبانية أسبق منها هي التي أسستها .

ومن الغريب أن «قادس» مركز الاستيطان الفينيقي في إسبانيا ترجع إلى أواخر القرن الثاني عشر قبل الميلاد بينما ترجع مراكز الاستيطان الأخرى فيها إلى القرن العاشر قبل الميلاد على الأرجح .^(١) .

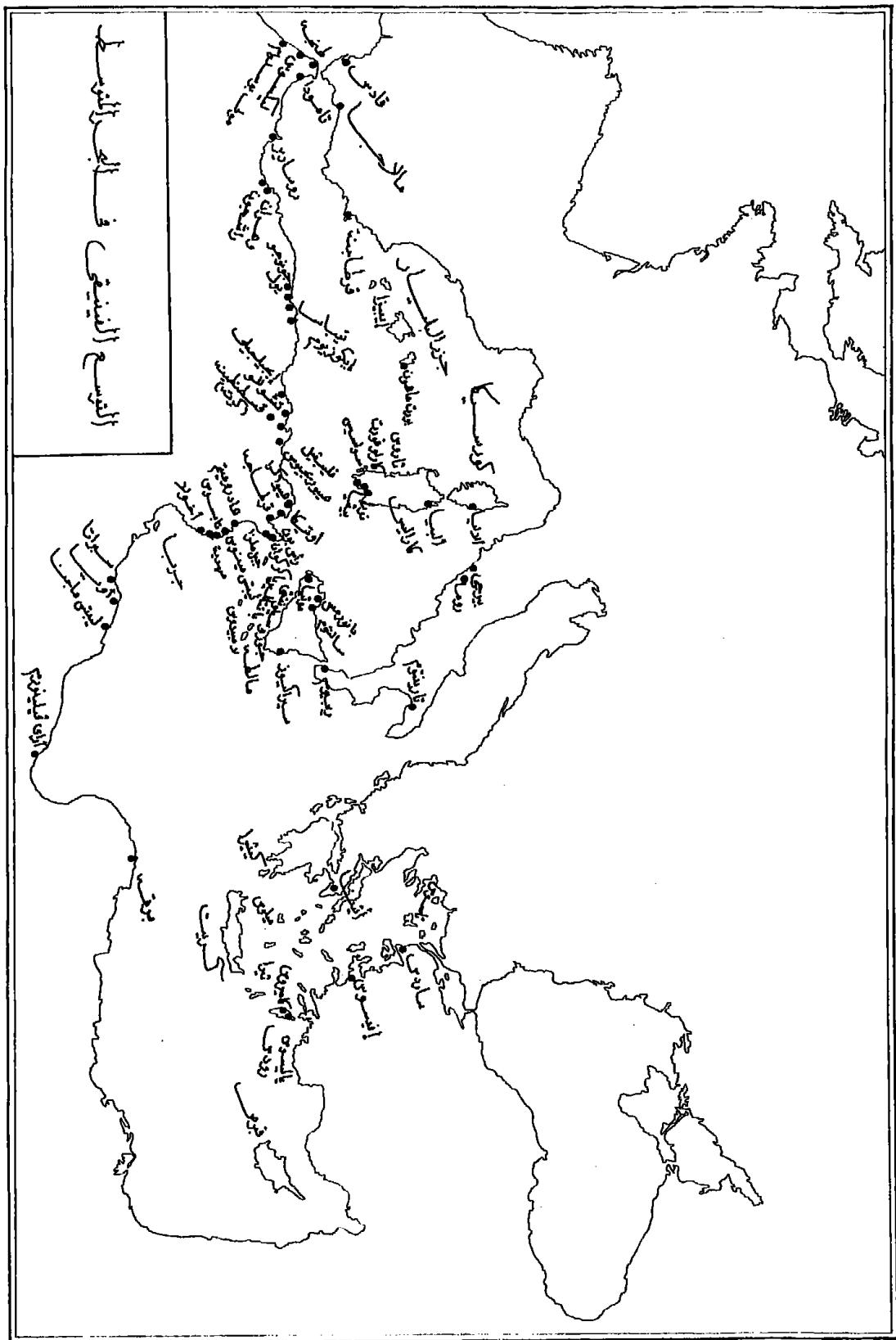
أما قبرص فقد كان لوضعها بالنسبة للفينيقيين ما جعلها تتفرق بسميات خاصة جعلتها تختلف عن المستعمرات الفينيقية الأخرى.

الفينيقيون في قبرص :

كانت قبرص المستعمرة الفينيقية الوحيدة التي تطورت فلم تقل عن مثيلاتها في الغرب، ونظراً لقربها من الوطن الأم كان التبادل بينها سائداً إلى درجة أنه كان من العسير التمييز بين ما هو فيئيقي وما هو قبرصي الأصل وخاصة في ميدان الفن - ومن الممكن استناداً للأساطير وما روي من أشعار (ولو أنها من عصور متأخرة) أن نستنتج بأن الوجود الفينيقي في الجزيرة كان قدicia .

وكانت أكبر المستوطنات الفينيقية في قبرص هي كيتيون. وما يؤكّد ذلك أن البعثة الأثرية السويدية إلى قبرص كشفت عن أكرنوبول يعود إلى القرن

(١) انظر خريطة رقم ٢ .



الحادي عشر ق. م. يحتمل أنه بني بواسطة المستوطنين الفينيقيين الأوائل وخاصة لأن إعمار قبرص بسكن من الساحل الآسيوي كان قبل استقلال المدن الفينيقية - وكان اتصال المنشقين بعضها منذ عصر البرونز الوسيط^(١) على نطاق واسع ، ويتبين من بعض الكتابات الفينيقية التي عثر عليها أنها ذات طابع يرجع إلى القرن التاسع قبل الميلاد ، وهذه الكتابات الفينيقية التي عثر عليها في «نورا» بجزيرة سردينيا تدل على بدء الفينيقيين سياسة التوسيع أو على وجود فينيقي في هذه المناطق ، كما أن نقشاً فينيقياً وجد في قبرص يعود إلى النصف الثاني من القرن الثامن قبل الميلاد .

ومع أن حيرام الثاني ملك صور دفع الجزية «لتيجلات بلاسر الثالث» ملك آشور فإن أحد النقوش التي عثر عليها في الجزيرة يذكر أن حاكم أحدى المدن يطلق على نفسه اسم «خادم حيرام ملك الصيداويين» مما يدل على أن صور كانت لها مستعمرة في قبرص أو أن دولة قبرصية صغيرة كانت خاضعة لصور ، وتحتمل أن هذه الدولة كانت كيتيون فلو أن هذه كانت أهم المدن الفينيقية في الجزيرة وكانت هناك دون شك مدن أخرى وهذا ما تؤيد له بعض النقوش التذكارية حيث يتبع من النقوش التي تركها بعض ملوك آشور وجود مستوطنات أخرى في جوجلوي وايداليون وتاماسوس وماريون ولايتوس ، وبالرغم من عدم معرفتنا بحوادث تاريخية معينة في تلك المدن إلا أن «سرجون الثاني» الذي غزا قبرص يذكر في حولياته الجزية التي أداها القبرصيون له ، كما أن تكرار الإشارة إلى الأمراء المحليين في المصادر الأشورية بعد ذلك يوحى بأن هؤلاء الأمراء استعادوا بعضاً من استقلالهم الذاتي كما حدث في المدن الفينيقية على الساحل السوري ومنطقة سوريا/فلسطين على وجه العموم .

ومن الممكن أن نستنتج بأن المدن القبرصية - بعد «سرجون الثاني» - لم تعد تتجه بانتظارها نحو فينيقيا بل كانت تتجه نحو آشور ، وكان ذلك من الأهمية بمكان لأنه يدل على تغير جذري في سياسة البحر المتوسط إذ نتج عن

(١) يؤرخ عصر البرونز المتوسط عادة بالفترة ما بين ١٥٥٠ - ٢١٠٠ ق. م.

ذلك ان الفينيقيين فقدوا سيادتهم على الطرق التجارية حيث أصبحت هذه تخضع لسلطان القوى الأعظم في الشرق الأدنى .

وحيثما تجمع حلف في الأقليم السوري ضد آشور كان من بين أعضائه «لولي» (أو إيلولا يوس Elulaeus) ملك صور وما حولها الذي فر إلى قبرص ومات بها بعد انتصار سنهريب على الحلف في سنة ٧٠١ ق. م. وهكذا يتضح أن الصلات بين صور وقبرص كانت مازالت قائمة وأن قبرص كانت الملجأ الذي احتمى به ملك صور .

وقد ترك «اسرحدون» (٦٨٠ - ٦٦٩ ق. م.) قائمة بأسماء الحكام التابعين له ومن بينهم بعض ملوك قبرص - وما هو جدير بالذكر أن بعض هؤلاء الملوك كان يحمل أسماء يونانية - ولم يكن التعرف على موقع بعض المدن التي ذكرها ، فقد أشار آشور بانيبال (٦٦٨ - ٦٢٦ ق. م.) إلى حكام قبرص التابعين لآشور في عهده ، ويعني ذلك أن المستعمرات الفينيقية أصبحت لا تذكر وقد استمر ذلك حتى سنة ٤٤٩ ق. م. حينما غزا الفرس الجزيرة ثم أخذت بعض الاسرارات الحاكمة - في عدد من المدن - في الازدهار وكان الفرس يؤيدونهم كمناوئين للليونان - وقد عثر على عدد من النقوش الفينيقية التي ترجع إلى الفترة ما بين القرن الخامس والقرن الثالث قبل الميلاد يكفي لتكوين فكرة عن بعض الأحداث وعن أسماء بعض ملوك هذه الأسرات .

وقد حكم في «كيتيون» أحد الملوك حوالي ٤٥٠ ق. م. وكان يحمل أسمًا فينيقيا وكذلك كان ولده الذي مد سلطانه إلى «إيداليون» ثم تبعه ولده الذي احتفظ بسلطانه ثم انتهت الأسرة سنة ٤١٠ ق. م. وجاءت في أعقابها أسرة جديدة بدأت سنة ٣٧٢ ق. م. وأخذ ثانى ملوكها في مد سلطانه حتى شملت مملكته مدن «كيتيون» «وايداليون» و«تاماسوس». وقد استمرت المملكة حتى سنة ٣١٢ ق. م. حينما ضمها بطليوس الأول إلى ملكه بعد أن قهرها وهكذا أنهى الحكم الذاتي لأسرتها الفينيقية .

وقدنا بعض العملات التي عثر عليها واستخدمت في «لايتوس»

بمعلومات عن ملوك هذه المدينة^(١)، ففي أواخر القرن الخامس ق. م. يظهر اسم أحد الملوك مكتوباً بالفينيقية، وفي بداية القرن الرابع يظهر نفس الاسم بنفس الكتابة ، ثم من النصف الثاني من القرن الرابع قبل الميلاد يذكر أحد النصوص اسم ملك فينيقي آخر مكتوباً بالفينيقية، وربما كان ثالث ملوك تلك الأسرة .

ولم تقض الغزوة البطلمية على استقلال دول المدن كما يستدل على ذلك من الكتابات التي ذكرت تاريخ كيتيون (سنة ٣١١ ق. م.) ، لا بيتوس (سنة ٣٠٤ ق. م.) .

ويشير أحد النصوص إلى استمرار الحالة على ما كانت عليه بعض الوقت ويدل على حيوية اللغة الفينيقية في مضمار الأدب على الأقل .

(١) انظر الخريطة رقم (١) .

الفينيقيون الغربيون والقرطاجيون في إفريقيا

نشأة قرطاجة

وصلتنا معظم معلوماتنا عن الفينيقيين «الغربيين» والقرطاجيين في شمال إفريقيا من مصادر غير مباشرة ، فالآثار والنقوش التي عثر عليها في المستعمرات الفينيقية في شمال إفريقيا وخاصة التي وجدت في قرطاجة لا تدل على الأنشطة الإجتماعية والسياسية بل تنصب معظمها على الأمور الدينية .

وقد ركز كتاب اليونان والرومان على الحروب التي نشبت أولاً بين قرطاجة وسيراكيوز ثم على الحروب التي حدثت بعد ذلك بين قرطاجة وروما ، فجاءت معلوماتهم في هذا المضمار وافية ومفصلة وخاصة لأنها كتبت بعد الأحداث مباشرة ومن الممكن اعتبارها روايات صادقة عنها ، ومع ذلك فهي لا تخلو من ثغرات يصعب معها ترتيب هذه الأحداث في سلسلة متکاملة الحلقات ، كما أن كتابات اليونان والرومان عن قرطاجة كانت تخضع لتأثير عوامل مختلفة إذ أن هؤلاء كانوا ينظرون إليها نظرة حقد وعداوة ولذا نسبوا إلى أهلها القسوة والخيانة واستثنوا من ذلك هانيبال^(١) وقد يكون ذلك لتبرير المزائيم المتكررة التي أوقعها بالرومان حيث أشادوا بأخلاقه ومهاراته - وكثيراً ما بالغوا في قوة قرطاجة فالأرقام التي ذكروها عن جيشها واسطوطها وسكانها بصفة عامة وكذلك عن ثروتها وامتداد سلطانها تتجل فيها المبالغة بوضوح .

وهكذا فإن ما نعلمه عن الاستعمار الفينيقي في شمال إفريقيا وعن

(١) قائد قرطاجة الذي حارب الرومان في إيطاليا وعدد روما نفسها .

قرطاجة تشوّه طبيعة الوثائق المهمشة في بعض مواضعها أو عدم صدور هذه الوثائق مباشرةً من مصادر فينيقية أو محلية موثوقة بها .

تأسيس قرطاجة :

تفق المصادر الكلاسيكية في أن تأسيس قرطاجة يرجع إلى سنة ٨١٢ق.م. أو سنة ٨١٣ق.م. ولكن لا بد من التعرض لمشكلة قيام هذه المدينة من مستوطنة فينيقية سابقة أو أنها أُسست كمدينة مباشرةً - وهناك أسطورة تنسب إلى «فيليستوس»(Philistus)، وهو يوناني من سيراكيوز عاش في القرن الرابع ق.م. ذكر فيها أن تأسيسها يرجع إلى شخصين من صور وهم «أزوروس» أو «زوروس» (Azoros; Zoros) و«كارتشيدون» (Karchedon) قبل الحرب الteroادية بقليل ، ولكن يبدو أن هذه الرواية لا تتفق مع الواقع والأرجح أن قرطاجة (Carthage) التي تعني «المدينة الجديدة» يمكن أن تدل على أنها كانت جديدة بالنسبة إلى الوطن الأصلي للفينيقيين ، ومع ذلك لا يستبعد أن تكون قد أُسست في وضع كان معروفاً من قبل للفينيقيين .

ولذا مارجعنا إلى أحداث ٨١٤-٨١٣ق.م. نجد أن مصادر كلاسيكية مختلفة ذكرت أن مؤسسي قرطاجة جاؤوا من صور - وهي تشير إلى أن «اليسا» (Elisa) أخت «بيجماليون» تزوجت «اشارياس» (Acharbas) (عمها أو خالها) كاهن الآلهة ملقارب العظيم الثراء ، ولكن أخاهما «بيجماليون» (Pygmalion) قتل هذا الكاهن - وعلى ذلك فرت «اليسا» مع جماعة من المخلصين لزوجها خفية إلى قبرص ، وبعد أن قدموا فروض الطاعة والولاء للآلهة ملقارب انصضم إليهم (Juno) كاهن استارته (عشتار) شريطة أن تكون الكهانة في البلاد التي سيستعمرونها وراثية في عائلته - وقد اصطحبت كذلك ثمانين فتاة من أجل الدعاارة المقدسة حفاظاً على العقيدة الفينيقية ، ثم ابحر الجميع مباشرةً إلى المكان الذي ستؤسس فيه قرطاجة .

ومن الطريف أن إحدى الأساطير تشير إلى دماء «اليسا» فيها يختص بالمساحة

التي ارادتها هذه المدينة إذ أنها ساومت على شراء قطعة من الأرض لا تزيد عن مساحة جلد ثور ، وطبقاً للاتفاق جاءت بجلد ثور وقطعته إلى شرائح رفيعة جعلتها في شريط متصل طويل احاطت به الأرض التي تريدها . وهذه الأسطورة تكررت مرة أخرى في صدر الإسلام في مصر حيث نسب إلى عمرو بن العاص انه بحاجة إلى مثل هذه الحيلة عندما أراد أن يحصل على رقعة مناسبة من الأرض لبناء المسجد في القسطنطينية - وهكذا استطاعت «اليسا» ان تستولي على كل التل الذي احتلته قرطاجة فيما بعد .

وقد استقبل المستعمرون بالترحاب وجاء الرسل لهم من اوتيكا محملين بالهدايا من مواطنיהם . وقد وقع «هيارباس» (Hiarbas) الملك المحلي ، الذي سمح للمنفيين أو الهاجرين بالاستمرار في إقليمه ، وقع في غرام «اليسا» وأراد ان يتزوجها وصارح أحد المشاهير بأنه سيعلن الحرب عليها إذا لم تقبل الزواج منه ولكن «اليسا» التي أرادت ان تخالص لذكري زوجها أقدمت على الانتحار ولذا قدسها القرطاجيون طوال عصر قرطاجة إلى أن زالت من الوجود^(١) بعد أن قضى عليها الرومان .

وتشير المصادر الكلاسيكية إلى ان قرطاجة تأسست قبل الاولبياد الأول^(٢) بثمانية وثلاثين عاماً ، أي في سنة 814ق.م . وما يؤيد ذلك أن أحد هذه المصادر يذكر بأنها ظلت قائمة 667 سنة وباحتساب تاريخ القضاء عليها وتدميرها سنة 146ق.م . يمكن التوصل إلى نفس الترتيبة تقريراً على اعتبار أن تأسيسها يرجع إلى سنة 813ق.م .

وما يؤيد الأصل الصوري لقرطاجة ما تذكره بعض المصادر عن ارسال قرطاجة سنوياً لسفراء أو مبعوثين إلى صور وكان هؤلاء يحملون معهم دائماً

(١) Moscati, op. cit. , P. 115

(٢) عقدت الألعاب الاولمبية لأول مرة سنة 776ق.م . في «اولبيا» باقليم «إيليس» (Elis) بغرب اليونان .

قرابين لمعبد هرقل (ملقارب). وإذا ما كانت هذه القرابين تمثل ١٠٪ (عشر) دخل المدينة، كما تبين بعض المصادر، فإن من الممكن اعتبار هذه القرابين نوعاً من الجزية - ومع أن هذه القرابين (أو الجزية) خففت فيما بعد إلا أن القرطاجيين في أوقات الخطر كانوا يتذكرون إله صور ويعودون إلى تمجيله ويزيدون من القرابين التي يقدمونها له .

ومن المرجح أن قرطاجة كانت تقع إلى جنوب حصن «بيرسا» (Byrsa) قرب لوكرام (Lekram) حيث أن هذا المكان يحميه موقعه من الرياح كما أن بعض الكشوف الأثرية تؤيد ذلك، ولا بد أن المستوطنين الأوائل حرصوا على أن يكون التل القائم بالمنطقة مشرفاً على البقعة التي اختاروها لاستيطانهم لأنها توفر الحماية لهم ولسفنهم عند رسوها - ومن اسم مدينة قرطاجة (أي المدينة الجديدة أو العاصمة الجديدة) يمكن ان نستنتج ان الفينيقيين ارادوا ان ينشروا نشاطهم في الغرب وهو الذي كان قد بدأ فعلاً من قبل وامتد إلى أبعد من منطقة قرطاجة ، وسرعان ما وصلت قرطاجة إلى السيادة على كل المستوطنات الفينيقية وكان ذلك بالتأكيد بعد تأسيسها (سنة ٨١٤-٨١٣ ق . م) . بوقت كاف .

وقد حتمت الظروف على المستوطنين هذه المدينة - أن لا يقتصر نشاطهم على قاعدة اوتيكا (Utica) المجاورة ، فموقعها كان ممتازاً سواء بالنسبة لها هي نفسها أو بالنسبة للتوسيع منها إلى الداخل - فهي تتدلى على لسان طويل بين مسطحين مائيين وبذلك يتهيأ لقواتها مركز دفاع ممتاز ، وهي متصلة بالأرض الرئيسية بيرزخ رملي تسهل حراسته والدفاع عنه - كذلك فإن الامتداد الكبير للأرض القابلة للزراعة والملاحة على اللسان الممتد في البحر يجعل في الامكان عزله والدفاع عنه .

ومن المحتمل أن أسطورة «اليسا» كان لها أساس تاريخي ، وعلى هذا فإن تأسيس قرطاجة يرجع إلى سنة ٨١٤-٨١٣ ق . م . وأن المؤسسين لها كانوا من صور وقد قدر لها أن تصبح أهم مركز للفينيقيين في الغرب .

المستوطنات الفينيقية الأخرى :

لا يمكننا تحديد تاريخ تأسيس كل المستوطنات الفينيقية في غرب البحر المتوسط وشمال إفريقيا وما زالت معلوماتنا قاصرة عن كثير منها ، ولذا سنكتفي ببعض عدد المستوطنات التي يمكن الاستدلال على موقعها بما كشف عنه من الشواهد الأثرية ومخلفات أماكن الدفن التي يمكن تحديد تاريخ بعضها من الأواني الفخارية التي وجدت بها - وعند النظر إلى خريطة تبين توزيع الواقع الأثري^(١) نتبين أن تلك المستوطنات لم تخرج في توزيعها عن السياسة التقليدية للفينيقيين في اختيار مراكز ساحلية على أبعاد مناسبة لتأسيس مستوطناتهم .

وإذا ما اتجهنا من الشرق إلى الغرب نجد أن أول مركز هام لهم هو «ليبيتيس ماجنا» (Leptis Magna) حيث يمكن التعرف على جبانة (مجموعة من المقابر) يرجع تاريخها إلى القرن الثالث/الثاني قبل الميلاد وعثر على مجموعة هامة من المنحوتات والتماثيل التي لا شك في أنها بونية ويحتمل أنها من العصر الهلنستي .

وتلي ذلك الموقع «أويا Oea» (طرابلس الحالية) حيث عثر في سنة ١٩٥٧ على مقابر منحوتة في الصخر ترجع إلى القرن الثالث/الثاني قبل الميلاد بينما أمدتنا «بوستة» (Bousetta) القرية بجموعة من أواني الدفن (Amphorae) والأوعية التي تميزت بعلامات بونية مثل رمز الحماية والإلهة «تانيت» (Tanit) (التي توصف بأنها «وجه بعل» وتوحد مع الإلهة اليونانية هيرا) - وفي «سبراته» (Sabrata) ثالث المدن الكبرى في منطقة طرابلس (Tripolitanis) عثر على جبانة بونية ضخمة وضربيع (Mausoleum) بالإضافة إلى مقابر ترجع إلى القرن الثالث ق . م . وكان من بين الآثار التي وجدت في هذه الأخيرة قلادة بها خرزات ذات طابع مصرى في هيئة «حربوخراط» و«العقل أبيس»^(٢) ورؤوس زنجية وعنقىد عنب وحام (طيور) وغيرها ،

(١) أهم هذه الواقع مبين بالخريطة رقم (٢) .

(٢) آلة مصرية ، الأول هو «حورس الطفل» أي ابن إيزيس من أوزوريس بعد مقتله وإعادته للحياة بوساطة إيزيس قبل أن يفضل الذهاب إلى عالم الموت حسب الأساطير المصرية والثاني هو العجل الذي يرمز للإله «حبي» إله النيل والخصب وقد حرف اليونان اسمه إلى أبيس .

ومن « سيراته » أيضاً قطع من تماثيل من الحجر الرملي تؤرخ بالعصر البوي الهيللينستي .

وفي المنطقة التي تضم تونس الحالية كانت أخولا (Acholla) أكبر المدن البونية وتنسب الأساطير تأسيسها إلى فينيقيين من مالطة - وقد أشارت المصادر الكلاسيكية إلى تابوس (Tapsos) وحدد موقعها براس ديماسة (Ras Dimasseh) وعثر فيها على مقبرة بونية من القرن الرابع ق. م. ، يبدو منها أنها خضعت للتأثير الروماني فيها بعد - وأكبر جبانة تلي جبانة قرطاجة هي تلك التي عثر عليها في « مهدية » وهي مدينة بونية لا يعرف اسمها القديم وأثارها توحى بأنها ترجع إلى القرن الخامس ق. م. أما « ليبيتس الصغرى » (Leptis minor) وهي « لامتا » (Lamta) الحالية فقد عثر فيها على مقابر منحوتة في أعماق الصخر حوت توابيت خشبية ، وتعد « هادروميت » (Hadrumetum) (صوحة الحالية) أكثر أهمية فقد ازدهرت بعد القرن السادس ، وفيها عثر على لوحات جنزية هامة - وأقدم جزء في الجبانة التي عثر عليها يوجد تحت المدينة الحالية :

أما « كركوان » (Kerkouane) (Cape Bon) الحالية على « رأس بون » (رأس بون) فلا تقل أهمية حيث عثر على ما يدل على أنها حوت مناطق سكانية ترجع إلى القرنين الثالث والرابع ق. م. وفي أثارها تظهر الجدران والطوابق والوسائل الصحية - وإلى جوارها منطقة « جبل ملزة » (Djebel Mleizza) التي كشف فيها عن مقابر عديدة حوت تماثم وحل وقطع فخارية مختلفة وبقايا رسوم .

ويالاستمرار غرباً نجد « اوتيكا » التي تعد من الناحية الاسطورية أقدم مستعمرة فينيقية في شمال أفريقيا وقد تم فيها الكشف على جبانتين ، ترجعان إلى ما بين القرنين الثامن والرابع ق. م. مليئتين بأشياء نذرية تشمل الخواتم والجعارات والتمائم والزهريات (أو الأواني) متعددة الألوان.

ولا يعرف إلا القليل عن « هيبواكرا » (Hippo Acra) (بيزرتا Bizerta) و« هيبو ريجيوس » (Hippo Regius) (بونة Bone) و« فيليبيفيل »

(Philippeville) (وهي أيضاً مراكز استيطان بونية) التي تدخل في نطاق الجزائر الحالية . أما «كيرتا» (Cirta) (قسطنطينية الحالية) (Constantine) فمعرفتنا عنها أكثر من تلك المدن فمنها جاءت لوحات كثيرة لا ترجع إلى أقدم من القرن الثالث وكلها تحفظ بمؤثرات وعناصر من عصور سابقة .

والمحصن «الموقع الحصين» تشوللو (Chullu) كذلك لا يمكن إرجاعه إلى أقدم من القرن الثالث بينما يشك في أن «اجيلجيلي Agilgili» أو «جيوجيلي Djidjelli» ترجم مقابرها إنما قبل القرن الثالث - ونظرأً لاتساع مدينة الجزائر الحالية «ايكروزيوم» (Icosium) فلا يعرف عنها إلا القليل ، ومع ذلك فإن العثور على عمارات تحمل اسمها باليونانية يدل على أنها ترجع إلى ما قبل العصر الروماني - وفي مدينة «تيبياسا» (Tipasa) عثر على مقابر تدل على أنها كانت بونية وأقدم مستوطناتها ترجع إلى القرن الخامس ق . م . وقد وجدت بها حجرات منحوتة عميقاً في الصخر قرب البحر وأخرى منحوتة على عمق قليل من السطح وقد ظل التراث البوني سائداً فيها حتى عصر الرومان . ولما يؤكد ذلك أن اللوحات التي عثر عليها منقوش بها رمز تانيت .

وبالتقدم بعد ذلك غرباً نجد « يول Jol (تشيرشيل Cherchel)» التي وجدت بها آثار قليلة من العصر البوني المتأخر - وفي «جونجو Gunugu (جورايا Gouraya)» عثر على جبانة ترجع إلى القرن الثالث/الثاني ق . م . وجد فيها العديد من بيسن النعام المحلي برسوم حمراء وسوداء تمثل أشكالاً هندسية ونباتات وأشكال آدمية أحياناً - وإلى الغرب من ذلك عثر على منطقة سكنية وجبانة وجدت بها أواني فخارية ترجع إلى القرن الرابع - وفي جزيرة «راشجون» (Rachgoun) كشف عن أكثر من مائة مقبرة معظمها لدفن الرماد المتختلف من حرق جثث الموتى وبها أواني للنذر وünsابيح وأسلحة وحلى ومقائم ترجع كلها إلى القرن السابع/السادس ق . م . وتدل على علاقات متينة بجزيرة «موتيا» (Motya) - وعلى بعدأربعين كيلو متراً غرب وهران «مرسي مداخ» (Mersa Madakh) التي وجدت بها انقاض وكمية عظيمة من الفخار يمكن إرجاعه إلى القرن السابع/السادس ق . م .

وإذا ما وصلنا إلى المغرب الحالية فإن أول مدينة بونية تقابلنا هي «روسادير Rusaddir» (مليلا Melila) حيث عثر على مدافن بسيطة بها صفوف من أواني حفظ رماد جثث الموتى Amphorae وهذا المظهر غير العادي يوجد ما يشبهه في «البيا» Olbia في سردينيا وهي مثلها ترجع إلى ما بين القرنين الثالث والأول ق. م. - وبعد ذلك غرباً نجد «إيسما» Emsa التي عثر فيها على أنقاض منازل وأواني فخارية ترجع إلى القرن الثالث/ الثاني ق. م. - وتليها غرباً «سيدي عبد السلام» التي تمثل في طبقاتها الأثرية خلفات استيطان ترجع إلى الفترة ما بين القرنين الخامس والأول قبل الميلاد - وفي «تمودا Tamuda» كشف عن أنقاض مدينة شاسعة بها أسوار ومبادرات وشوارع ومنازل عديدة ولكنها ترجع إلى القرنين الثاني والأول ق. م. - وكانت معلوماتنا عن طنجة أنها ترجع إلى العصر الروماني ولكن الكشوف الحديثة زادت من معلوماتنا عن تاريخها ومن أهم ما عثر عليه نقود نقشت بالفينيقية تذكر اسم المدينة «طنج».

وعلى الساحل الاطلنطي للمغرب نجد «ليكسوس Lexus» (أرزيلا Arzila) وهي أهم المدن التي ترجع إلى ما قبل الرومان ، وقد كشفت بها آثار تدل على مركز استيطان كبير يرجع إلى القرن السابع/السادس ق. م. كما يستدل على ذلك من الجدران والمعبد والجبانين والنقوش والنقوش والأواني الفخارية التي عثر عليها - وفيها بين «ليكسوس» و«موجادر» Mogador وجدت بقايا بونية قليلة كما في «مولى بوسيلهام» Muley Buselham ولكن المدينة الهامة التالية هي «موجادر» التي عثر فيها على أواني فخارية ترجع إلى القرن السابع/السادس ق. م.

وينبغي هنا أن نذكر بأنه لا توجد فوارق واضحة بين العناصر الفينيقية والبونية - وعلى العموم فإن وصول قرطاجة إلى مكان الصدارة جعلها تحل في استعمار الغرب محل الوطن الأصلي (فينيقيا) ، ولكن بين حين وآخر يعثر على أشياء شرقية الأصل أو تدل على احتكاك بالعالم الفينيقي على أي حال ، ولذا يمكن القول بأن فينيقيا وإن كانت قوتها قد تقلصت فإنها لم تخفي كلية .

الصراع القرطاجي اليوناني

ليس لدينا عن أقدم تاريخ لقرطاج إلا قدر ضئيل من المعلومات - والواقع أنه ليس لدينا أية معلومات عنها حتى وقت تأسيس مستعمرة في «أبييزا Ebiza» (٦٥٤ - ٦٥٣ ق.م.) في البليار ومع ذلك فالشاهد التاريخية تدل على أن قرطاجة نمت وتطورت داخلياً وأصبحت أهم مدينة فيينيقية في الغرب وفرضت سلطتها على كل المستعمرات - ويرجع الدافع الرئيسي لهذا التحول في مركز المستعمرات الفينيقية المتناثرة في الغرب إلى التوغل اليوناني في البحر المتوسط ، وبعد القرن الثامن قبل الميلاد أكد هذا التوغل وجوده بنشاط متزايد ونافس اليونان الفينيقين كما شكلوا خطراً كبيراً على المستعمرات الفينيقية .

ومن الواضح أن هؤلاء الوفدين الجدد كانوا يتوندون في أول الامر أضعف الاماكن مقاومة ، فاتجهوا الى الاماكن التي لم تكن بها مستعمرات فيينيقية مثل جنوب ايطاليا وكورسيكا والغال (Gaul)^(١) ولم يحروها على الاتجاه الى الساحل الافريقي فيما بين سيرتس (Syrtes) وجبل طارق حيث كانت المستعمرات الفينيقية أكثر أمناً وسلطاناً ، ولم يكن ذلك التوزيع في النفوذ نتيجة اتفاقات ودية بين الفينيقين واليونان حيث أن الصراعات التي نشبت في صقلية وكان من نتيجتها انسحاب الفينيقين إلى أقصى الشمال الغربي للجزيرة تؤكد أن مثل هذه الاتفاques الودية لم تكن ممكنة أو سهلة .

لم يكن اليونان هم الخطر الوحيد الذي يهدد المستعمرات الفينيقية بل إن

(١) وهي تقابل فرنسا الحالية

صغر هذه المستعمرات وتباعدها كان يعرضها هجمات السكان المحليين وخاصة حينما تبدو في حكومتها بوادر الضعف ولا تكون لديها القدرة على الرد على مثل تلك الهجمات . وهكذا وجدت نفسها مضطرة الى التحالف مع المدن الكبيرة التي هيأت لها طبيعتها أن تكون مستعمرات قوية - فارتبطت المستعمرات الفينيقية الصغرى في الغرب مع قرطاجة - ومن الممكن أن نضيف الى ذلك أن صور كانت قد انحدرت الى الضعف ، ومع أن هذا الضعف كان بطبيعة الحال فترات من القوة ، إلا أن ضعفها كان أكيداً ولا يجعلها قادرة على تقديم العون الفعال الى المستعمرات البعيدة في الغرب وخاصة لأن التوسع اليوناني قد وقف حائلاً في طرق المواصلات المؤدية بينها وبين تلك المستعمرات . ولذا كان من الطبيعي أن تتوجه هذه المستعمرات الى دعم علاقتها مع قرطاجة لتضمن لنفسها حليفاً قوياً يساندها عند الحاجة .

ولاشك في أن فترة نشأة العلاقات بين المستعمرات الفينيقية هي والفترات التي تعقدت فيها العلاقات بين قرطاجة والدول التي ظهرت كقوى منافسة لها وخاصة الرومان ، وهي الفترة التي تعرف بالدور اليوناني ، من المشاكل التي تواجه المؤرخين إذ لا ندري هل تقبلت المستعمرات الفينيقية في أفريقيا سيادة قرطاجة والاعتراف بضرورتها عن طيب خاطر؟ أو أن هذه السيادة تعرضت لأزمات ومحاولات للانفصال من جانب المستعمرات التي ارتبطت بقرطاجة ، وخاصة لأن المادة التاريخية والاثرية التي لدينا ليست من التفصيل بحيث تكفي لبيان فكرة واضحة عنها .

وأول الاشارات في المصادر الكلاسيكية عن نشاط القرطاجيين في تأسيس المستعمرات يرجع الى ديودور الصقلي الذي ذكر بأن «ابيزا» (Ebiza) تأسست في البليار بعد ١٦٠ عاماً من تأسيس قرطاجة أي في ٦٥٤ - ٦٥٣ ق . م . ، ويتأسيسها أمنت قرطاجة لنفسها ميناءاً على الطريق بين سardinia وأسبانيا - ولا نعرف مدى النفوذ القرطاجي في البليار ولكن مما هو جدير باللحظة أن ميناء «ماهون» في مينورقا لا بد وأنه كان يتصل بالاسم الفينيقي «ماجون» .

ومن المحتمل أن القرطاجيين استقروا في سردينيا وصقلية حوالي ذلك الوقت أيضاً، أو على الأقل زادوا من روابطهم مع المستعمرات الفينيقية المحلية فيها - وتدل شواهد الاحوال على أن قرطاجة اتخذت مستعمرات في هاتين الجزيرتين بعد بضعة عشرات من السنين، وعلى ذلك يمكن القول بأن التوسع القرطاجي في البحر المتوسط وحلول قرطاجة محل صور وانتزاع مكانتها في قيادة المستعمرات الفينيقية باستمرار، فضلاً عن تأسيسها لمستعمرات جديدة أو إعادة احتلالها لنفسها قد تم خلال القرن السابع قبل الميلاد . وقد ذكر أحد الكتاب الكلاسيكيين «تيوكيدides» (Thucydides)^(١) أن القرطاجيين حاولوا عبثاً الحيلولة دون تأسيس يونانيين من أيونيا (بعد استيلاء كورش على بلادهم) مستعمرة لهم في مرسيليا . فقد منيت قرطاجة بهزيمة منكرة ولكن لا يعرف مكان الموقعة التي نشببت بين الفريقين حوالي سنة ٦٠٠ ق.م. ولا شك في أنها كانت ذات نتائج بعيدة الدفع حيث أتاحت لليونانيين أن يتحكموا في مركز ملاحي هام في البحر المتوسط ، وهو في نفس الوقت المنفذ لواحد نهر الرون - وقد أدى نجاح اليونان في الحصول على هذا المركز الملاحي إلى التقارب الوثيق بين القرطاجيين والاتروسكيين في محاولة للوقوف في وجه التوسع اليوناني .

وقد نجح القائد القرطاجي «مالخوس» في الانتصار على اليونانيين في صقلية حوالي سنة ٥٥٠ ق. م . وأخضع جزءاً من الجزيرة ، ويبدو أنه تدخل فيها لتدعم مركز المستعمرات الفينيقية التي كانت في طرفها الغربي - ثم توجه بذلك إلى سردينيا ولكنه مني بهزيمة ساحقة على أيدي السكان المحليين .

وحوالي سنة ٥٣٥ ق. م . اشتباك الاسطول اليوناني والاسطول القرطاجي وأدى ذلك إلى طرد اليونان من سردينيا وجعل القرطاجيون حلفاءهم من أهل أتروريا يحملون مخلهم ، وظلت قرطاجة تشن غاراتها على سردينيا والشاطئ الإسباني حتى استطاعت أن تثبت مستعمراتها فيها .

(١) عاش فيما بين ٤٧١ - ٤٠٠ ق. م . انظر بعد ص ١٠٨ هامش

ويشير أحد المصادر الكلاسيكية إلى أن «مالخوس» وفلول جيشه قد أبعدوا عن قرطاجة بسبب هذه الهزيمة ، ولكنه ثار وحاصر قرطاجة وتمكن أخيراً من احتلالها إلا أنه مالبث أن أتتهم فيها بعد بالاستبداد والاتجاه نحو الطغيان فقتل .

وقد تبعه في الحكم «ماجون» مؤسس الاسرة الماجونية التي حكمت قرطاجة لمدة ثلاثة أجيال وقادت بسلسلة من الاعمال العظيمة التي أدت إلى تطور قوة المدينة ، وأهم أعضاء هذه الاسرة هما «هاميلكار» بن «ماجون» و«هاسدروبال» وقد أسفرا تحالف القرطاجيين والاتروسكيين عن هزيمة اليونان الاليونيين الذين كانوا قد اتخذوا من «الاليا» (Alalia) في كورسيكا قاعدة لهم ومارسوا القرصنة حتى أضروا بتجارة البحر المتوسط فلم يجد القرطاجيون والاتروسكيون بدا من التصدي لهم وهزموهم في معركة «الاليا» البحرية سنة ٥٣٥ ق . م . ، وكان هذا حدثاً بالغ الاهمية لأنة أوقف التوسع اليوناني في كورسيكا وسردينيا - وقد أبرمت معاهدات لاقتسام مناطق النفوذ بين الاتروسكيين والقرطاجيين أصبحت بمقتضاها ايطاليا، من جبال الالب الى «كامبانيا» (Campania)، من نصيب الاتروسكيين بينما أصبحت المنطقة الواسعة في الجنوب بما فيها المنطقة التي احتلها اليونان من نصيب القرطاجيين ، ويدل العثور على آثار اتروسکية في قرطاجة على الصلات الوثيقة بين الاتروسكيين والقرطاجيين في ميدان الثقافة ، كما كان الحال في الميدان السياسي - وقد استمرت هذه الصلات حتى وقت متاخر حيث يستدل على ذلك من نقش بوني (Punic) يرجع الى حوالي سنة ٥٠٠ ق . م . عثر عليه في «سانت سفيرا St. Severa (بيرجي pyrgi القديمة)» ومن نصين اتروسكيين مشابهين له تماماً إذ أنها جيئاً تدل على تقدمه للالهة «استارته» في معبد بيرجي قدمها «تيفاري فيلياناس أو (فيليوناس) Thephari Velianas (Veliunas) أمير «كيري Caere (كيرفتيري Cerveteri)».

ولا شك في أن التحالف بين الاتروسكيين والقرطاجيين قد زاد من روح العداء ضد اليونان في الغرب الذين جاءوا من الشرق في عهد الامبراطورية الفارسية .

وهكذا لم يكن النشاط العلاقات التي نشأت بين القرطاجيين والفينيقيين الشرقيين في ذلك الوقت عرضياً أو مصادفة، فحينما أراد قمبيز بعد غزو مصر أن يرسل حملة إلى قرطاجة رفض الفينيقيون أن يسهموا فيها كما أن من المؤكد أن البعثات المنتظمة من قرطاجة إلى صور لم تكن لمجرد حمل القرابين لمعبده ملقارات بل لتبادل الرأي في الكفاح ضد اليونان - وكانت أحداث الحملة التي قادها «دوريايوس» (Doriaeus) شقيق ملك اسبرطة أولاً إلى أفريقيا ثم إلى صقلية تشكل جزءاً من هذا الكفاح ضد اليونان - ففي وقت لا يمكن تحديده من نهاية القرن السادس ق. م. رسا «دوريايوس» في أفريقيا في مكان يبعد ١٨ كيلو متراً جنوب شرقى «ليبيتس» (Leptis) وقد ظل القرطاجيون ، يعاونهم الاهالي ، في كفاحهم ضده ثلاثة اعوام إلى أن استطاعوا أن يطردوه ، فعاد إلى البلويينيز ولكن سرعان ما عاد إلى الغرب وهنا نجده لا يذهب إلى أفريقيا بل اتجه إلى صقلية حيث أسس بالقرب من جبل «ايريكس» (Eryxe) مدينة سماها «هرقلية» ولكن تصدى له القرطاجيون وهزموه وقتلوه ودمروا «هرقلية» وقد عاونهم في ذلك أهل «اليمى» (Elymi) (سكنان منطقة صقلية) .

وما لبنت علامات التآزن في التحالف ضد اليونان في الغرب أن ظهرت بوضوح ، وربما كان من أسباب ذلك ضعف الاتروسكيين والثورة ضدهم سنة ٥١٠ ق. م. وظهور روما كجمهورية مستقلة ، ففي السنة ٥٠٩ ق. م. أبرمت روما مع قرطاجة معايدة حددت مناطق النفوذ لكل منها^(١) - ويتبين من نصوص هذه المعايدة أن قرطاجة كانت تمثل قوة لها مكانتها في غرب البحر المتوسط ، غير أن الصدام بين فارس واليونان كان وشيك الحدوث لأن اليونان أرادوا أن يحطموا الحصار المضروب حولهم وأن يؤكدوا سيادتهم على مساحة

(١) بعد أن تخلصت روما من قبضة ملوك الاتروسكيين وأعلنت استقلالها كجمهورية عقدت المعايدة المشار إليها مع قرطاجة لأن هذه الأخيرة أبدت اهتماماً بوسط إيطاليا ولذا أبرمت روما المعايدة معها ، وبمقتضها وافقت قرطاجة على عدم التعرض لمدن لاتينية معينة سواء كانت خاضعة لروما أو لم تكن وأن لا تبني حصنًا في «لاتيوم» (أي الجزء الواقع بين روما شمالاً «وكابرا» جنوباً) .

كبيرة من البحر المتوسط حتى إن كثيراً من المؤرخين القدامى يربطون بين هزيمة الفرس ومعاونيهم من الفينيقيين ، في موقعة سلاميس في الشرق ، وبين معركة هيميرا في الغرب التي فشل فيها القرطاجيون في هجومهم على موقع اليونان الامامي في صقلية .

ولم يكن هذا مجرد مصادفة - فقد ذهب مندوبون عن فارس ومعاونيهم من الفينيقيين الى قرطاجة قبل معركة سلاميس مباشرة رجاء ذهاب أقوى أسطول قرطاجي الى صقلية لهزيمة اليونان ومنها الى البلوبينيز وهو رجاء كان القرطاجيون على استعداد لتلبيته لما بينهم وبين اليونان من منافسة على النفوذ في البحر المتوسط ، وهكذا أرسل اجزركسيس رسلاً الى قرطاجة بغية ترتيب هجوم مزدوج على اليونان اتفق فيه على أن يهاجم اليونان في بلادهم بينما يهاجم القرطاجيون اليونان في صقلية وايطاليا إلا أن اليونان نجحوا في تقويض ما دبر لهم كما نجحوا في ثبيت سيادتهم على جزء كبير من البحر المتوسط بعد فشل القرطاجيين في هجومهم على صقلية .

ومهما كان الامر فإن الموقف في صقلية كان يتطلب تدخل القرطاجيين حيث كان « جيلون » (Gelon) وهو دكتاتور في سيراكيوز قد أسس دولة قوية في شرق صقلية وتحالف مع « ثيرون » (Theron) دكتاتور « اجريجنتوم » وهي دولة أخرى قوية فلما استولى « ثيرون » على « هيميرا » (Himera) طرد حاكمها « تيريللوس » (Terillus) الذي كان حليفاً لقرطاجة - وما أن استنجد بها هذا الأخير لم تجد قرطاجة بدأ من التدخل حيث أنها رأت أن قوة اليونان التي لم تتصدع تزداد طغياناً، وعلى ذلك أرسلت حملة الى هيميرا لنجدتها ورأس « هاميلكار » بن « ماجون » الحملة مبحراً من قرطاجة على رأس أسطول كبير ورغم هبوب عاصفة شديدة حطمت السفن التي تحمل الخيول والعربات استطاع أن يرسو في باليromo ومنها اتجه الى هيميرا - وفي المعركة انتصر ثيرون (Theron) وجيلون (Gelon) ومات « هاميلكار » في المعركة وقتل جنوده أو استعبدوا وحرق اسطوله وكانت سنة ٤٨٠ ق . م . حاسمة في نجاح اليونان في البحر المتوسط شرقاً وغرباً .

ورغم أن هذه المعركة انتهت بمعاهدة سلام فإن بنود السلام لم تكن قاسية كما كان ينبغي فقد أستعاد القرطاجيون ممتلكاتهم في صقلية ، وربما كان ذلك لأن «جيلون» (Gelon) لم يرغب في أن يكون بالقرب منه حليف عظيم القوة في «اجريجيتوم» وهكذا فإن تسلط القرطاجيين في صقلية لم يتوقف الا لفترة قصيرة^(١) .

وقد أدت هزيمة قرطاجة في موقعة هيميرا سنة ٤٨٠ ق . م . إلى فشل تحالفها (مع الفرس) ضد اليونان ، ورغم الهزيمة التي منيت بها ظل غرب البحر المتوسط في يد القرطاجيين الذين تحكموا فيه - كما دفعتهم إلى اتباع سياسة جديدة فقد نفي القرطاجيون أهم أعضاء أسرة ماجون (هانو Hanno وجيسكو Gisgo) وبذلك غيروا الهيئة الحاكمة التي استمرت ثلاثة أجيال قادتهم إلى حروب متواصلة حيث شكلوا هيئة حاكمة من مائة شخص حماية للدولة من تزايد سلطان الفرد ، وفي ذلك الوقت أيضاً تغير لقب ووظيفة الملك إلى لقب قاضي مما دعا دون شك إلى تحديد أو اختصار مدة ولايته ، وهكذا تغير النظام الحكومي في قرطاجة .

وهذه التغييرات السياسية كانت مصحوبة بإصلاح ديني ، فيبينا كانت النصوص البونية القديمة تشير إلى إله واحد هو «بعل» أصبحت النصوص المتأخرة تشير إلى «تانيت» (التي وصفت بأنها «وجه بعل») والى «بعل حامون» .

ويستدل من الآثار التي وجدت على انخفاض حاد في المواد التي كانت تجلب من اليونان مما يدل على أن حكومة قرطاجة أنهت علاقاتها التجارية مع اليونان مما أدى إلى فقر المدينة بطريق غير مباشر إذ أن هؤلاء كانوا يحصلون من قرطاجة على مواد أساسية لقاء ما يمدونها به من سلع كمالية .

وهكذا فإن التغييرات السياسية والدينية والتجارية جعلت القرطاجيين ينفصلون عن العالم الفينيقي مما أدى دون شك إلى تعرضهم لأزمة ثقافية أسفرت عن استقلال قرطاجة الثقافي وهو ما لم يحدث في الوطن الأم (فينيقيا بالشرق) .

Moscati, op. cit., 120-1 (١)

وفي إطار هذه المحاولة أخذ القرطاجيون في التوسع في داخل إفريقيا والنهوض بالزراعة خلال القرن الخامس قبل الميلاد ، كما أنهم عملوا على تقوية اتصالاتهم ومدتها إلى خارج نطاق رقعة دولتهم ، ففي القرن الخامس ق.م. قاموا برحلات طويلة فيها وراء اعمدة هرقل (جبل طارق) ، حيث أبحروا هيميليكو (Himilko) بجوار سواحل إسبانيا وفرنسا إلى كورنوال (Cornwall) رغبة (على ما يبدو) في الحصول على مواد لم يكن الحصول عليها من أوروبا بطريق البر مثل القصدير إذ كان اليونان قد قطعوا كل الاتصالات البرية باحتلالهم مرسيليا ، كذلك تشير ترجمة يونانية لأحد النصوص البوئية في معبد (بعل حمون) بقرطاجة إلى أن (هانو) أبحر حول إفريقيا حيث يحتمل أنه وصل إلى خليج غينيا كي يضمن الحصول على السلع التجارية الثمينة من المنطقة المجاورة له^(١) .

كذلك كانت هذه السياسة ترمي إلى تأسيس قواعد قوية من الناحيتين الحربية والاقتصادية عندما يحدث صراع لا يمكن تجنبه ضد اليونان ، وقد حدث ذلك بالفعل حينها هددت مدينة سيلينونته (Selinunte) مدينة سيجيسته (Segesta) واستنجدت هذه الأخيرة بقرطاجة التي أرسلت جيشاً إلى صقلية بقيادة هانيبال وهو أحد خلفاء هاميلكار الذي فشل في هيميرا مما يوحى بوجود تحالف مقدس بين الجماعات القرطاجية ضد العدو المشترك أو أن الماجونيين ظلوا ببساطة ذوي تأثير كبير على المدينة على عكس ما كان يمكن حدوثه . وقد نجحت حملة (هانيبال) تماماً حيث دمر (سيلينونته) و(هيميرا) وذبح ثلاثة آلاف من الأسرى في المكان الذي سبق أن هزم فيه (هاميلكار) ، وبعد وقت قصير قامت حملة قرطاجية جديدة في سنة ٤٠٦ ق.م. بقيادة (هانيبال) أيضاً و(هيميليكو) (Himilko) بن هانو (Hanno) ، هاجمت أجريجنتوم (Agrigentum) وهزمتها ودمرتها بعد حصار طويل ، وقد مات هانيبال بالطاعون ولكن هيميليكو استمر في المغامرة ودمر بعد ذلك مباشرة مدينة جيلا (Gela) ، وهكذا أصبحت صقلية اليونانية مهددة بأكملاها .

(١) Moscati, op.cit., pp. 87,124, 181-4

وكان رد فعل اليونان يتزعمه ديونيزيوس (Dionysius) السيراكبيوزي الذي اختير قائداً (Strategos)^(١) عند سقوط (اجريجنتوم) فأثنى حالة السلم مع قرطاجة (سنة ٤٠٥ ق.م.) لكي يقوى من مركزه وتحرك للهجوم فأحرز انتصارات متتالية وأخضع موتيا (Motya) وخربها سنة ٣٩٨ ق.م. ، وظلت الحرب غير متكافئة فتدخل الاسطول البونی بقيادة هيميلکو وهزم ديونيزيوس في معركة بحرية بالقرب من كاتانيا (Catania) ثم حاصره في سيراكبيوز ولكن (ديونيزيوس) استطاع أن ينجو نظراً لانتشار وباء في الجيش القرطاجي سنة ٣٩٦ ق.م. ثم حدثت بعد ذلك معارك بينها في سنة ٣٩٣ ق.م. ، سنة ٣٩٢ ق.م. انتهت بعقد معايدة نتج عنها إعادة الحالة الى ما كانت عليه سنة ٤٠٥ ق.م. وتلت ذلك معارك فيها بين سنة ٣٨٢ ق.م. وبين موت ديونيزيوس سنة ٣٦٧ ق.م. أدت إلى مد الحدود إلى نهر هاليكوس (Halycus) وظلت كذلك نحو قرن من الزمان وبذلك امتد سلطان قرطاجة الى نحو ثلث صقلية .

وقد ظل تاريخ قرطاجة فترة طويلة غير معروف الا عن طريق الحروب التي نشبت بينها وبين اليونان في صقلية ، إلا أن ذلك نتج عن قلة المصادر المتاحة ، هذا وينبغي أن لا نعتقد بأن التطور السياسي لقرطاجة لم يقتصر على هذه الحروب . فالمعاهدة الثانية التي أبرمتها مع روما سنة ٣٤٨ ق.م.^(٢) ذات أهمية خاصة في هذا المجال حيث يتبين من نصها الذي أورده بوليبيوس (Polybius)^(٣) أن نفوذ قرطاجة امتد الى شمال افريقيا واسبانيا .

وقد استؤنفت العداوة بين القرطاجيين واليونان في عهد «تيموليون» (Timoleon) الكورثي الذي أعاد الديمقراطية الى سيراكبيوز وقد دفعته الهجمات القرطاجية الى التصرف بشدة ، وفي سنة ٣٤٠ ق.م. حاز نصراً كبيراً على نهر (كريسيوس Crimissus) وأبرم في السنة التالية (٣٣٩ ق.م.)

(١) (Stratregos) : معناها الأصلي خبير في الخطط الحربية .

(٢) حينها وجدت قرطاجة سرعة تقدم روما وقوتها وجدت أن من الضروري عقد معايدة تجارية معها .

(٣) مؤرخ يوناني عاش فيها بين ٢٠١، ١٢٠ ق.م.

معاهدة بقتضاها أصبحت الحدود عند نهرى (هيميرا) و (هاليكوس) فتغير الموقف العام تغيراً طفيفاً.

وفي سنة ٣٣٢ق. م. سدد الاسكندر الاكبر ضربة قاضية لقوة الفينيقيين في الشرق حيث احتل صور بعد حصار طويل ، ولم يتعرض للسفارة القرطاجية التي يفترض أنها كانت موجودة بها ، ومن المحتمل أنه كان يخطط لجعل امبراطوريته تمتد الى شمال افريقيا حيث عثر عند وفاته على وثيقة تبين اعتزامه على انشاء أسطول ضخم لاخضاع قرطاجة والساحل الافريقي الممتد الى أعمدة هرقل ، وهناك أسطورة تروي ان قرطاجة شعرت بهذا الخطر فأرسلت مبعوثاً يدعى (هاميلكار) كي يعمل على كسب ثقة الاسكندر في محاولة للتعرف على نواياه ، وأن هذا المبعوث استطاع ان ينقل معلومات كثيرة ولكنه في طريق عودته الى قرطاجة اتهم بالخيانة وأعدم.

ولا بد أن القرطاجيين خافوا على مستقبلهم ولكن من المؤكد أن وفاة الاسكندر فجأة وضعفت نهاية مشروعاته وبددت مخاوفهم .

ومع ذلك فإن قرطاجة كان عليها أن تواجه خطاً لم يكن متوقعاً ، حيث أن «اجاثوكليس» حاكم سيراكويز الطاغية الذي بدأ حكمه تحت سيادة القرطاجيين سرعان ما انقلب عليهم ، ولكنهم هزموه وحاصروه في مدinetه سنة ١٣٠ق. م. وحينئذ قام بتنفيذ خطة غاية في الجرأة حيث هاجم افريقيا بقوة مؤلفة من ١٤،٠٠٠ رجل تحملها ٦٠ سفينة حربية أبحر بها سراً ليتفادى الاسطول البوني ورسا قرب «رأس بون Cape bon» ثم اشعل النيران في سفنه واتجه بعزم نحو قرطاجة وكانت تلك ضربة لم تتوقعها الحصون القائمة على الطريق ولم يكن الحراس مستعدين لها فلم يلق هو ورجاله أدنى مقاومة ولم تصادفه الا الحقول الخصبة ويساتين الكروم ، وخرب في طريقه مدن «ميجالوبوليس Megalopolis» (التي لم يكن يعرف على مكانها حتى الآن) وتونس ثم عسكر بالقرب من قرطاجة التي أعدت على عجل (اثنان اضطراها) جيشاً ارسلته لمقابلته ولكنه أوقع بهذا الجيش هزيمة ساحقة مما أدى الى موقف شاذ بين عدوين فكل منها يحاصر مدينة الآخر، وبينما كان «هاميلكار» القرطاجي يحاول عبثاً اخضاع سيراكويز استطاع «اجاثوكليس»

أن يهد منطقة سيطرته إلى شرق قرطاجة وبعد لحظة طموحة لتشكيل حلف مع خلفاء الاسكندر في مصر ، فحينها رأى أن «بطليموس الأول» عين «اويفلاس Ophelas» (وكان من الحرس الخاص بالاسكندر) محافظاً على المدن اليونانية في سيرينايكا (برقة) عرض عليه «اجاثوكليس» أن يتحالف معه ضد القرطاجيين على أن يحكم «اويفلاس» شمال افريقيا بينما يحكم «اجاثوكليس» صقلية وعندئذ تقدم «اويفلاس» على رأس ١٠،٠٠٠ رجل إلى معسكر «اجاثوكليس» ولكن سرعان ما دب الخلاف بين الخليفين فدبر «اجاثوكليس» مكيدة «اويفلاس» وقتله وتملك جيشه .

وفي نفس الوقت تعرضت قرطاجة لأزمة داخلية حيث كان «بوميلكار Bomilcar» يناضل من أجل الحصول على سلطة مطلقة ولكنه قتل وهو على وشك النجاح ، وقد انتهز «اجاثوكليس» هذه الفرصة واستولى على «اوتيكا» و «هيبيواكرا Hippo Acra» التي عرفت فيما بعد باسم «بيزرتا Bizerta» ، وحيثند بدأ في بناء اسطول وأبحر في نفس الوقت إلى صقلية بجيشه صغير ليحرر سيراكيوز ولكن تغييه أدى إلى كارثة فقد هاجم القرطاجيون قواته التي تركها بافريقيا وهزموها وتمكنوا من إعادة حلفائهم السابقين إلى جانبهم ، وعاد «اجاثوكليس» مسرعاً إلى افريقيا وحاول عبثاً أن ينقذ الموقف ولكنه فشل ففر إلى صقلية بينما توصلت قواته إلى الإتفاق مع القرطاجيين، وسرعان ما أبرمت قرطاجة (سنة ٣٥٠ق.م.) معاهدة مع «اجاثوكليس» أدت إلى نهاية الحرب بينهما وبمقتضاهما احتفظت قرطاجة بكل ممتلكاتها في افريقيا وفي صقلية إلى نهر «هاليكوس» (أي ما يعادل ثلث مساحتها تقريباً) بينما كان يحصل «اجاثوكليس» على كمية من المال كتعويض رمزي عن مناطقه التي يتركها .

وهكذا تنتهي قرطاجة من دور من أعظم أدوارها خطورة في تاريخها يتميز بالاعتدال والحكمة ، وفي هذا الدور جعلت أعداءها يصلون إلى افريقيا إدراكاً من حكومتها بضعف مركزهم في المنطقة الافريقية فلم تحاول إبرام معاهدة مع «اجاثوكليس» حتى في أخرج ظروفها طالما ظلل على الأرض الافريقية ، ولم يكن ذلك الأسلوب الذي اتبعته من أجل تحقيق سياسة استعمارية ، فهذه

السياسة بالمعنى المفهوم لم تمارسها قرطاجة لأن أهلها قدروا أهمية وطنهم المحدود المساحة ، ولكن بالرغم من أن مغامرة «اجاثوكليس» لم تنجح فإنها أوضحت الطريقة التي يمكن بها هزيمة قرطاجة وهي التي اتبعها فيما بعد «اتيليوس ريجولس Atilius Regulus» و«سكيبيو Scipio» كما سترى .

وعلى العموم فإن سير الأحداث في القرنين الخامس والرابع ق.م. تبين ثبوت استقلال قرطاجة عن الوطن الأصلي وعن العالم اليوناني وبالتالي تمكنت من تكوين دولة ذات حكم ذاتي لها سياسة خاصة تميزت بها ، وهذه السياسة حسب التقاليد الفينيقية تتمشى مع غرضها التجاري الجوهرى ، ومع كل فإن قرطاجة مرت بأدوار جديدة وحتمت عليها الظروف أن تتجه إلى اهتمامات جديدة ، فكما رأينا لم تكن لها مقاصد استعمارية من قبل ، غير أن هذه المقاصد أصبحت فيما بعد ضرورية لها وكان ذلك سبب انهيارها وخاصة عندما واجهت قوى فتية مثل اليونان وروما ، ومع ذلك فإن قرطاجة كانت أول من دفعت بإفريقيا إلى المقدمة في تاريخ البحر المتوسط وأصبحت رمز مقاومة اليونان في الغرب .

وما هو جدير بالذكر أن معظم هذا الصراع كان يتركز بصفة خاصة على تنازع السيادة على جزيرة صقلية وذلك لما هذه الجزيرة من أهمية استراتيجية في حوض البحر المتوسط ، فموقعها يعني لها أن تحكم في الملاحة في جزئيه الغربي والشرقي .

الصراع بين قرطاجة وروما

بالرغم من قيام حروب كثيرة في القرن الرابع قبل الميلاد ظلت قرطاجة تنعم بالرخاء والازدهار كما يستدل على ذلك من الآثار التي ترجع إلى ذلك العصر ، وتأكيد كتابات الكلاسيكيين هذا الرأي وخاصة ما ذكره «ديودور»^(١) عن المنطقة التي اخترقها «اجاثوكليس» في تقدمه نحو قرطاجة كما يجب أن لا يغيب عن الذهن أن قرطاجة ، باستثناء حملة اجاثوكليس^(٢) استطاعت أن تقوم بحروبها كلها في الخارج ، وكانت البلاد التي تخضعها تمنى بخسائر جسيمة بينما تجني قرطاجة ثمار انتصاراتها وتحصل على غنائم ضخمة ، وفضلاً عن ذلك فإن استخدام المرتزقة (ولو انه أدى فيها بعد إلى حدوث الأزمات) قد أبقى على عدد سكانها دون تناقص يذكر واحتفل التزاماتها الحربية إلا فيها كانت تختيم الظروف الاقتصادية .

غير أن قرطاجة في نهاية القرن الرابع ق.م. لم تتميز بالرخاء فحسب بل تميزت كذلك بانتشار الثقافة اليونانية (أو بالأحرى الهلنلية) فيها بعد أن ظلت فترة في عزلة واستقلال نسبياً ، ولكن تلك الثقافة عادت إليها في مجال الفن والحياة الاجتماعية ، وقد أدى موت الاسكندر إلى موقف غريب تماماً في منطقة البحر المتوسط إذ أنه خطر تهديده بالهجوم على الغرب بل وأدى إلى تقسيم امبراطوريته ونشوب الصراع الداخلي فيها وبذلك زال كل تهديد يونياني باحتلال عسكري لقرطاجة .

ففي مصر أسس (بطليموس لوجوس) دولة امتدت إلى فينيقيا في جانب والي برقة (Cyrenaeca) في الجانب الآخر ، ولذا كان لقرطاجة كل الحق في أن

(١) ديودور الصقلي مؤرخ يوناني عاش فيها بين ٢٠، ٨٠ ق.م. كتب ٤٠ كتاباً عن تاريخ العالم.

(٢) انظر أعلاه ص ٧٠.

تحالف هذه الدولة التي كانت تحرس وتنظم التجارة على طول الساحل الإفريقي للبحر المتوسط دون أن تمارس أي ضغط سياسي ، مما أدى إلى توثيق الروابط بين الشرق والغرب ، وهذا الموقف يتضح من صورة الحياة الثقافية والاجتماعية التي تشير إليها الكتابات المتوافرة ويستدل عليها من الآثار المكتشفة حتى الآن .

ومن جهة أخرى فإن مشاكل الغرب السياسية أخذت تتقلص وأخذت قوتها تتزايد ، فلم تعد هناك مواجهة مع العالم اليوناني ، غير أن المواجهة الخامسة التي حدثت فيما بعد هي تلك التي كانت تختبر بين قرطاجة وروما ، ومع أن قرطاجة تدهورت في أعقابها إلى أن زالت من الوجود إلا أن هذا التدهور كان يرجع في معظمها إلى أسباب أخرى محلية لا تقل أهمية ، فقوة المرتزقة كان لها أثراً كما أن الشعوب المجاورة أخذت تستقل مكونة دويلات إفريقية مستقلة وتحالف مع روما التي كانت عدو قرطاجة العظيم .

قد سبق أن أشرنا إلى المعاهدين اللذين أبرمتهم قرطاجة وروما^(١) ثم عقدت معاهدة ثالثة تجديداً للمعاهدين السابقتين سنة ٣٠٦ق.م. ، ثم عقدت معها حلفاً ضد عدوهما المشترك «بيروس Pyrrhus» سنة ٢٧٩ق.م.

فحينها تعرضت بعض المدن في الأراضي الإيطالية إلى شيء من المتابع استنجدت روما وكان من أثر ذلك أن اتجهت روما إلى زيادة نفوذها السياسي واكتسبت من صراعها الطويل داخل إيطاليا خبرة حربية وزادت من تحصيناتها وأقامت مناطق حراسة في أماكن مختلفة ، ثم أخذت في مد نفوذها في جنوب إيطاليا الذي كان خاصعاً لليونان ولها طلبت مدينة «تاريتسم» (الواقعة في جنوب إيطاليا) النجدة لبى «بيروس Pyrrhus» حاكم «إيبيروس» (شمال غرب البلقان) طلبها إذ كان يطمع في تدعيم السيادة اليونانية على جنوب إيطاليا وচقلية وفي إيقاف النفوذ الروماني والقرطاجي في غرب البحر المتوسط ، وقد انتصر «بيروس» في أول الأمر في معركتي «هرقلية» سنة ٢٨٠ق.م. و«اسكولوم» سنة ٢٧٩ق.م. التي استخدم فيها الفيلة مما أثار الرعب في

(١) انظر الصفحتين ٧٥، ٧٩.

نفوس الرومان ، وبدلأً من أن يتقدم نحو روما اتجه إلى صقلية لمساعدة اليونان فيها ضد القرطاجيين وكاد أن ينتصر عليهم لو لا أن حلفاء اليونان تخلوا عنه خوفاً من خطره عليهم فيما بعد ، فترك صقلية وعاد إلى إيطاليا ولكنه هزم في سنة ٢٧٥ ق.م. ثم عاد إلى اليونان ، وبذلك تحققت سيادة روما على شبه جزيرة إيطاليا ، ونشأ عن ذلك موقف جديد حيث أصبحت روما من القوة بحيث تنافس قرطاجة في السيادة على غرب البحر المتوسط - وكان لا بد من اصطدام قوتيهما ودارت بينهما حروب اشتهرت بالحروب البوئية .

الحرب البونية الأولى (٢٣١ - ٢٦٤ ق. م.)

أرادت روما أن تقصى نفوذ قرطاجة عن صقلية بعد أن رأت أن قرطاجة عقب عودة «بيروس» إلى اليونان تبسط سيادتها على جزيرة صقلية بأكملها بما فيها مدينة «ميسينا» المقابلة لجنوب إيطاليا ، إذ رأت روما في ذلك خطراً يهددها، هذا بالإضافة إلى أن قرطاجة كانت تبسط نفوذها على سardinia ما يجعلها تحكم في غرب البحر المتوسط - وقد تهافت الظروف للصدام بين الدولتين حينما تمكنت جنود مرتزقة ايطالية في خدمة سيراكيوز (التي كانت حليفة لقرطاجة) من دخول «ميسينا» والاستيلاء عليها حيث اتجه حاكم سيراكيوز والقرطاجيون لإنهاء هذا الوضع الشاذ من وجهة نظرهم . ولما استنجد المرتزقة بروما هبت هذه لنجدتهم وتقدمت نحو سيراكيوز فتحول حاكمها من تحالفه مع قرطاجة إلى التحالف مع روما ، واضطرر القرطاجيون للانسحاب من صقلية استعداداً لمناورة النفوذ الروماني في البحر بعد أن رأوا أن الرومان أخذوا يتوجهون إلى تكوين قوة بحرية لهم ، وسرعان ما حدثت المواجهة بين القوتين وتمكنت القوة البحرية الرومانية الناشئة من الانتصار في سنة ٢٦٢ ق. م. ولكنها هزمت سنة ٢٥٩ ق. م. - وظلت المناوشات بين الفريقين سجالاً إلى أن عزمت روما على نقل الصدام إلى الأرض الأفريقية سنة ٢٥٦ ق. م. حيث توجه الرومان إلى المغرب ونجحوا - رغم تعرض القرطاجيين لهم - في التزول بموقع شرق «عنابة» الحالية وأصبحوا بذلك يهددون أمن قرطاجة ولكنهم تنبهوا من جهة أخرى إلى أن من الصعب إمداد هذا الموقع بالتمويل والامدادات الازمة لمدة طويلة فلم يستمرروا طويلاً في المغرب - وكان القرطاجيون قد أعدوا أنفسهم لمواجهة الخطر فاستدعوا «هملكار» من صقلية واختاروا قائدين جديدين كما استدعوا الاسطول لتدعم الدفاع عن قرطاجة عندما نجح الرومان في الاستيلاء على تونس - وتأزم الموقف بالنسبة للقرطاجيين عندما ثار البربر عليهم بسبب سوء معاملة جنودهم المرتزقة ، ولكن بالرغم من الصعاب التي تجمعت ضدهم تمكنوا من هزيمة الرومان في المغرب وأسروا القائد الروماني «رجولوس» سنة ٢٥٥ ق. م. واستعادوا سيادتهم في المغرب ، وهكذا تبدل الموقف مرة أخرى فأصبح للدولة القرطاجية نفوذها في المنطقة - وحاول الرومان مرة أخرى سنة ٢٥٢ ق. م.

النزول الى الساحل القرطاجي ولكنهم فشلوا في ذلك فتحول اهتمامهم الى صقلية حيث تمكنا من الانتصار على القرطاجيين الذين أرادوا أن يعيدوا نفوذهم اليها ، واحتل توازن القوى من جديد وعاد الصراع الى المجال البحري ، وهنا نجد أن القرطاجيين ينجحون في أسر عدد من السفن الرومانية - ثم اتجهوا إلى تدعيم قوتهم في صقلية حيث أرسلوا إليها قوة جديدة تصدى لها الرومان وأوقعوا بها الهزيمة سنة ٢٤١ ق. م. واضطربت قرطاجة الى عقد اتفاقية سلام مع روما التي أملت على القرطاجيين شروطاً قاسية منها الجلاء عن صقلية وعدم مهاجتها ودفع غرامة مالية كبيرة لورما على مدى عشرين عاماً - وكان ذلك سبباً في ضعف مركز قرطاجة على الساحل الأفريقي فتمرد عليها بعض حلفائها الليبيين كما تمرد جنودها المرتزقة فحاربتهم بقيادة «هاميلكار» لمدة ثلاث سنوات حتى أخضعتهم ، وفي أثناء ذلك انتهزت روما الفرصة ويسقطت سلطانها على سردينيا وكورسيكا وفرضت مزيداً من الجزية على قرطاجة .

الحرب البونية الثانية (٢١٨ - ٢٠٢ ق. م.) :

أرادت قرطاجة أن تعوض ما فقدته من نفوذها في إثر الحرب البونية الأولى فاتجهت الى بسط نفوذها في إسبانيا ، واختارت قائدتها «هاميلكار» لينفذ هذه السياسة - وفي سنة ٢٣٧ ق. م. ذهب «هاميلكار» ومعه ولده «هانيبال» (الذي كان في التاسعة من عمره) إلى إسبانيا ، وفي نيته أن يهاجم إيطاليا برا بالاتجاه من إسبانيا إلى جنوب فرنسا وإيطاليا - ومن الأساطير ما ينسب إليه أنه جعل ولده يقسم في المعد على أن ينذر حياته للانتقام من روما .

وقد نجح «هاميلكار» في نشر نفوذ قرطاجة في إسبانيا بعد كفاح ثمانية أعوام اعتمد فيها على الدبلوماسية أكثر من اعتماده على الأساليب الحربية حيث استطاع أن يعلم القبائل التي كانت تقطنها حياة الاستقرار والنظام واستطاع أن ينمي موارد البلاد الاقتصادية إلى درجة كبيرة ، وهكذا سار على السياسة التقليدية للقرطاجيين من الحرص على تأسيس مراكز لهم يمكن أن تذهبهم بالمؤمن والعتاد والرجال اللازدين لجيوشهم .

وفي سنة ٢٢٩ قتلت «هاميلكار» وخلفه زوج ابنته «هسدرول بعل» الذي سار على نهج سياساته وبنى مدينة قرطاجنة (أو قرطاجة الجديدة) في سنة ٢٢٨ ق.م. وفي سنة ٢٢٦ ق.م. أخذت روما تبدي قلقها من تطور الموقف في إسبانيا حيث كانت لها مصالح في شمالها الشرقي ، كما كانت لها علاقات قوية بمدينة «مساليا» التي كانت مستعمرة اغريقية قديمة في جنوب الغالقة وترتبطها بروما معاهدة - ولما امتد النفوذ القرطاجي في إسبانيا شمالاً ازداد قلق مدينة مساليا وأرسلت إلى روما متحججة على أعمال «هسدرول بعل» ، فقامت روما بإرسال بعثة لتحرى الحقائق وتم الاتفاق على أن لا يتعدى هسدرول بعل نهر «إبرو» شمالاً وعلى السماح لرومما بأن تحفظ بحلفها مع مدينة «ساجنتوم» على الساحل الشرقي لأسبانيا جنوب نهر «إبرو» في صميم منطقة النفوذ القرطاجي . وهكذا كان هذا الاتفاق بمثابة اعتراف من روما بقيام ولاية قرطاجية في إسبانيا ، وعلى ذلك استمر القرطاجيون في تقوية المنطقة ، غير أن «هسدرول بعل» قتل وخلفه «هانيبيعل» (هانيبال) بن هاملكار الذي لم يتجاوز الخامسة والعشرين من عمره وقتئذ ولكنه كان يتمتع بنفوذ كبير في إسبانيا وفي قرطاجة ذاتها وخاصة بين الجنود ، وتجمع بعض المصادر الكلاسيكية على أنه كان يتمتع بقوة الشخصية وقوة التحمل والجلد - هذا وقد عثر في إسبانيا على عدد من العملات القرطاجية وعلى أحد وجهي كل منها صور ثلاثة رجال يحملون أنهم «هاميلكار» و«هسدرول بعل» و«هانيبيعل» .

وحينما تولى «هانيبيعل» القيادة في إسبانيا أخذ يتحين الفرص لشن حرب على روما ومهاجمة إيطاليا ، وسنحت له الفرصة بعد أن تذرع ببعض الأسباب وهاجم مدينة «ساجنتوم» التي كانت حلية لرومما داخل منطقة النفوذ القرطاجي سنة ٢١٩ ق.م. وحاصرها لمدة ثمانية أشهر حتى سقطت في يده فلما احتجت روما على ذلك رفض احتجاجها مما أدى إلى اعلانها الحرب على قرطاجة سنة ٢١٨ ق.م.

وبدأت الحرب بين الفريقين وكل منها يتجه في عملياته العسكرية اتجاهها مختلفاً حيث أراد «هانيبيعل» أن يجعل حربه برية في أساسها ويغزو شمال إيطاليا ثم يتوجّل فيها جنوباً أملاً أن يحصل على مساعدة القبائل الغالية في

شمال ايطاليا وأن يؤلب حلفاء روما عليها في الجنوب حتى تضطر إلى التسلیم آخر الأمر ، وبالطبع أعد إسبانيا لتكون القاعدة الأساسية لإمداد جيشه بما يحتاج - أما روما فكانت تهتم بحرب خارج ايطاليا في إسبانيا وشمال أفريقيا وأن تعمل على طرد القرطاجيين من إسبانيا ، وبالطبع كانت الحرب فيها تتطلب الاعتماد على قوة بحرية إلى جانب قوة برية كذلك .

غزو «هانيبيل» لایطالیا :

ترك هانيبيل أخيه الذي كان يدعى «هسليرو بعل» أيضاً في إسبانيا للإشراف عليها وليرسل له الإمدادات بانتظام على أن يلحق به فيما بعد ، وفي سنة ٢١٨ ق. م. خرج من إسبانيا قاصداً إيطاليا على رأس ٤٠،٠٠٠ جندي من المشاة و٩،٠٠٠ من الفرسان وعدداً من الفيلة التي اعتاد القرطاجيون استخدامها ضمن قواتهم العسكرية ، وبعد أن عبر البرانس اتجه مسرعاً شرقاً إلى جبال الألب - ولم يكن الرومان يتوقعون ذلك وأرسلوا بالفعل جيشاً إلى صقلية ليبحر إلى أفريقيا بقيادة «سمبرونيوس Sempronius» وأخر إلى إسبانيا سار بمحاذاة الساحل إلى مرسيليا (التي كانت تعرف باسم ماسيليا) وما أن علم قائد هذا الأخير (اسكيبيو Scipio) بتوجه «هانيبيل» إلى إيطاليا حتى أرسل أخيه إلى إسبانيا مع جيش آخر كي يحطم من قوة القرطاجيين بها قدر الامكان وأرسل إلى السناتور في إيطاليا يخبرهم بتحركات «هانيبيل» ، وأرسل السناتور يستدعونه من صقلية ، وعلى ذلك أسرع بالعودة إلى إيطاليا ليصل إليها قبل «هانيبيل» .

وبعد أن وصل «هانيبيل» إلى ماسيليا (مرسيليا الحالية) لم يستمر في تقدمه على الساحل ، حتى لا تتعثر خطته في الهجوم على إيطاليا إذا ما قابله الرومان ، بل اتخذ طريقاً وعرّا استنفذ منه جهداً كبيراً في نقل قواته وعتاده عبر جبال الألب ، واستطاع بعض التعرض لكثير من المتابع وقسوة المناخ أن يعبرها في خمسة أشهر وتعد هذه العملية من أعظم الأعمال العسكرية في التاريخ ولم تكرر إلا مرة واحدة هي التي قام بها نابليون عند غزوه لایطالیا - وقد تعرض «هانيبيل» لكثير من المكائد التي دبرها له سكان المنطقة

من قبائل الغالة والكلتين التي أصابت قواته بالكثير من الأذى إذ كانوا يلقون على جنوده الأحجار وهم في مخايب لا يلاحظها الجنود .

ولما عبر جبال الألب نزل إلى حوض نهر «البو» حيث كان الرومان يتجمعون للقاء وكانت جيوشهم تفوق جيوشهم عدة أضعاف .

موقعه «تربييا - Trebia» (ديسمبر سنة 218 ق. م.) :

انتظر اسكيبيو (Scipio) عند أحد روافد نهر بو الشمالية استعداداً للقاء «هانيبيل» عند وصوله ولكنه لم يستمر طويلاً وانسحب إلى راقد آخر في جنوب النهر المعروف باسم نهر «تربييا» وهناك وجد جيشاً رومانيا آخر عند موقع مناسب تحميته الجبال - ونظراً لاصابة اسكيبيو (Scipio) بجرح فقد اضطر جيشه للتوقف ، ولم يبدأ الرومان المعركة نظراً لأنهم اعتقدو أن «هانيبيل» بعد عبوره الألب سيحتاج إلى فترة راحة طويلة مما يجعلهم في وضع يسمح لهم بتحديد وقت المعركة الذي يتزاء لهم حينها تكون ظروفهم مواتية لذلك ، فانتظروا بعض الوقت حتى تحين لهم فرصة الانقضاض على «هانيبيل» ، غير أن «هانيبيل» أدرك بذلك ما يدور بخلدهم ويادرهم بالهجوم في أقرب فرصة أتيحت له - وفي يوم قارس البرودة من شهر ديسمبر أيقظ جنوده لتناول الأفطار وجعلهم يدهنون أجسامهم بالزيت وقاية لهم من البرد الشديد ثم أرسل فرقة من الفرسان عبر النهر ليغري الرومان بالاتحام معه في معركة - وكان القائد الروماني متغضضاً لإحراز نصر سريع طلباً للمجد فقد جنوده لتعقبهم دون تناول افطاراتهم وحينما عبروا النهر شلت المياه الباردة أجسامهم عن الحركة وخاصة لأنهم كانوا جوعى - وقد أرسل «هانيبيل» أخاه «ماجو» ليواجه الرومان من الخلف بينما جعل فرسانه تهاجم جناحي الجيش الروماني وبعد قتال عنيف حطم قوة الجيش الروماني فلم ينج منه سوى خمس عدده فقط ، أما بقية رجال هذا الجيش فكانوا بين أسرى وجريح كما قتل القائد «كورنيليوس اسكيبيو - Cornelius Scipio» و«سمبرونيوس لونجوس - Sempronius Longus» - وهكذا احتل هانيبيل الموقع الروماني بعد أن انتصر على الرومان انتصاراً باهراً مما كان له أثره البالغ على موقف «هانيبيل» ، فبعد

أن كان يتعرض لكيد القبائل الغالية في شمال ايطاليا أعلنا له ولاءهم وبذلك اكتسب صداقتهم واطمأن إلى أنه سيستعين بهم كجنود في جيشه وإلى أنه سيضمن سلامة الاتصال بينه وبين اسبانيا حيث أصبح طريقه إليها آمناً لا تهدده هذه القبائل .

موقع بحيرة « ترازيين - Trasimene » (سنة ٢١٧ ق. م.) :

انتاب الرومان الذعر والقلق لتقدم هانييول واسرع السناتو باتخاذ الخطوات التي رأوا أنها كفيلة بوقف تقدم الجيش القرطاجي فعينوا القنصلين^(١) « فلامينيوس جايوس - Flaminius Gaius » و « جنائيوس سيرويليوس - Gnaeus Servilius » ليقف كل منها على رأس جيش في أحد الطريقين الأساسيين المؤديين إلى روما ، ولكن هانييول أفلت منهم بمهارة حيث اتخذ طريقاً وعراً غير مطروق عبر مستنقعات وأوحال لمدة أربعة أيام وثلاث ليال ملهباً حماسة رجاله الذين مناهم بأنهم في طريقهم إلى روما ثم وصل إلى سهل صغير تحيطه الجبال قرب بحيرة « ترازيين » ، وبعد راحة قصيرة فاجأ الجيشين الرومانيين بالانقضاض عليهما الواحد تلو الآخر فقضى على جيش « فلامينيوس » الذي قتل في المعركة ودمر جيش « سيرويليوس » وبذلك أصبح الطريق إلى روما مفتوحاً أمامه .

معركة « كاناي - Cannae » (سنة ٢١٦ ق. م.) :

تسبيت هزيمة روما في المعركة السابقة في حدوث أزمة حادة في المجتمع الروماني وعم الشعور باليأس اذا ما ظلت روما تخضع لنظام القنصل فقرر السناتو العدول عن هذا النظام وانتخاب دكتاتور يتمتع بسلطان مطلق على الدولة واختاروا لذلك (فابيوس - Quintus Fabius) الذي اطلق عليه لقب « المعطل » نظراً لاتباعه استراتيجية تهدف إلى عدم مواجهة « هانييول » في معركة كبيرة خشية الهزيمة لأن ذلك يعرض مستقبل روما لخطر داهم ، وفي نفس الوقت حرص على أن يبعد « هانييول » عن روما بقدر الامكان فأخذ يهاجم

(١) القنصل مثل الدولة داخل روما .

جيشه ومعسكره بجماعات صغيرة ، أي أنه اتبع أسلوباً أشبه بحرب العصابات مما عرقل تقدم «هانيبيل» وأزعج جنوده - وقد نجحت هذه الخطة حيث جنبت روما هزيمة كبيرة ثالثة كذلك لم يستطع هانيبيل أن يحاصر روما لعدم توفر أسلحة حصار للمدن معه ، فاتجه إلى الجنوب رغبة في الاستيلاء على إيطاليا بأكملها وأن يفصل بين روما وحلفاءها ، ولكن الوضع أصبح في غير صالح هانيبيل حيث اتسعت المنطقة التي توغل فيها وبذلك طالت خطوط مواصلاته مما أتاح الفرصة لنجاح حرب العصابات ، وبالرغم من ذلك ضاق الرومان بأسلوب «فابيوس» حيث أرادوا أن يحقق نصراً سريعاً ولذا عكف السناتو على تجنيد أكبر عدد ممكن من الجنود وقرر أن يعود إلى النظام القنصلي وعين «لوكيوس أميليوس باولوس - Lucius Aemilius Paulus» و«جايوس ترنتيوس فارو - Gaius Terentius Varro» قنصليين أوكلت إليهما مهمة الحرب ضد «هانيبيل» على رأس جيش من ٨٠,٠٠٠ جندي ، فاتجه هذا الجيش إلى الجنوب لمقابلة الجيش القرطاجي المكون من ٥٠,٠٠٠ جندي - والتقي الجيشان عند «كاناي» في جنوب شرق إيطاليا ، ولكن «هانيبيل» نصب كميناً للمجيش الروماني حيث وضع قوة صغيرة من الغاليين والأسبان أمام قوات «فارو» وأمرها بالتراجع تدريجياً عند مهاجمتها وحينما أخذت جيوش الرومان تتبع هذه القوة تراجعت نحو وسط جيش «هانيبيل» حيث وضعت القوات الليبية على الجانبين - ولما وصلت القوات الرومانية إلى مكان ملائم فاجأها «هانيبيل» بهجوم عاصف من الفرسان أعقبه هجوم شامل بجميع الأسلحة ، فأسقط في يد الرومان الذين احيطوا من كل جانب فقدوا السيطرة على حركتهم واستعمال الأسلحة التي بأيديهم استعمالاً مجدياً - ولم ينج منهم بالفرار سوى ١٠,٠٠٠ من الرجال ومعهم فارو ، بينما قتل الآخرون هم والقنصل «باولوس» وثمانين عضواً من أعضاء السناتو .

وبعد هذه المعركة نصح أحد القواد القرطاجيين «هانيبيل» بالهجوم مباشرة على روما ولكن هذا الأخير أبى إلا أن ينفذ خطته من الاستيلاء على إيطاليا أولاً وأن يشجع حلفاء روما على التمرد عليها حتى تضطر إلى التسليم في النهاية ، وربما كان عدم وجود أسلحة حصار معه هو الذي جعله يتمسك بهذه الخطة .

تغير ميزان القوى في البحر المتوسط

رغم ما بذله السناتو من جهود لإثارة حماسة الرومان في مقاومة غزو «هانيبيل» ورغم تحصين المدن الرومانية فإن معركة «كاناي» كانت ذات أثر بعيد المدى ، فأكثر حلفاء روما من الإيطاليين وخاصة في الجنوب ثارت على روما ، وكذلك انسلخت سيراكيوس في صقلية عن حلفها مع روما ، ولم يقتصر الأمر على ذلك بل إن فيليب الخامس ملك Макدونيا أعلن أنه سيعقد حلفا مع «هانيبيل» لأن السناتو الروماني حاول التدخل في شؤون شبه جزيرة اليونان ، وأمام هذه المتاعب اجتهد الرومان في منع قيام هذا الحلف واستطاعوا إثارة حرب أهلية في اليونان تحالفت فيها «إيتوليا» و«اسبرطة» و«برغاما» ضد Макدونيا وشغلت هذه الحرب Макدونيا نحو تسع سنوات انتهت بهزيمتها سنة ٢٠٦ ق. م. وأرغم فيليب على الصلح .

وقد وجد «هانيبيل» نفسه في موقف صعب إذ عجز عن فتح المدن الإيطالية المحصنة التي ظلت على ولائها لروما ، وفي نفس الوقت كان عليه أن يدافع عن المدن التي ثارت على روما وانحازت إليه مما اضطره إلى تشتيت جهوده وقواته العسكرية ، وانقلب الوضع حيث أصبح مدافعا عن هذه المدن بدلا من أن يستمر مهاجما فقد أمجاد النصر التي كان ينعم بها - واستغل الرومان الفرصة فبدأوا يسترجعون المدن التي ثارت ضدهم مبتدئين بتلك التي في صقلية لأنها كانت أبعد من الاحتكاك المباشر مع جيوش «هانيبيل» ، وبالفعل سقطت سيراكيوس في أيدي الرومان بعد حصارهم الطويل لها - ويقال أن العالم الرياضي الشهير أرشميدس اخترع آلات استخدمها المدافعون عن المدينة دون جدوى ، كما أن هذا العالم سقط قتيلا في آخر مرحلة من مراحل

الدفاع عن المدينة سنة ٢١٢ ق.م.، ثم انتقل الرومان بعد ذلك إلى جنوب إيطاليا حيث حاصروا مدينة «كابوا» بثلاثة جيوش فحاول «هانيبيل» أن يفك حصارها بتحويل أنظارهم للدفاع عن روما ، التي نصب خيمته على بعد ثلاثة أميال منها ، وبدأ الهجوم عليها ولكنه لم ينجح في حصارها لعدم وجود آلات حصار معه ، وسقطت «كابوا» بعد قتال مرير راح ضحيته كثيرون من الطرفين سنة ٢١١ ق.م.، وفي العام التالي تمكن الرومان من استرداد «تاريتوم» أيضا.

وهذه الانتصارات التي أشرنا إليها أتاحت الفرصة للرومان كي يستخدمو جيوشهم في حرية فنقلوا جزءاً من جيوشهم إلى إسبانيا التي كان موقفهم فيها حرجا.

وفي تلك الأثناء ابتدع الرومان نظام تعين قواد من كبار الموظفين السابقين برتبة «بروقنصل» أو «بروبريتور»^(١) لمدد مختلفة بدلاً من الالتزام بنظام الوظائف الدائمة - فعينت روما اثنين من كبار أسرة «اسكيبيو» لقيادة الجيوش الرومانية في إسبانيا ولكنها هزما وقتلا سنة ٢١١ ق.م. على يد «هسدروبيل» القائد القرطاجي في إسبانيا وهو أخ لـ «هانيبيل» وأصبح الموقف خطيراً بالنسبة لرومما خشية أن يؤثر ذلك على سير القتال في إيطاليا حيث يصبح في الامكان إرسال مدد من إسبانيا إلى «هانيبيل» في إيطاليا - لذلك أصدرت رومما قراراً بتعيين ابن أحد القائدين اللذين سبق أن قتلا في إسبانيا قائداً لجيشه رغم أنه لم يكن قد تجاوز الخامسة والعشرين من عمره ، وقد تطلب ذلك استصدار قرار خاص بمنحه سلطة الامبيريوم^(٢) (Imperium) من جمعية المائة وذلك لأول مرة في تاريخ رومما ، وهذا القائد الجديد هو الذي عرف باسم «اسكيبيو الأفريقي» .

أظهر القائد الصغير مهارة فائقة في قتاله في إسبانيا مما عوض الرومان

(١) «بروقنصل» له صلاحية القنصل خارج رومما ، كذلك «بروبريتور» له صلاحية (Imperium) أي له صلاحية القيادة خارج رومما .

(٢) له صلاحية القيادة

كثيراً من خسائرهم وأعاد الثقة إلى نفوسهم ، ففي سنة ٢٠٩ ق.م. هاجم « هسدروبيل » هجوماً خاطفاً كانت نتيجته أن استولى على مدينة قرطاجنة (قرطاجة الجديدة) عاصمة القرطاجيين في إسبانيا - غير أن « هسدروبيل » تمكّن من الأفلات بجيش كبير وإمدادات كثيرة واتّجه إلى إيطاليا بِرّاً ليقف إلى جوار أخيه هناك لعلمه بأنه في حاجة لمزيد من الجنود والامدادات ، وأدرك الرومان خطورة انضمام الجيшиين القرطاجيين معاً في إيطاليا حيث يصبح أمل روما في النصر ضعيفاً جداً وخاصة لأن حروبه الطويلة استنزفت مواردها ودمرت أراضيها ، بل وأصبح حلفاؤها يرفضون تقديم المساعدة لها - ولحسن حظ روما وقع الرسول (الذي أرسله « هسدروبيل » إلى أخيه ليخبره بوصوله) في قبضة الرومان فاستعدوا لذلك بجيش كبير قابل جيش « هسدروبيل » وانتصر عليه سنة ٢٠٧ ق.م. عند نهر « ميتاورس » (Metaurus) ورغم حرج موقف « هانبيعل » استطاع أن يصمد في إيطاليا بعد ذلك عامين ولكنه لم يحرز نصراً بالطبع لعدم وصول مدد له وأصيب باليأس فاستجاب لدعوة وطنه بالعودة وعاد إلى قرطاجة بعد أن قضى في حربه خمسة عشر عاماً دون هزيمة واستولى على إيطاليا بأسرها ودمر نحو ٤٠٠ مدينة . أما « اسكيبيو » القائد الروماني الصغير فقد أخضع إسبانيا بأسرها واتّجه إلى قرطاجة لمحاربة « هانبيعل » في عقر داره ، وساعدته الحظ بثورة الجنود المرتزقة في جيش قرطاجة أثناء المعركة التي دارت عند « زاما » Zama بالقرب من قرطاجة وهجروا « هانبيعل » الذي مني بهزيمة فادحة سنة ٢٠٣ ق.م. وكانت هذه أول وأخر مرة يهزّم فيها ، وعلى أثرها فر « هانبيعل » إلى الشرق حيث تعاون مع ملك ليديا في حربه ضد الرومان ولكن هؤلاء انتصروا على الآتين فانتحر « هانبيعل » سنة ١٨٢ ق.م.

وقد فرضت روما شروطاً فاسية على قرطاجة بعد هزيمتها في معركة « زاما » Zama منها :

- ١ - تسليم إسبانيا
- ٢ - أن تدفع قرطاجة لرومما غرامة ضخمة .

٣ - أن تتخلى عن استخدام الفيلة في قواتها العسكرية وأن تتخلى عن سفنها الحربية فيها عدا عشرة منها .

٤ - أن لا تعلن في المستقبل حربا في داخل ليبيا أو خارجها دون إذن من روما .

وفي هذا الشرط الأخير ما يفيد تبعية قرطاجة لروما، وقد استغلته فيما بعد أحسن استغلال في التضييق على قرطاجة ، وفي إثارة جيرانها عليها حتى تقلص نفوذها في شمال أفريقيا إلى أن وجدت روما أن الفرصة سانحة لاعلان الحرب على قرطاجة للقضاء عليها نهائيا في الحرب البونية الثالثة .

وحيينا عاد اسكيبيو من معركة « زاما Zama » استقبلته روما بأقواس النصر ومنح لقب « اسكيبيو » الافريقي تخليدا لانتصاره .

الحرب البونية الثالثة :

كان من نتائج الشروط التي أملتها روما على قرطاجة التي سبقت الاشارة إليها أنها جعلت قرطاجة مسلولة الحركة من الناحية العسكرية حيث أن الشروط التي أملت عليها ألمتها بأن لا تشن حربا إلا بإذن من روما حتى ولو أجبرتها الظروف على خوض غمار تلك الحرب ، وفي نفس الوقت أخذت روما تؤلب جارات قرطاجة لها جنحتها والاستيلاء على بعض أراضيها ، واستغلت بعض الدول مساندة روما أو تغاضيها فتحالف « ماسينيسا Masinissa » ملك « نوميديا » (التي كانت تابعة لقرطاجة) مع روما وأخذ يطالب بتوسيع رقعة بلاده وكثيرا ما هاجم الأراضي القرطاجية متذرعا بهذا السبب أو ذاك ، ولم تستطع قرطاجة رد هجماته بل كانت مضطورة لأن تقدم شكوى إلى مجلس السناتو في روما فكانت روما تكتفي بإرسال لجنة للتحقيق كانت عادة تبرر مسلك ملك نوميديا .

وفي إحدى المرات أرسلت روما أحد المحاربين القدامى وهو سياسي متزمن يدعى « كاتو Cato » فلاحظ أن قرطاجة استعادت قدرها من الرخاء وانتشرت تجاراتها ، واعتقد بأن ذلك قد يساعد قرطاجة على أن تصبح قوة عسكرية وسياسية كما حدث في الماضي ، ولذا بادر بتبنيه روما إلى أنها قد تعود

لتهديدها من جديد وأخذ يدعو للقضاء عليها وبروج الشعار الذي ينص على أنه «لا بد من أن تدمر قرطاجة» فكان يردد ذلك في كل خطبة في مجلس السناتو، وبرور الزمن أصبح أعضاء من السناتو يؤمنون بهذا الشعار ويعتقدون بوجوب تطبيقه، واستطاع أن يقنع السناتو الذي قرر إرسال حملة لمحاربة قرطاجة سنة 151ق.م. متذرعاً بالرغبة في معاقبتها لخلافاتها مع نوميديا.

وفوجيء القرطاجيون بالحملة التي لم يكونوا قد استعدوا لها ولم يرغبو في أول الأمر خوض غمار الحرب وعرضوا على روما أن تأخذ ثلاثة طفل من أبناء أسرها الكبيرة كرهائن ولكن الرومان لم يقبلوا وطالبو القرطاجيين أن يخلوا عن مدینتهم إلى مسافة عشرة أميال بعيداً عن الساحل ليتمكنوا من تدميرها فأدرك القرطاجيون أن الرومان يرغبون في القضاء عليهم وعلى مدینتهم نهائياً وأثروا أن يقاتلو بدلاً من الاستسلام.

ومع عدم استعداد القرطاجيين مسبقاً لهذه الحرب إلا أنهم استطاعوا أن يهبيوا أنفسهم لها على وجه السرعة واستسلوا في الدفاع عن وطنهم مستميتين في القتال إلى درجة أثارت اعجاب الرومان أنفسهم، وما يروى في هذا الصدد أنهم حولوا كل معبد وكل حانوت إلى مصنع لانتاج الأسلحة وأدوات القتال وظلت تقاوم ثلاثة أعوام، ثم رأت روما أن تغير قائدتها فعينت قائداً جديداً يدعى «اميليانوس» (Aemelianus) استطاع بعد حصار مرير أن يقهر قرطاجة سنة 146ق.م. وأن يدمرها عن آخرها ثم أحرقها وبيع سكانها كرقيق.

الحضارة الفينيقية

أولاً: المدن الفينيقية وتأسيسها

من الموضوعات التي يهتم بها الدارسون المحدثون نظام تخطيط المدينة وبناء المنازل القديمة، باعتبارهما من المظاهر الحضارية. وإذا كانت هذه الدراسة أساسية بالنسبة للشعوب المختلفة ، فهي أكثر لزوماً بالنسبة لقوم لم يعرفوا سوى حياة المدينة من الناحيتين السياسية والاجتماعية ، مثل الفينيقيين ، شأنهم في ذلك شأن الأغريق . ولكن إذا كانت المصادر الأغريقية ونتائج الحفائر الأثرية قد امدتنا بمعلومات قيمة عن طريقة بناء المدن وتخطيطها عند الأغريق . فإن معلوماتنا عن العمارة الفينيقية لا تتعذر بعض الأوصاف الجزئية التي وصلتنا في عبارات عامة متفرقة جاءت في كتابات المتأخرین من الأغريق واللاتين ، وما أمدتنا به الكشوف الأثرية من حقائق أسفرت عنها جهود الأثريين في الواقع الفينيقية القليلة التي وجدت بها بعض الآثار أو في آثار البلاد الأخرى التي كانت لها بعض العلاقات مع فينيقيا .

وأول ظاهرة نلحظها في هذا المجال هي أن كل مدينة فينيقية - صغيرة أو كبيرة - كان يحيط بها سور ويظهر ذلك جلياً من التقوش التي زينت بها البوابات البرونزية التي أقامها الملك الأشوري « شلمنصر الثالث » (٨٥٩ - ٨٢٤ ق . م) . في « بلوات Balawat » (بالقرب من غرود بالعراق) ، مسجلأً حملاته المختلفة . ويتمثل هذا النرش وفداً من مدينة صور ، يعبرون البحر من جزيرتهم إلى الساحل ليقدموا الجزية إلى الملك الأشوري - ويهمنا من النقش بصفة خاصة أن الجزيرة قد صورت كقلعة يحيط بها سور منيع وقلاع واضحة تمام الوضوح .

ومن نقش آخر أقامه الملك «سنحريب» في مدينة نينوي العاصمة الآشورية نرى منظراً يمثل «لولي» ملك صور وصيدا وهو يفر من مدينة صور إلى قبرص من وجه الملك الآشوري (سنة ٧٠١ ق. م.) - ونرى أن «لولي» وأسرته يركبون المراكب من باب خلفي في سور المدينة ، وإن كان الفنان الذي صمم النقش لم يفصل بين السور ومنازل المدينة ، وأصبح السور بقلائه وتحصيناته جزءاً من المنازل ذات الطابقين ولكنه يغطي الطابق الأول منها فقط - كذلك نرى أسوار مدينة صيدا بقلاءها وتحصيناتها مصورة على بعض عمارات المدينة التي ترجع إلى الجزء الأول من القرن الرابع قبل الميلاد .

وكانت المدن الفينيقية صغيرة الحجم عادة ، شأنها في ذلك شأن المدن القديمة بصفة عامة ، وهذا كان الطابع الغالب عليها هو ضيق الطرق والممرات وازدحامها بالمنازل وتكاثرها إلى درجة تلاصق بعضها البعض - ونظراً لأن مساحة المدينة كانت محدودة بسور فإن كل زيادة في السكان في فترات الازدهار لا يصحبها اتساع وراء الأسوار ، في بداية الأمر ، ولكن كان ينعكس في الاتجاه بالمساكن إلى أعلى وهذا كان الغالب على المنازل أن تتكون من أكثر من طابق - ويفيد هذه الحقيقة ما يرويه الكتاب من الأغريق القدماء من وصلت إلينا أعمالهم مثل «استرابون» الجغرافي من القرن الأول ق. م. حيث يذكر أن منازل صور وأرورد كانت تتكون من عدة طوابق ، وأن منازل صور كانت أكثر ارتفاعاً من المنازل في روما ذاتها^(١) .

وكذلك يذكر «ابيانوس» وهو من مؤرخي القرن الثاني الميلادي ، بأن المنازل في بعض أحياء مدينة قرطاجة كانت تتكون مما لا يقل عن ستة طوابق ، ولكن هذه المنازل العالية وجدت فقط في الأحياء التجارية وقرب الميناء - أما في أماكن أخرى وفي المدن الفينيقية الأخرى الصغيرة فإن الطابع الغالب على المنازل هو المنازل ذات الطابقين فقط كما يتضح ذلك من رسم على مقبرة في

(١) استرابون : ١٦ ، ٢٣ ، ١٣ .

شمال إفريقيا ، يمثل بلدة منازلها جميعها من طابقين وكذلك من نقش سنحريب (بمدينة نينوى) عن مدينة صور الذي سبقت الإشارة إليه .

أما عن تخطيط البيوت نفسها في المدينة الفينيقية ، فإن الآثار لم تمننا بعد بعادة كافية لاصدار آراء أوأحكام عامة ومع ذلك فهناك بعض النماذج القليلة مثل منزل كشف عنه في « موتيا » في جزيرة صقلية ، فهو بيت حسن البناء والنظام يشتمل على عدد من الحوانيت والمخازن ملحقة به . وإن كانت به مناظر مصنوعة من فسيفساء في طراز وأسلوب يوناني مما يرجح أن البناء يوناني الطابع وليس فينيقيا ، ومع ذلك فالصور المثلثة في الفسيفساء لحيوانات تتصارع يظهر فيها التأثير الشرقي ولعل المنزل كان لرجل فينيقي أدخل في بنائه بعض العناصر اليونانية .

أما الموقع الأخير الذي عثر فيه على منازل فينيقية فهو في شمال إفريقيا بالقرب من موقع قرطاجة « بدار الصافي » بجزيرة « رأس بون Cape Bon » وهي بلدة صغيرة ترجع إلى القرن الرابع حتى الثاني ق . م . من المرجح أن سكانها كانوا جماعة من صيادي السمك أو المشتغلين بالأصباغ القرمزية الألوان - وقد اشتمل أحد هذه المنازل على حمام به مغطس ذي مقعد ، وفي بناء آخر نجد حماماً قد بقي لنا في حالة جيدة وبه نظام متقن لتصريف المياه ، وللحجرات الأرضية من السمنت الوردي اللون قد ثبتت فيها مكعبات صغيرة من الرخام ، وهي طريقة شاع استخدامها في أماكن مختلفة من البحر الأبيض المتوسط في ذلك الوقت أي قبل استخدام الفسيفساء الحقيقية في العصر الامبراطوري . وهذه المساكن لم يكن يغطي جدرانها الخارجية أية زخرفة أورسماً^(١) وكان المسكن يطل على الداخل حيث يحيط بفناء صغير ، وهي طريقة ظلت مألوفة في العصور الوسطى أيضاً واستمرت إلى القرن التاسع عشر .

ولقد عثر حديثاً في مدينة قرطاجة ذاتها على منازل ترجع إلى العصر الفينيقي المتأخر ويتبين من بعضها أنها بنيت على قطع مربعة من الأرض

. Donald Harden, «The Phoenicians», pp. 133—5 (١)

تحيط بها شوارع مستقيمة جيدة الرصف - وتصميم المنازل بسيط إذ تتكون من مجموعة من الحجرات المستطيلة الخالية من المبالغات الهندسية بغرض الزخرفة والجدران ، التي ما زال بعضها قائماً إلى ارتفاع متراً أو أكثر ، مبنية من الطوب أو الطمي فوق أساس من الحجر وتغطيها طبقة من القار لمنع تسرب الماء - وقد استخدمت قوالب من الحجر أحياناً بين الطوب والطمي لتنقية الجدران التي كثيراً ما كانت تغطي بطبقة من الجص كما هو واضح من آثار كثير من المباني القرطاجية .

أما عن طريقة إمداد المدينة بالماء فتقوم على خزانات إذ أن الكنعانيين منذ بداية عصر الحديد تمكنوا من تغطية خزانات الماء بطبقة من الجص تخرج على نحو يجعلها عازلة للهاء فلا يتسرّب منها - ويتقوية واتقان البناء والمادة العازلة تمكنوا من جمع مياه الأمطار وحفظها في خزانات لفترات طويلة ، وبفضل هذه الطريقة لم يحرض المهاجرون الفينيقيون دائمًا على اتخاذ مواقعهم بالقرب من عيون الماء أو مجاري الأنهار - وكانت قرطاجة تعتمد على نبع رئيسي عرف باسم «الألف وعاء» ، أقامت حوله خزانات هائلة لحفظ مياهه وتنظيم إمداد المدينة بها - واستخدم الفينيقيون فيها بعد مادة أفضل من الجص وهي السمنت الحقيقي الذي يتحمل أنهم أخذوه عن الاغريق واستخدموه بكفاءة عالية تدل عليها الخزانات الكثيرة التي عثر عليها في قرطاجة وترجع إلى السنوات الأخيرة قبل القضاء على المدينة .

ولا شك في أن المعابد كانت من أهم المباني التي وجدت في كل مدينة فينية ولكن ، مما يدعو إلى الأسف ، أن ما عثرنا عليه من بقاياها قليل لا يفيد كثيراً في تكوين فكرة كاملة عن أنماط الهندسة الفينيقية لبناء المعبد ، ولكن في استطاعتنا ان نتصور ما كانت عليه بصفة عامة من نقوش على بعض العملات التي ترجع في تاريخها إلى زمن متأخر (من العصر الروماني) وهي تمثل نماذج لمعابد وهيكل فينية ، وإن كانت هذه النقوش عادة لا تقدّنا بالتفاصيل ولا تفيينا في فهم التكوين الداخلي لأنها تصور عادة الواجهة أو المظهر الخارجي فحسب⁽¹⁾ (كما في شكل ١) وربما كان خير وصف ورد لنا عن

(1) Moscati, op. cit., fig 4, p. 48



شكل (١) عن Moscati, op.cit., fig 4, p.48

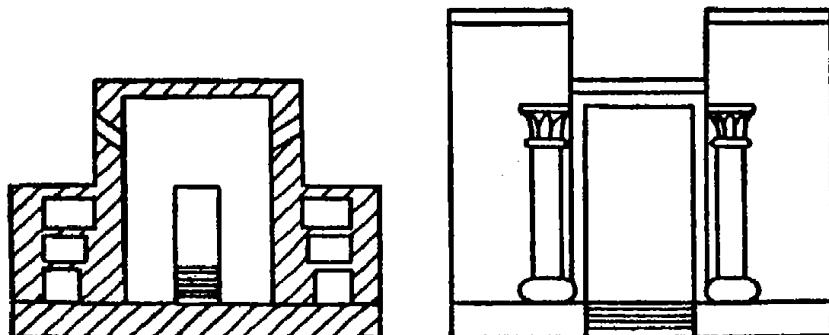
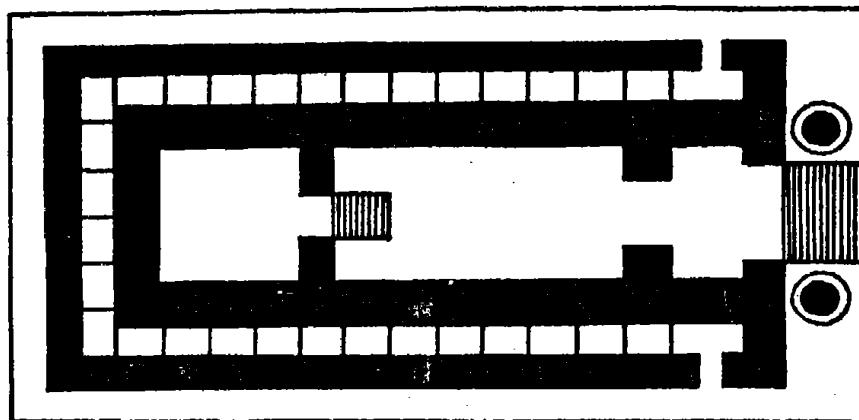
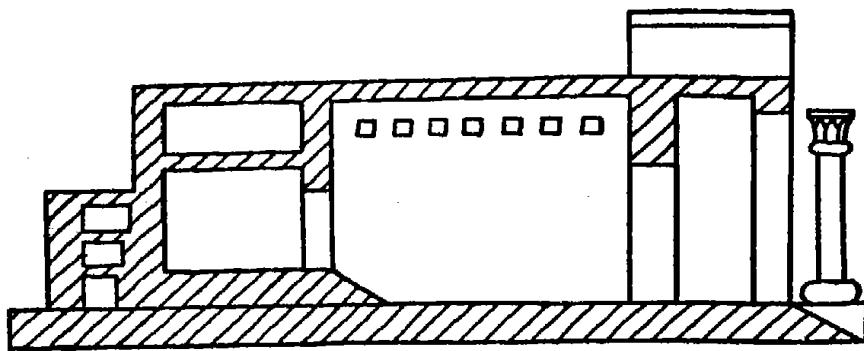
طريقة بناء المعابد الفينيقية هو الوصف التفصيلي الذي تورده التوراة لمعبد سليمان في بيت المقدس (شكل ٢) ، فمن المعروف أن الذين قاموا ببناء هذا المعبد عمال ومهندسو فينيقيون ولا بد أنهم أقاموه على نحو ما ألفوا في بناء المعابد الكبيرة في المدن الفينيقية - ويتبين من الوصف أن معبد سليمان كان يتكون من ثلاثة أجزاء أو أقسام رئيسية هي : قدس الأقداس وهو ثم ردهة للمدخل الأمامي ، وله أيضاً غرف جانبية ترتفع إلى ثلاثة طوابق ، وأمام المعبد يقف عامودان مغطيان بطبقة من البرونز . ويختلف الدارسون فيما إذا كان هذان العمودان قائمين بمفردهما أو أنهما يكونان جزءاً من بناء الواجهة .

وَمَا يُؤكِّدُ أَنَّ هَذَا النَّظَامُ فِي بَنَاءِ الْمَعَابِدِ يَتَفَقَّدُ مَعَ الطَّرَازِ الْفَيْنِيَّيِّيِّ أَنَّ
مَعْبُدًا آخَرَ عَثَرَ عَلَيْهِ فِي مَوْقِعِ حَازُورِ بَفَلَسْطِينِ يَشَتَّمِلُ أَيْضًا عَلَى هَذَا التَّقْسِيمِ
الثَّلَاثِيِّ مَعَ مَلَاحِظَةِ أَنَّ رَدَهَةَ الْمَدْخَلِ الْأَمَامِيِّ أَضَيقَ مِنَ الْأَجْزَاءِ الْأُخْرَىِ،
وَيَشَتَّمِلُ رَدَهَةَ الْمَدْخَلِ عَلَى عَمَودَيْنِ أَيْضًا بَقِيَّتْ مِنْهُمَا الْقَاعِدَتَانِ وَهُمَا مِنْ حَجَرِ
الْبَازَلْتِ. وَمَا يُؤكِّدُ ذَلِكَ الْوَصْفَ أَنَّ مَعَابِدَ عَثَرَ عَلَيْهَا فِي كُلِّ مِنْ تُرْكِيَا
وَسُورِيَا تَتَمَيِّزُ أَيْضًا بِنَفْسِ الطَّرِيقَةِ فِي التَّصْمِيمِ وَالْبَنَاءِ، وَلَا شَكَّ فِي أَنَّ مِثْلَ
هَذِهِ الْمَبَانِي وَجَدَتْ فِي جَمِيعِ الْمَدِينَاتِ الْفَيْنِيَّيِّةِ أَوْ فِي مَعْظَمِهَا عَلَى الْأَقْلَلِ.

ويكفي أن نضيف إلى ذلك أن هذه المعابد كان يحيط بها عادة فناء مكشوف - ويبدو أن العمودين في مقدمة المعبد كانوا ظاهرة مألوفة ، إذ يذكر هيرودوت أن معبد الإله ملقارب في صور اشتمل على عمودين : واحد من الذهب والأخر من الزمرد .

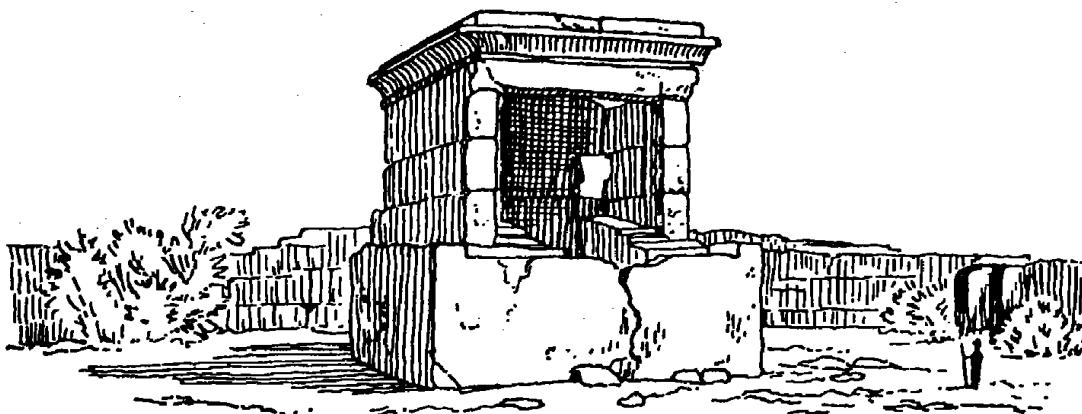
وبالإضافة إلى هذه المعابد الكبرى ، وجدت غاذج من المياكل الصغيرة ، التي كانت أبسط تكويناً وبناء ، وخير مثال لهذه هو الهيكل الذى عثر على انقاذه فى ماراتوس (عمرىت فى سوريا) وهو عبارة عن مقصورة تقوم على قاعدة مرتفعة تبلغ مساحتها خمسة أمتار مربعة . ويعلو المقصورة

Moscati, op.cit., fig. I, p. 45. : انظر (١)
 Harden, op. cit., p. 19, p.92.



شكل (٢) عن Harden, op.cit., p.92

افريز بالطريقة المصرية ويحيط بهذا البناء فناء مسور يبلغ مساحته خمسين متراً^(١) (شكل ٣) ، وإن كانت نقوش العملة التي من عصور متأخرة تدل على أن بعض المياكل لم تكن بمثيل هذه البساطة في بعضها له واجهة من الأعمدة وفي مكان ظاهر منها أقيم تمثال إله المعبد . ولعل خير مثال على ذلك هو عملة مدينة (بيلوس) جبيل التي ترجع إلى القرن الثالث الميلادي وقد رسم عليها نوع من المياكل الأكثر تعقيداً^(٢) .



شكل (٣) عن Harden, op.cit., p.93

Harden, op. cit., fig, 20, p. 93. (١)
Moscati, op. cit, fig, 2, p. 46.

(٢) انظر ص ١٠٣، ١٠٢.

ثانياً: النظم السياسية

من المعروف أن المدن الفينيقية الشرقية بقيت من الناحية السياسية مستقلة عن بعضها البعض ، وكل واحدة منها تهتم بمصالحها الذاتية المباشرة ، وحول كل منها مساحة من الأرض تكون «إمارتها أو مملكتها» . وهذه كانت عادة صغيرة الحجم ، لا تزيد عن الأرض الالزمة لانتاج الغذاء لحاجة السكان . ولا بد أن المدن الكبرى ، وخاصة صور وصيدا ، مارست نوعاً من السيادة على مدن أخرى في بعض الأوقات على الأقل .

وما لا شك فيه أن المدن الفينيقية لم تتحد فيما بينها كما أن الفينيقين لم يتظروا إلى مرحلة تكوين دولة فينيقية موحدة تضم العناصر الفينيقية كما يتضح ذلك مما ذكره هيروودوت من أنه وجد ثلاث رؤساء للأسطول الفينيقي في أسطول أجزركسيس الفارسي أثناء حملته على اليونان سنة ٤٨٠ ق . م . وهم « تيترا منيستوس Tetramnestos » الصيدوني « وماتان Mattan » الصوري و « مار بالوس Marbalos » الاروادي فلو أنه كان هناك اتحاد فينيقي وكانت مجموعة السفن الفينيقية تحت قيادة موحدة .

ولم تكون مدينة قرطاجنة دولة امبراطورية بمعنى الكلمة مع أنها أخضعت لسلطانها أكثر المدن الفينيقية الأخرى في الغرب نظراً لتفوقها التجاري وال العسكري ، فهي لم تنظر إلى هذه المدن على اعتبار أنها ممتلكات لها ، ولم تعتبر مواطني هذه المدن مواطنين قرطاجيين - ومن جهة أخرى فإن هذه المدن أصدرت عملتها المستقلة عن عملة قرطاجنة كما هو الحال في مدن صقلية

الفينيقية وفي «قادس» باسبانيا «وايبيزا» بالبليار حتى في أوج سلطان قرطاجة . ولدينا نقش من جزيرة مالطة يدل على أن هذه الجزيرة كان لها كيان سياسي مستقل ، يحكمها حاكمان (Suffetes) ومجلس شيوخ ومجلس شعبي كما كان لقرطاجة تماماً ، كما وردت إشارات من مصادر أخرى عن وجود «سوفيتيس» في مدن أخرى مثل «ثاروس» «قادس»، ومن ناحية أخرى كان لهذه المدن أسوارها وحصونها الأساسية للدفاع عنها ولكن لم يكن لها إلا في حالات نادرة جيش وأسطول ، ويبدو أنها اعتمدت أساساً على قرطاجة لتسريع إليها في وقت الضرورة إذا ما اعتدى عليها معتمد ، وتتبين هذه الحقيقة مما ذكره المؤرخ توكيكيدس^(١) فيما يختص بعلاقة المستعمرات الفينيقية في صقلية حيث أشار إلى أنها تركزت بالقرب من قرطاجة التي كانت تقوم بدور الحامية والزعيم لها .

أما عن مدينة قرطاجة ذاتها ، فكانت مثل غيرها ، تسيطر على مساحة من الأرض الزراعية التي تحيط بها ويسميها الرومان (Territorium) (أي إقليم أو ولاية) ، وفي القرن الخامس امتدت مساحة هذه الأرض حتى شملت مساحة كبيرة من شمال شرق تونس بما فيها من بعض المدن الصغيرة الأخرى التي كانت مستقلة من قبل .

وفي بعض المراحل كانت هذه المساحة من الأرض محاطة بخندق ، وبهمنا أن نعرف حدود هذا الخندق لأنها تمثل الحدود السياسية للدولة قرطاجة في أعقاب الحرب البونية الثانية أي سنة ٢٠١ ق.م. ، على أن امتلاك قرطاجة مثل هذه المساحة من الأرض لم يجعلها من مدينة إلى دولة ولكنه هيأ لها مساحة كبيرة من الأرض الزراعية كافية لإعاشة جميع سكانها على نحو يحميهم من المجاعة في حالة انقطاعهم عن العالم الخارجي بسبب ظروف الحروب المختلفة - ومع ذلك يبدو أن قرطاجة مارست الحكم المباشر خارج حدود أرضها في جزيرة سردينيا وفي إسبانيا فقط ، فنحن نعرف أنها ضمت إليها

(١) مؤرخ وفيلسوف عاش في الفترة (٤٧١ - ٤٠٠ ق.م). تقريباً وقد اشتراك في حرب البلويينز في بدايتها انظر فيها سبق ص ٦٣.

سهول المناطق الجنوبية والغربية في سردينيا في شكل ولاية وأنها نقلت إليها أهالي من أفريقيا لزراعة الأرض هناك وأنها أبعدت التجار الأجانب من منطقة نفوذها ، وقد أصرت قرطاجة على أن تزرع الأرض الخصبة بالغالل كما أنها أحسنت استغلال المناجم فيها استغلاً مجزياً من الناحية الاقتصادية وخاصة مناجم الرصاص والفضة .

وبعد الحرب البونية الأولى حدث شيء شبيه بذلك في إسبانيا نتيجة لغزوـات «هاميلكار» «وهـسـلـروـ بـعل» «وهـانـيـعـل» - ومن العـسـيرـ عـلـيـنـاـ أنـ نـحـدـدـ مـسـاحـةـ الـمـنـاطـقـ الـقـرـطـاجـيـةـ فـيـ إـسـبـانـيـاـ ،ـ وـلـكـنـ لـاـ بـدـ وـأـنـهـ كـانـتـ مـتـرـامـيـةـ جـداـ وـنـعـرـفـ أـنـهـ بـنـاءـ عـلـىـ اـتـفـاقـيـةـ بـيـنـ «ـهـسـلـروـ بـعلـ» وـرـوـمـاـ سـنـةـ ٢٢٨ـ قـ.ـمـ .ـ بـسـطـتـ نـفـوذـهـ فـيـهـ إـلـىـ نـهـرـ «ـإـبـرـوـ» وـأـنـ هـذـهـ الـمـسـاحـةـ الشـاسـعـةـ كـانـتـ تـحـكـمـ وـقـدـارـ مـنـ قـرـطـاجـةـ وـأـنـهـ كـانـتـ تـدـفـعـ الـجـزـيـةـ لـهـاـ ،ـ وـقـدـهـاـ فـيـ وـقـتـ الـحـرـبـ بـالـأـمـدـادـاتـ الـعـسـكـرـيـةـ وـالـمـعـونـةـ وـالـمـؤـنـ شـائـنـهـاـ فـيـ ذـلـكـ شـائـنـ الـأـرـاضـيـ التـابـعـةـ لـقـرـطـاجـةـ فـيـ أـفـرـيـقـيـاـ -ـ وـيمـكـنـنـاـ أـنـ تـصـورـ أـنـ سـلـطـانـ قـرـطـاجـةـ فـيـ غـيرـ هـاتـينـ الـمـنـطـقـتـيـنـ فـيـ الـغـربـ كـانـ يـتـشـرـ بـطـرـيقـ غـيرـ مـبـاشـرـ ،ـ وـمـعـ ذـلـكـ فـلـاـ بـدـ أـنـهـ تـمـتـعـتـ بـسـلـطـانـ أـدـبـيـ كـبـيرـ فـيـ جـمـيعـ الـمـدـنـ الـفـيـنـيـقـيـةـ فـيـ غـربـ الـبـحـرـ الـأـيـضـ الـمـتوـسـطـ طـوـالـ فـرـةـ قـوـتهاـ وـسـيـادـتهاـ الـتـجـارـيـةـ وـالـعـسـكـرـيـةـ ،ـ أـيـ قـبـلـ أـنـ تـحـطمـ قـوـتهاـ أـمـامـ رـوـماـ ،ـ وـلـمـ تـجـرـؤـ مـدـيـنـةـ وـاحـدـةـ مـنـهـاـ عـلـىـ مـعـارـضـةـ سـيـاسـةـ أـوـأـعـمـالـ قـرـطـاجـةـ ،ـ وـلـكـنـ بـاـنـ هـذـاـ النـفـوذـ وـهـذـاـ السـلـطـانـ كـانـ ذـاـ طـابـعـ أـدـبـيـ بـحـثـ وـلـاـ تـسـنـدـهـ حـامـيـةـ عـسـكـرـيـةـ وـلـاـ وـسـائـلـ التـحـكـمـ السـيـاسـيـةـ الـمـخـتـلـفـةـ فـإـنـ الـأـمـبـرـاطـورـيـةـ الـقـرـطـاجـيـةـ لـمـ تـكـسـبـ صـفـةـ الـاـرـتـبـاطـ وـالـانـدـمـاجـ الـوـثـيقـ ،ـ وـسـرـعـانـ مـاـ تـفـكـكـتـ وـانـفـرـطـ عـقـدـهـاـ حـيـنـيـاـ حـلـتـ بـهـ أـيـامـ الـضـعـفـ وـالـهـزـيـةـ .ـ

هـذـاـ مـنـ حـيـثـ شـكـلـ الـدـوـلـةـ فـيـ الـمـدـنـ الـفـيـنـيـقـيـةـ سـوـاءـ فـيـ الـشـرـقـ أـوـ فـيـ الـغـربـ وـمـدـىـ توـسـعـهـاـ وـنـفـوذـهـاـ -ـ أـمـاـ عـنـ نـظـامـ الـحـكـمـ فـيـجـبـ أـنـ نـذـكـرـ أـنـ سـكـانـ هـذـهـ المـدـنـ باـعـتـبـارـهـمـ كـنـعـانـيـنـ أـصـلـاـ ،ـ فـهـمـ مـنـ الـعـنـصـرـ السـامـيـ ،ـ الـذـيـ كـانـتـ الـبـداـوـةـ مـنـ صـفـاتـهـ وـكـانـ يـخـضـعـ لـنـظـامـ الـقـبـيلـةـ فـيـ أـوـلـ الـأـمـرـ .ـ وـنـحنـ نـعـرـفـ أـنـ الـنـظـامـ الـاـسـاسـيـ لـلـقـبـيلـةـ السـامـيـ يـتـلـخـصـ فـيـ وـجـودـ رـئـيـسـ أوـشـيخـ لـلـقـبـيلـةـ

يختار من بين الأسر العريقة القوية التي تنقسم إليها القبيلة ، وكثيراً ما تتحضر الرياسة في أسرة معينة بعض الوقت حين يعظم شأنها ، وإلى جانب رئيس القبيلة هناك عادة مجلس من شيوخها ورؤساء عشائرها الذين هم أصحاب الرأي في القبيلة ، ثم هناك كذلك مجلس عام لرجال القبيلة - هذا النظام القبلي المعروف بين القبائل السامية عرفه كذلك الكنعانيون ، ولا بد أن سكان المدن الساحلية مروا أيضاً بهذه المرحلة في فترة تاريخهم الأولى ، ولكنهم بعد أن استقروا في المدن أخذوا نظاماً سياسياً متطوراً عن النظام القبلي حيث أصبح منصب ملك المدينة بديلاً عن منصب رئيس القبيلة ، ويبدأ هذا النظام الملكي يظهر في الوثائق التاريخية ابتداءً من القرن الرابع عشر قبل الميلاد ، كما هو واضح من رسائل تل العمارنة التي تشير بصورة دائمة إلى وجود ملوك أو أمراء على رأس هذه المدن ، أما قبل ذلك فإن قصة سنوحي الذي عاش في القرن العشرين قبل الميلاد تدلنا على أن المنطقة التي اتصل بها كانت لا تزال في مرحلة أقرب إلى البداوة ويسودها النظام القبلي .

ويتضح من قراءة الوثائق المصرية والأشورية أن النظام الملكي الذي ساد في مدن الساحل الفينيقي ابتداءً من القرن الرابع قبل الميلاد كان وراثياً من حيث المبدأ ولو أنه لم يكن كذلك دائمًا في الواقع بسبب التطورات والأحداث الطارئة سواء بفعل ظروف داخلية أو خارجية ، وباستطاعتنا أن نصوغ قوائم بأسماء بعض الملوك لعدد من المدن وإن كانت لا تخلو من فجوات ، ومن هؤلاء الملوك «حيرام» العظيم ملك صور وأسرته ، «ولولي» (Luli) ملك صيدا وصور وغيرها - ولا تتحضر معرفتنا عنهم في مجرد أسمائهم بل لدينا معلومات تاريخية وافرة عنهم بفضل ما خلفوه من نقوش وعن طريق مصادر أخرى ، فقد ورد ذكرهم في التوراة وفي السجلات الأشورية وفي كتابات مؤرخي الاغريق والرومان المتأخرین - ومن جهة أخرى نجد ما يشير إلى تأسيس أسر مالكة في بعض المدن ولكن لا نعرف شيئاً يذكر عن ملوكها - فلا شك في أن «اليسا» (Elissa) (والتي تسمى أيضاً لدى اللاتين ديدو) قد أنشأت عند هجرتها إلى قرطاجة أسرة ملكية ولكن ليس لدينا سجل بحكام هذه الأسرة - أما الأسرة الملكية التي وجدت بقرطاجة بعد ذلك بأعوام كثيرة فإننا نعرف أن من بين ملوكها «هاميلكار»

الذي غزا صقلية سنة ٤٨٠ ق. م. وكذلك المكتشف حنون^(١) فكل منها أطلق عليه لقب ملك.

ولكن ينبغي أن نذكر دائمًا أن سلطان الملك في المدن الفينيقية كان يحد منه مجلس الشيوخ . وهو في واقع الأمر تطور لمجلس شيخ القبيلة . ولكن في المدن الفينيقية كان يؤلف من أكثر التجار ثراء في المدينة . وهذا النظام ذاته أي سيادة طبقة من الأغنياء وجد أيضًا في قرطاجة ولعله ظاهرة طبيعية في دولة تعتمد في مواردها الرئيسية على التجارة ، فالطابع التجاري غالب على جميع مظاهر الحياة في المدن الفينيقية سواء في الشرق أو في الغرب - ولقد ألت نصوص رأس شمراً ضوءاً جديداً على هذه الناحية حيث أشارت إلى وجود وكالات للأقمشة المصبوغة باللون القرمزي وذكرت أصناف الحرف المختلفة الموجودة بالمدينة ، ولكل من هذه رؤساء يديرون أمورها ويشرفون عليها ويسمى الواحد منهم « رب الحرفة » أو رئيس محترفيها - وعلى هذا الأساس نفسه كان رؤساء القوافل من أعظم الشخصيات عند أهل تدمر الذين كانوا شعباً تجاريًا كالفينيقيين ولكنهم تخصصوا في الطرق البرية - ويرور الزمن ونشاط التجارة وانتشار حركة الاستعمار الفينيقي ازدادت الأسر التجارية الكبرى ثراء من ناحية وقوة وسلطاناً من ناحية أخرى وانعكس ذلك كله في مجلس الشيوخ حيث وصل الكثيرون منهم إلى عضويته فإذا به يصبح هيئة لها خطورتها في توجيه السياسة ويقاد يساوي سلطة الملك نفسه ، فكان في مقدور أعضاء مجلس الشيوخ في مدينة صور مثلاً أن يتخذوا قراراً في غيبة الملك ، وفي مدينة صيدا كان في استطاعتهم متى شاءوا أن يتخذوا قرارات ضد قرارات الملك - وكان عدد أعضاء مجلس الشيوخ في صيدا مائة عضو ، كما ورد في التوراة ذكر لوجود مجلس الشيوخ في مدينة جبيل أيضًا ولكنه لم يذكر عدد أعضائه^(٢).

هذا التطور الذي طرأ على مجلس الشيوخ في مطلع الألف الأول قبل الميلاد

(١) انظر فيها بعد ص ١٢٢-١٢٦.

(٢) حرقايل ٩/٢٧.

بلغ مداه بعد ذلك، وحدث تطور سياسي على نحو ما حدث في المدن اليونانية أيضاً إذ استطاع رؤساء الأسر الثرية من يمثلون الارستقراطية في المدن الفينيقية من أن يستولوا على الحكم وأن يتخلصوا من النظام الملكي .

وهكذا قامت في المدن الفينيقية حكومات الأقلية أو الاوليجاركية وكما حدث في المدن اليونانية وفي روما بعد خلع الملوك ، أصبح مجلس الشيوخ هو الهيئة الرئيسية في البناء السياسي للدولة ، ولكننا لا نعرف على وجه التحديد متى حدث هذا التحول من الملكية الى الجمهورية الاوليجاركية وإن كان من المرجح أنه حدث بين القرنين السادس والخامس قبل الميلاد - ومن المرجح أيضاً أن هذا التحول حدث في مدينة قرطاجة في القرن الخامس ق . م . ، وأصبح النظام العام للحكومة يقوم على ثلاثة أركان هي : حاكم أو أكثر يت منتخب لمدة سنة وإلى جانبه مجلس للشيوخ ثم مجلس للعامة .

ثالثاً: النشاط الاقتصادي

(أ) الصناعة :

ما من شك في أن الكنعانيين تحولوا في أول الأمر من البداوة إلى قوم زراعة ، وتدل على ذلك عقائدهم الدينية ، كما صورتها نصوص رأس شمرا ، ولكن حين استقرت جماعة منهم على الساحل في المنطقة الواقعة بين الجبل والبحر ، نجد أنها اتجهت إلى الاستفادة من البحر من ناحية ومن الغابات القريبة من ناحية أخرى ، وسرعان ما تمكنوا من بناء السفن ، كما ألفوا البحر والتجارة ، وبصفة خاصة مع مصر ، منذ عصور سحرية كما أشرنا إلى ذلك عند الحديث عن تاريخ جبيل^(١) كما أن ضيق السهل الساحلي الصالح للزراعة فرض عليهم أن يعواضوا نقص انتاجهم المحلي بالاستيراد ، سواء من مصر أم من بلاد النهرین ولكن حين ازداد نشاطهم التجاري ، وجدوا أنهم في حاجة إلى إماء . صناعات محلية تدعم هذه التجارة وتقوئها ، وهكذا أخذت تنمو صناعات محلية تعتمد أولاً على المواد الخام المتوفرة محلياً سواء من الأرض أو من البحر ، ولكن سرعان ما وجدوا أن المواد الخام المحلية غير كافية فاستوردوا مواد أخرى من الخارج وصنعوها في مدنهم حتى أجادوا صناعات معينة واشتهروا بها ، مثل السفن من أخشابهم والمنسوجات التي استخدموها فيها انتاج محلي من أرضهم أو من الصسان ، وزادوا على ذلك الكتان من مصر والصوف من بلاد النهرین .

واشتهرت منسوجاتهم بنوع معين من الصبغة كانوا يستخلصونه من

(١) انظر ص ٢٩ وما بعدها.

بعض الأصداف والواقع البحري - وإلى جانب هذه الصناعات الكبيرة مارسوا أيضا صناعات دقيقة من مواد مستوردة مثل العاج والمعادن والأحجار الكريمة للمجوهرات وأفادوا من تصدير هذه المنتجات كلها .

وحين انتقل بعض الفينيقيين إلى الغرب نقلوا معهم ما اكتسبوه من خبرة وتجربة في أوجه النشاط الاقتصادي وعملوا على ازدهارها حسب ظروف البيئة الجديدة . ففي شمال أفريقيا وهي أكثر المناطق الغربية معرفة لنا - وجدنا القرطاجيين يفيدون كثيرا من خصب التربة في منطقة تونس الحالية . وظهرت المواهب الكنعانية الموروثة من جديد ، وتقدمت الزراعة وتربية الحيوان تقدما عظيما . وظهر بينهم خبراء ، مثل «ماجو»، يؤلفون الكتب في تربية الحيوان والزراعة - وعن هؤلاء الخبراء القرطاجيين أخذ الرومان وترجموا معلوماتهم كما فعل «فارو» و«كولوميلا»^(١) . وإلى جانب الزراعة ، لابد أن بناء السفن كان من أهم الصناعات في قرطاجة ، هذا إلى جانب صناعات أخرى مثل الفخار والنسيج .

ولم يقتصر الفينيقيون على مجرد تصدير الأخشاب بل صنعوا منها المراكب الممتازة ومن أشهرها وأقدمها المراكب المسماة «سفن جبيل»، ولم يقتصر استخدام الأخشاب في صناعة السفن بل تفوق الفينيقيون في الصناعات الخشبية المختلفة ، وما يذكر أن قدس الاقdas في معبد سليمان كانت تغطي جدرانه بأخشاب الأرض ، كما بني سقفه من نفس الخشب أيضا ، ولكن من سوء الحظ لم نعثر بعد على آثار خشبية في بقايا المدن الفينيقية المختلفة لتبيّن لنا ما اشتهر به الفينيقي القديم من تفوقه في الصناعات الخشبية المختلفة .

صناعة النسيج :

وتكتسب أهميتها الفريدة بسبب الصبغة التي اشتهر بها الفينيقيون ، ومن

(١) ماجو عاش في وقت الحروب البونية تقريبا وهو كاتب قرطاجي كتب عن الزراعة - أما فارو(Varro) وكولوميلا (Columella) فمن الرومان الذين نقلوا عنه وأوكلوا عاليا بين ١١٦، ٢٨ ق.م. والثاني عاش في القرن الأول الميلادي .

سوء الحظ أننا لم نعثر حتى الآن على أي قطعة من النسيج الفينيقي حتى في مصر التي عثر فيها على قطع من النسيج من أنواع وعصور مختلفة ، ولكن هناك إشارات مختلفة في بعض المصادر القديمة تعطينا فكرة عامة عن بعض أوصاف هذه المنسوجات الفينيقية ومن ذلك الأرواب المتعددة الألوان التي اشتهر بصناعتها أهل صيدا بالذات ووردت إشارات عنها في شعر هوميروس ، كما أن النقوش والمناظر الأثرية المتعلقة بتاريخ الشرق الأدنى قدماً تبين لنا أنه بينما كان يغلب في ثياب المصريين الأردية البيضاء الخفيفة ذات الكسرات المتعددة ، كانت تغلب في ملابس الفينيقيين الثياب المزركشة المطرزة ذات الألوان العديدة التي كانت أكثر شبهاً بملابس الأشورية ، ومع ذلك فقد كانت الملابس الدينية للكهنة الفينيقيين أميل للأسلوب المصري بصفة عامة .

أما عن صناعة الأصباغ فقد كانت شائعة في جميع المواطن التي استقر فيها الفينيقيون ، ومن أشهرها بطبيعة الحال صور وصيدا - ويبدو أن الفينيقيين قد احتكروا هذه الصناعة ولكن الأصداف التي استخدموها لهذا الغرض قد اختفت تقريباً الآن من شواطئ الفينيقيين في الشرق ، وربما كان ذلك من جراء كثرة استغلالهم لها قدماً - وقد عثر على كميات من هذه الأصداف في بعض الواقع الأثري الذي تم التنقيب فيها حديثاً مثل رأس شمرا على الساحل السوري ، وكذلك في موقع آخر على ساحل شمال أفريقيا مما يثبت قيام هذه الصناعة في المستعمرات الفينيقية أيضاً .

والنظرية التي أقيمت عليها صناعة الصبغة في المدن الفينيقية هي أن بعض الأصداف البحرية بعد أن تموت وتتعفن الكائنات بداخلها يتكون فيها سائل أصفر اللون من خصائصه أن يعطي حسب قوة تركيزه - مجموعة من الألوان تدرج بين اللون الوردي والأرجواني القاتم ، ومن أجل الحصول على الألوان القاتمة ، كان لا بد من تعريض الصبغة لضوء الشمس لمدة كافية - وكانت الطريقة المتبعة في الصناعة هو تكسير الأصداف وخارج الحيوان الذي بداخلها ووضعه في أحواض حيث تسيل منه الصبغة ، ويبدو أن معامل هذه الصبغة كانت تقام عادة في موقع جانبي من المدينة غير مواجه لهبوب الرياح لأن الرائحة الناتجة عنه كانت كريهة جداً .

وليس من اليسير أن نتحدث في إفاضة عن أنواع الصناعات المختلفة التي عرفتها المدن الفينيقية القديمة ولكن يكفي أن نشير إلى أنهم مارسوا صناعة المعادن مثل البرنز الذي استوردوه من قبرص ومثل الفضة والذهب اللذين حصلوا عليهما من إثيوبيا^(١)، ثم هناك صناعة الفخار الذي بقيت آثار منه في الواقع الفينيقية المختلفة، وأخيراً صناعة الزجاج والعاج - وإنما إنتاج الفخار بالذات كان يخدم دائماً غرضين في وقت واحد، الأول هو الوفاء بحاجة السوق المحلية ليقللوا من كمية الاستيراد من دول أخرى مثل مصر، التي كانوا يفضلون أن يستوردوا منها المواد الغذائية ، أما الغرض الثاني فهو خدمة تجارة التصدير التي احتاجت إلى كثير من الأوعية - وكانت الأواني الفخارية خير أوعية لنقل الزيوت والخمور التي كانوا يصنعونها من منتجات الزيتون والكرم .

(ب) التجارة والاكتشافات الجغرافية :

أ - التجارة : اشتهرت منطقة جنوب غرب آسيا المحصورة بين النيل وبلاط النهرين بأيتها منطقة التقاء الحضارات القديمة التي ظهرت في هذا الجزء من العالم ، وقد تأثر سكان هذه المنطقة بطبيعة موقعهم فأفادوا كثيراً من النقل التجاري بين الدول الكبرى القديمة مثل مصر وبلاط النهرين وبلاد اليونان ، وقد تخصص سكان المدن السورية الداخلية في النقل البري واحتكروا القوافل التجارية الكبرى التي جلبت المنتجات الآسيوية والأفريقية المختلفة إلى البحر الأبيض المتوسط - أما سكان المدن الساحلية فإنهم، بحكم موقعهم على ساحل البحر ، اتخذوا طريق النقل البحري مجالاً لنشاطهم التجاري منذ أقدم العصور - وقد مارست إحدى هذه المدن وهي جبيل التبادل التجاري مع مصر منذ الالف الثالث قبل الميلاد - واستمر سكان هذه المنطقة منذ هذا التاريخ المبكر في ممارسة هذا النوع من النشاط الاقتصادي حتى عصر

Harden, op, cit, p, 146. (١)

ازدهارهم وتفوقهم في الألف لأول قبل الميلاد ، وبالرغم من أن هذه المدن في أكثر فترات تاريخها كانت خاضعة سياسيا لسلطان مصر أو لسلطان غيرها مثل الأشوريين والبابليين والفرس إلا أن هذه الدول عموما لم تقف ابدا في سبيل حرية التجارة والنقل الفينيقي لما فيه من مصلحة للدول صاحبة السلطان - وبالرغم من ذلك فقد ظل نشاط المدن الفينيقية البحري محصورا في شرقى البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر ولم تتمكن من التوغل في البحر المتوسط والوصول إلى مناطق نائية في الغرب إلا بعد سقوط الحضارة الميكينية في بلاد اليونان إثر هجمات المتبربرين من الدوريين حوالي القرن الثاني عشر قبل الميلاد.

ويبدو أن الفينيقيين حين اتجهوا بقواربهم إلى الجزء الغربي من البحر الأبيض المتوسط ، لم يتوجهوا إليه في أول الأمر بغرض الاستعمار والاستيطان ، وإنما بغرض التجارة لأن كل ما نعرفه عن تاريخ الفينيقيين حتى قيام حركة الاستعمار يدل على أنهم لم يألفوا الهجرة قبل ذلك بالرغم من امتداد تجارتهم إلى كثير من البلاد ، فنحن نعرف مما تذكره التوراة أن سفنهم لم تقتصر على سواحل البحر الأبيض المتوسط الشرقية وإنما اتخذوا لهم أسطولاً في البحر الأحمر أيضاً وجلبوا من المناطق المطلة عليه الذهب والجاج بكميات كبيرة^(١).

أما في البحر الأبيض المتوسط فإن بعض المصادر اليونانية أشارت إلى نشاطهم الجم فيه حيث ورد في الإلياذة أن مباريات أقيمت في الاحتفال بجنائز أحد أبطال اليونان ويدعى (بتروكلوس) وكانت الجائزة فيها إناء من الفضة صنع في صيدا ، وفي الأوديسة يذكر «أوديسيوس»^(٢) أنه أثناء تنقلاته و Ventures وقع في يد أحد التجار الفينيقيين الذي يصفه بأنه متمرس في الخديعة ، موصوف بالجشع والمكر ، آذى كثيرا من الناس وأنه (أي أوديسيوس) بقي في فينيقيا سنة وبعد ذلك نقل مرة أخرى في مركب تجاري فينيقي ميممة شطر ليبيا^(٣)- هذا الأسلوب الذي استخدمه أوديسيوس في وصف التاجر

(١) ملوك ٢٢/١٠ ، الأيام ١٧/٨ ، ١٧/٩ .

(٢) ملك إيثاكا في حرب طروادة كما ترويها الأوديسة .

(٣) Harden. op-cit, pp, 160-161

الفينيقي يكشف عن أثر المنافسة التجارية العنيفة التي كانت قائمة بين الفينيقيين والأغريق من حقد كل من الطرفين ضد الآخر وهي المنافسة التي يرى المؤرخ هيرودوت أنها السبب الحقيقي لقيام الحروب الفارسية في مطلع القرن الخامس ق.م. - كما أنه يذكر في مطلع تاريخه أن الفينيقيين بعد أن استقروا على الساحل الفينيقي نظموا رحلات تجارية كبيرة ، فكانوا يأتون بسفنهم إلى المدن اليونانية مثل «أرجوس» محملة بالبضائع المصرية والأشورية - وبعد أن يفرغوا من بيع ما لديهم من بضائع كانوا يخطفون بعض النساء الأغريقيات ويغدون بهن^(١) .

ولكن هذا الاتصال التجاري المباشر بين المدن الفينيقية والمدن اليونانية توقف في أعقاب النهضة اليونانية في القرن الثامن ق. م. ثم بدأت منافسة اليونان القوية لقرطاجة في مجال الاستعمار حتى أصبحت حركة الاستعمار اليونياني في غرب البحر الأبيض المتوسط تشكل خطراً على المستعمرات الفينيقية في تلك المنطقة - وبالرغم من قيام تبادل تجاري بين الجانبين في جزيرة صقلية فإن المنافسة والغيرة كانت تمثل الشعور المتتبادل بينها ، وسرعان ما تحولت إلى حروب طاحنة في القرن الخامس ق.م. من أجل السيادة في صقلية ، أما في إسبانيا فكانت الغلبة لقرطاجيين.

ويبدو أن هذه المنافسة بين الفينيقيين والأغريق أو بين الآسيويين والأوروبيين ، كما يعبر عنها هيرودوت ، قد أدت إلى تقسيم مناطق البحر الأبيض المتوسط إلى منطقتي نفوذ واستمر ذلك حتى فتوحات الاسكندر الأكبر في الشرق ، ومن المحتمل أن الاسكندر كان ينوي مهاجمة قرطاجة للقضاء على نفوذها ولكن موته المبكر انقضها سياسياً ، كما أنها من الناحية التجارية قد أفادت في العصر الهلنستي من إعادة فتح طرق التجارة المباشرة مع اليونان - وما يؤكد قيام هذه العلاقة التجارية المباشرة بين قرطاجة واليونان موضوع مسرحية لاتينية تسمى «Poenulus» كتبها الشاعر «بلوتوس Plautus»^(٢) في مطلع القرن الثاني ق.م. ولكن من المعتقد أنه نقلها

(١) Harden, op-cit. , p. 161 .

(٢) ولد سنة ٢٥٤ ق.م. وعاش حتى سنة ١٨٤ ق.م. وهو كاتب مسرحي اشتهر بالكوميديا.

أو حاكي فيها مسرحية يونانية من مطلع القرن الثالث قبل الميلاد تسمى «القرطاجي» ، وتدور حول تاجر قرطاجي يسمى «حنون» كان يتاجر في الأطفال ، وهي تجارة نسبها هوميروس للفينيقيين من قبل - وتدل النقوش الكتابية التي عثر عليها في بلاد اليونان وترجع إلى القرن الرابع ق.م. وما بعده والتي خلفها فينيقيون أو قرطاجيون على وجود علاقات تجارية منتظمة بين اليونان والمدن الفينيقية الشرقية والغربية في العصر المهمليني^(١).

ولم يقتصر الفينيقيون في تجارتهم على تصدير المواد الخام مثل الأخشاب من جبل لبنان ، أو المعادن من أقصى الغرب ، أو أصبعائهم الأرجوانية المشهورة ولكنهم تاجروا أيضاً ، كما سبق ان ذكرنا ، فيما كانت تتجه صناعاتهم من منسوجات دقيقة ، وأواني ومصنوعات معدنية ومصنوعات من مواد خام أخرى^(٢) ، هذا الى جانب نقل المصنوعات والمنتجات المصرية والأغريقية. فقد عثر في قرطاجة على تماثيل وحللى مصرية في كميات كبيرة ترجع الى القرنين السابع والسادس قبل الميلاد وخاصة من عصر الأسرة السادسة والعشرين المصرية ولكنها تقل بعد ذلك وتحل محلها أنواع أخرى هي تقليد فينيقي للمصنوعات المصرية.

أما فيما يتعلق بالسلع اليونانية ، فإنها تمثل مشكلة من نوع آخر ، فقد سبق أن ذكرنا أن التجارة المباشرة بين المدن الفينيقية والعالم اليوناني توقفت بعد نهضة اليونان في القرن الثامن ق.م. بينما كانت تجارة المدن اليونانية وبصفة خاصة مدينة «كورنث» تأتي بكثير من السلع اليونانية إلى المستعمرات اليونانية في جنوب ايطاليا ومنها إلى سائر أنحاء شبه الجزيرة الايطالية . وكان الأتروريون ، الذين كانت لهم السيادة السياسية والحضارية قبل قيام روما ويحتلون إقليم أتروريا الواقع في شمالي «لاتيوم» الذي تقع فيه روما ، يقبلون عليها كما دلت على ذلك الحفائر الحديثة ، ومن جهة أخرى وصلت إلى نفس الإقليم «اتروريا» منتجات فينيقية مثل الزجاج والأواني المعدنية المنقوشة

(١) Harden, op-cit., p. 162

(٢) انظر ص ١١٣ وما بعدها.

وال Leigh والخلال ابتداء من القرن السابع ق.م. ويتبين من ذلك أن كلاً من فينيقيا واليونان تاجرت مع إيطاليا .

ومنذ نهاية القرن السابع ق.م. نجد أن فخاراً ومصنوعات برونزية إغريقية وإتروورية قد وجدت طريقها إلى المستعمرات الفينيقية في غرب البحر الأبيض المتوسط بما فيها قرطاجة حيث عثر على كميات كبيرة من هذه المصنوعات في المقابر القرطاجية ، وما من شك في أن سيطرة إتروريا على المنطقة الغنية بالمعادن في إيطاليا قد أدت إلى أن تصبح المصنوعات المعدنية أو المعادن الخام جزءاً من هذه التجارة ، ولا يمكن الجزم هل كان الأتروزيون أو التجار الفينيقيون هم الذين قاموا بهذه التجارة؟ ولكننا كذلك نستبعد أن يكون الإغريق هم الذين قاموا بها حيث أن كلاً من إتروريا وقرطاجة أمة بحرية قوية تعاونتا معاً من أجل وقف المستعمرات الإغريقية في مناطق نفوذهما ، ومع ذلك فإن هذا التعاون لم يمنع القرطاجيين من أن يقاوموا انتشار النفوذ الإتروسي في إسبانيا أو ما وراء ذلك في المحيط الأطلسي .

ولم تقتصر علاقات قرطاجة بإيطاليا على إتروريا فنحن نعرف أن روما في العام الأول من تاريخها الجمهوري ، أي سنة 509 ق.م. عقدت معاهدة مع قرطاجة ، وعقد هذه المعاهدة يدل على وجود مصالح لقرطاجة في وسط إيطاليا ، فحسب بنود هذه المعاهدة التي حددت مناطق النفوذ التجاري للجانبين نجد أن قرطاجة تتعهد بـ«ألا تتعرض للمدن اللاتينية التي نصت عليها المعاهدة ، سواء كانت تابعة لروما أو مستقلة عنها ، وألا تقيم حصنًا في إقليم لاتيوم» - وبالرغم من أن بعض الدارسين يشكك في قيمة هذه الاتفاقيه من الناحية التاريخية إلا أنها تدل من غير شك على أن القرطاجيين كانوا قد أفسدوا الذهاب إلى أقاليم وسط إيطاليا ، وعلى ذلك فيحتمل أن السفن الإتروسية والقرطاجية معاً هي التي نقلت الأشياء اليونانية والإتروسية التي عثر عليها في قرطاجة والمستعمرات الأخرى الغربية وأن إيطاليا كانت السبيل الأساسي ولعله الوحيد الذي حصلت بواسطته قرطاجة على المستورادات اليونانية ، وهذا يفسر أنه حينما اضمحلت إتروريا واشتد العداء بين قرطاجة والإغريق أثناء

القرنين الخامس والرابع ق.م. توقف ورود المصنوعات الأثينية واليونانية إلى قرطاجة في حين أنها استمرت تتدفق على إيطاليا ، فالملاحة السياسية أثناء هذين القرنين في الواقع هي التي أدت إلى عدم قيام اتصال مباشر بين القرطاجيين والإغريق .

ولم يقتصر الفينيقيون في علاقاتهم التجارية مع الشعوب المتحضرة على شعوب البحر الأبيض المتوسط أو على جيرانهم الآسيوين ، وإنما ذهبوا إلى ميادين أخرى في الجنوب عن طريق البحر الأحمر كما سبق أن أشرنا^(١) أو عن طريق قوافل الصحراء الكبرى أو المحيط الأطلسي كما فعل القرطاجيون ، فإن الصحراء الكبرى في ذلك الوقت كانت أقل جفافاً مما هي الآن وكان يسكنها بعض أقوام من الجنس الليبي أصحاب البشرة البيضاء إذ لم توجد العناصر الزنجية إلا جنوب الصحراء ، وكانت طرق القوافل تصل بين ساحل شمال أفريقيا ونيجيريا جنوباً ، وبين مصر شرقاً وموريتانيا غرباً ، وما لا شك فيه أن الفينيقيين وليس الإغريق ولا المصريين هم الذين نقلوا منتجات هذه المنطقة من وسط غرب أفريقيا الغنية بالذهب والعاج والحيوانات المفترسة والعبيد إلى البحر الأبيض المتوسط ، ويظن البعض أنه ربا سلك القرطاجيون إلى مصر طريقاً برياً متجمين المستعمرة اليونانية في برقة المسماة «قورينة» لنقل تجاراتهم إليها .

وتذكر لنا مصادر أخرى جوانب عن ضروب التجارة التي مارسها الفينيقيون ، ومن ذلك ما يذكره هيرودوت من أنه علم من القرطاجيين أنهم في تجاراتهم مع الليبيين ، القاطنين في الغرب فيما وراء جبل طارق ، كانوا يتبعون أسلوب المقايسة ويصف هذه الطريقة وصفاً شيئاً بقوله : «إنهم ينزلون إلى الساحل ويضعون عليه بضاعتهم ثم يعودون إلى سفنهم ويرسلون منها دخانًا . فيأتي الأهالي إلى مكان البضائع وينضعون إلى جانبها الذهب حسب ما يعتقدون أنه قيمة للبضاعة ، ثم ينسحبون إلى مسافة بعيدة ، وتتكرر هذه العملية

(١) ص ١١٧ أعلاه.

من الجيئة والروحة حتى يرضى القرطاجيون بالشمن الذي يقدمه الليبيون» - ثم يضيف هيرودوت بأنه لم يحدث غش من الجانبين ، فلا يمكّن القرطاجيون الذهب إلا حين يقنعون به ثمناً ، ولا يمكّن الأهالي البضائع حتى يقبل القرطاجيون الذهب .

وربما كان من أثر نشاطهم التجاري إقدامهم على محاولة الوصول إلى أماكن لم تكن مطروقة واتجاههم إلى اكتشاف مناطق بعيدة .

(ج) الإكتشافات الجغرافية :

لم يعرف القدماء من وسائل تحديد الجهات الأربع الأصلية سوى الوسائل الطبيعية وهي الشمس بالنهار والنجوم بالليل - ويبدو أن الفينيقيين ، وهم أهل ملاحة ، حذقوا علم الفلك وألغوا الإهتمام بالنجوم إلى درجة أن الإغريق أسموا مجموعة النجوم المعروفة باسم الدب الأصغر باسم المجموعة الفينيقية - وما هو معروف أن الفينيقيين ، شأنهم في ذلك شأن سائر الشعوب القدية ، كانوا في مسالكهم البحريّة يسرون بحذاء الساحل فلا يزجون بأنفسهم طواعية في عرض البحر إلا إذا كان السبيل مأموناً ومعروفاً لهم من قبل ، وأن هبوب الرياح موثقاً منه حسب فصول السنة المختلفة . وهذا كانت مدنهم القدية غير متبدعة ، بحيث لا تستغرق الملاحة بين إحداها والتي تليها إلا ملاحة يوم واحد كي تجد سفنهما مساء كل يوم ملجاً تأوي إليه ، وشيئاً فشيئاً استطاعوا أن يقوموا برحلات أكثر جرأة واستطاعوا أن يصلوا غرباً إلى جبل طارق .

ولكن رحلات الفينيقيين في البحر الأبيض لا يمكن أن يطلق عليها اكتشافات لأنّه منذ عصر البرنز على الأكثـر ، إن لم يكن قبل ذلك ، كانت جميع مسالك البحر الأبيض قد عرفت معرفة جيدة - وللتعرف على اكتشافاتهم يجب أن نتبع المخلفات الأثرية الدالة على نشاطهم في المنطقة النائية التي كان لهم فضل السبق في الوصول إليها من جهة وما ورد في النصوص الكلاسيكية من الأخبار عن نشاطهم في هذا المجال من جهة أخرى .

فمثلاً يذكر هيرودوت أن بعض الفينيقيين استقلوا سفناً في البحر الأحمر

وساروا بها جنوباً بتكليف من ملك مصر نخاو (٦٠٩-٥٩٣ق.م.) ليبحروا حول قارة إفريقيا ، وأنهم أتموا هذا العمل في أقل من ثلاث سنوات ، وأنهم كانوا يتوقفون أثناء رحلتهم في كل عام في الفترة الواقعة بين زمن بذر القمح وموسم الحصاد ، حتى يتمونوا من المحصول قبل استئناف الرحلة ، ولسنا نملك أي دليل آخر نناقش به صحة خبر هذه الرحلة إلا ما ذكره هيرودوت نفسه وهو يشك فيها ولا يصدقها هو نفسه ، ولكن بعض الدارسين الحديثين يميلون إلى صحتها التاريخية على أساس عبارة وردت في وصف هيرودوت من أن هؤلاء الرحالة من الفينيقيين حين وصلوا إلى ليبيا من الغرب كانت الشمس على يمينهم .

وهناك رحلتان أخرىان تمتا في وقت واحد تقربياً إحداهما رحلة «هيميلكو Himilco» التي قامت من «قادس» في إسبانيا إلى سواحل أوروبا الغربية ، والثانية هي رحلة «حنون» المشهورة التي تحركت من قادس أيضاً وتحركت نحو الجنوب على طول الساحل الغربي لإفريقيا ، وإذا عرفنا أن أحد كتب الرحلات اليونانية التي كتبت في منتصف القرن الرابع ق.م. وتنسب «إسكيلاكس Scylax» يذكر مستعمرة أسسها حنون اسمها «تيمياتيريا Thymiateria» وأن هيرودوت الذي كتب في منتصف القرن الخامس ق.م. لم يذكر شيئاً عن هاتين الرحلتين في حين أنه اهتم بذكر رحلة نخاو حول إفريقيا فإن من المرجح أن الرحلتين لم تكونا قد تمتا حتى عهده ، ومن الممكن أن نستنتج أنها تمتا بين زمن هيرودوت وزمن كتاب الرحلة المنسوب إلى «اسكيلاكس» (أي بين ٤٥٠، ٣٥٠ق.م. تقربياً) - ومن الدارسين من يرجح أن الرحلتين حدثتا في الربع الأخير من القرن الخامس ق.م.

هذا فيما يتعلق بتاريخ الرحلتين وقد ورد ذكرهما فيها كتبه «بلينيوس الكبير»^(١) ولكنه كان يشك في صدق رحلة حنون - أما عن موضوعهما فما نعرفه

(١) بليني الكبير مؤلف روماني عاش فيها بين ٢٣ ، ٧٩ م أتم كتبه العشرة المعروفة باسم التاريخ الطبيعي سنة ٧٨ م .

عن رحلة هيميلكو قليل ، ولا يتعدى وصف مقتضب مشوه ورد في قصيدة من القرن الرابع الميلادي من وضع «فستوس افيينوس Festus Avienus»^(٢).

ومهما يكن من أمر فيبدو أن القرطاجيين أقدموا على هاتين الرحلتين في الوقت الذي كانوا يحاولون فيه تقوية نفوذهم ومصالحهم في الغرب نتيجة لمنافسة الإغريق لهم في البحر الأبيض ، وما من شك في أن رحلة «هيميلكو Himilco» كانت تهدف إلى فتح الطريق إلى مناجم الصفيح في الغرب في وقت ربما لم يكن فيه انتاج المناجم الاسبانية كافياً ، ويبدو إجمالاً مما نعرفه عن هذه الرحلة من مصدرها الوحيد المتأخر «وهو افيينوس» أن «هيميلكو» لم يتوقف عند سواحل فرنسا الغربية (وهي المنطقة المعروفة باسم بريتاني) إنما تعداها شمالاً وغرباً عبر القنال الانجليزي ومهد بذلك السبيل أمام قرطاجة لمشاركة في تجارة الصفيح من إقليم «كورنوول Cornwall» بإنجلترا ، خاصة وأنه من المحتمل أن تجارة الصفيح من كورنوول كانت معروفة من قبل بالنسبة لتجار البحر الأبيض المتوسط ولكن عن طريق البر عبر الغالة ، ومع ذلك فنحن لا نملك لسوء الحظ أي دليل أثري معاصر يثبت وجود اتصال مباشر بين قرطاجة وبريتانيا في ذلك الوقت لتأييد قصة «هيميلكو» بالرغم من العثور على عدد من المخلفات الأثرية من عصر الحديد^(١) في كورنوول تدل على وجود علاقات مع إسبانيا ، أما الحملات القرطاجية القليلة التي على آثار لها في بريطانيا فترجع إلى تاريخ أكثر تأثيراً، كما أنها وحدتها لا تكفي لتأكيد وجود اتصال مباشر ومنتظم بين قرطاجة وبريتانيا.

أما معلوماتنا بالنسبة لرحلة «حنون» فأوف وأقيم ، فالرغم من أن المخطوط الوحيد الباقى لها يرجع إلى القرن العاشر الميلادي وأن هذا المخطوط قد أفسده كثرة النقل والنسخ إلا أن القصة في حد ذاتها باللغة القيمة في مضمونها وتفصيلاتها ، وقد اهتم بها كثير من العلماء في العصر الحديث وتناولوها بال النقد والدراسة والتحقيق ، وهي في جملها مقبولة لدى أكثر

(١) يوناني وضع قصيدة جغرافية في القرن الرابع ق . م .

(٢) يقدر ان عصر الحديد استمر من القرن ١٢ ق . م . إلى القرن الرابع ق . م .

العلماء ، ولكنهم يختلفون فيما بينهم أشد الإختلاف في بعض التفاصيل مثل تحديد الأماكن الجغرافية التي يذكرها «حنون» وأقصى منطقة وصل إليها ، بل ويذهب بعض العلماء إلى أن النص الذي لدينا أكثره مزيف ، ومع أن هذا القول مبالغ فيه فإن القصة بها كثير من الأخطاء والتناقضات ، فنص هذه القصة الذي وصل إلينا هو عبارة عن ترجمة يونانية للوصف الذي كتبه «حنون» نفسه ووضعه في معبد الإله « Buckley - حمون » في قرطاجة ، وترجمة اليونانية إلى نهاية القرن الرابع أو بداية القرن الثالث ق.م. ، وكانت معروفة للجغرافي «استرابون» في القرن الأول قبل الميلاد الذيقرأها واعتقد أنها شخص خرافية ، ومع ذلك فما لا شك فيه أن الرحلة حقيقة تاريخية وأن هدفها كان كشف أسواق جديدة ، وأنها تقررت ونفذت بناء على قرار من مجلس الشيوخ القرطاجي ، وما يؤكّد صحة هذا القول ما هو معروف من وجود مستعمرات فينيقية في غرب أفريقيا ، ولوأن هذه المستعمرات زالت بعد الحروب البونية ولكن ذكرى النفوذ الفينيقي ظلت باقية في غرب أفريقيا بعد ذلك بمنتهى طويلة . ويؤكّد القديس «أوغسطين St. Augustin ٣٥٤ - ٤٣٠ م) أن الناس في زمانه في بعض بقاع الشاطئ الغربي الإفريقي كانوا لا يزالون يتكلمون اللغة الفينيقية .

ويبدأ النص اليوناني بهذه العبارات :

« هذه قصة الرحلة الطويلة التي قام بها «حنون» ، ملك القرطاجيين إلى الأراضي الليبية وراء أعمدة هرقل (جبل طارق) والتي سجلها على ألواح وأقامها في معبد كرونوس (بعل حمون) ».

« قرر القرطاجيون أن يبحرون حنون وراء أعمدة هرقل وأن يؤسس مدنًا للفينيقيين في ليبيا ، وقد أبحر في ستين سفينة وأخذ معه ثلاثين الف رجل وامرأة ومؤن وغير ذلك . . . الخ » .

و واضح أن الرقم مبالغ فيه على ما هو مألف في المصادر القدمة ، ويستمر النص بعد ذلك في ذكر مراحل الرحلة وأسماء المستعمرات التي أسسها حنون للفينيقيين ، ومن بينها «ثيمياتريون» ، ولعلها تقابل بلدة «مهدية»

(قرب الرباط) حالياً . ويدرك بعد ذلك نهراً أطلق عليه اسم «ليكسوس Lixos» الذي يظن أنه نهر درعا حالياً على الحدود بين مراكش والصحراء الكبرى في الجنوب - وبعد إبحار استمر ثلاثة أيام جنوب نهر ليكسوس ، أسس حنون مستعمرة «قرنة Cerne» على إحدى الجزر - وتحديد موقعها له أهميته لأنها أقصى مستعمرة دائمة أقامها الفينيقيون جنوباً على الساحل الغربي لأفريقيا ورد ذكرها في المصادر القديمة ، وهناك من يعتقد بأنها جزيرة «هرنة Her ne» الحديثة نظراً لأن المسافة بينها وبين جبل طارق تماثل المسافة بين قرطاجة وجبل طارق وهو ما يذكره «حنون» نفسه في تحديد موقعها . وهناك من يقترح موقعاً آخر هو جزيرة «ارجوين» وهي أبعد جنوباً ولكن كلاً من هرنة وارجوين تقعان مواجهتين للصحراء الكبرى ولا تصلحان كأسواق كبيرة وهذا اقترح البعض أن تكون قرنة بالقرب من مصب نهر السنغال . حيث أشار «حنون» إلى نهر كبير باسم «خريتيس Chretes» كما وأن كتاب الرحلة المنسوب لأسكيلاكس الذي كتب حوالي ٣٥٠ ق.م. يذكر مدينة كبيرة كان يبحر إليها الفينيقيون ويتبادلون التجارة مع السكان الأفريقيين ، ويدرك حنون أيضاً أنه سار بسفنه في أعلى النهر حتى رأس الدلتا ثم عاد ثانية وأن النهر كان مليئاً بحيوان فرس النهر والتماسيح ، وبعد هذا اقتصر عمل حنون على اكتشاف السواحل الأفريقية ، ويصعب تتبع رحلته بعد ذلك ولكن في الرحلة إشارة إلى جبل يسمى عربة الآلهة ، ولعله ينطبق على جبل الكمررون (٤٠٠٠ متر) لأن أهل البلاد لا يزالون يسمون قمته بهذا الإسم حتى الآن.

هذه هي أهم الاكتشافات الفينيقية التي لدينا عنها معلومات لا بأس بها أما الكشف الأخرى فأقل أهمية ومعلوماتنا عنها أقل ويشوّها الشك في كثير من نواحيها .

(د) الزراعة :

كانت الزراعة وتربية الحيوان أقدم وأكثر أنواع النشاط الاقتصادي انتشاراً بين الفينيقيين . وتبين لنا المصادر المختلفة أنهم لم يقتصروا في ذلك على تربية القطعان وزراعة المحاصيل الغذائية فحسب ، بل زرعوا أيضاً الكتان بقدر ما سمحت لهم رقعة الأرض المحدودة في الشرق .

أما بالنسبة لقرطاجة فإن الفقرات الأربعين التي وردت في الكتابات اللاتينية نقلأً عن «ماجو»^(١) ، تتعرض لجميع أنواع الزراعة والانتاج الحيواني ، فقد أشارت هذه إلى الحبوب والكرום والزيتون وتربية السحل إلى جانب تربية الضأن والقطعان ، ولا بد أن الحياة الزراعية في قرطاجة كانت منظمة وتشمل هذه المحاصيل ، وإنما لما تحدث عنها ووصفها «ماجو» ويؤكّد هذه الحقيقة ما يورده «ديوردور الصقلي» من أن «اجاثوكليس» حاكم سيراكيوز حين غزا الساحل القرطاجي وجد البلاد تنتشر فيها القرى الريفية وحظائر تربية الحيوان ومزارع الكرום والزيتون . أما عن الحبوب وكثرتها في شمال إفريقيا فيجب أن نذكر أن ولاية شمال إفريقيا أصبحت واحدة من أهم مصادر الغلال لروما . وفي نهاية القرن الثالث قبل الميلاد حينها غزا «اسكيبيو» الساحل القرطاجي سنة ٢٠٣ ق.م. اقترح صلحًا ينص على أن تقدم قرطاجة لروما ٣٠٠,٠٠٠ كيل من القمح و٥٠٠,٠٠٠ كيل من الشعير .

إلى جانب هذه المحاصيل يبدو أن النخيل لعب دوراً هاماً أيضاً في الحياة الزراعية في شمال إفريقيا ويتبين ذلك من أن بعض المدن اتخذت من النخلة شعاراً لها حيث نقش رسمها على بعض العملة والأختام واللوحات الجنائزية .

أما عن تربية الحيوان ، فكان الشائع هو تربية الأبقار والأغنام والماعز . ولعله من الطريف أن نورد فقرة كتبها «ماجو» في صفات البقرة القرطاجية الجيدة :

(١) انظر أعلى ص ١١٤ .

«يجب أن تكون صغيرة السن ، ممتلئة الجسم ، ضخمة الاطراف ، (وثيرها طويل القرن) قوية ذات لون ضارب للسواد ، كثة وعريضة الحاجبين ، متهدلة الأذنين سوداء العينين والشفتين ، مفتوحة معقوفة الأنف ، طويلة وعضلية الأعضاء يتدلّى من عنقها لغد كبير يصل إلى الركبتين تقريباً ، عريضة الصدر ، ضخمة الكتفين ، ممتلئة البطن ، مثل بطן الحيوان الحامل ، طويلة الجانبين ، كبيرة الفخذين ، مستقيمة الظهر ، مستديرة الفخذين ، ممتلئة الرجلين ، أقرب إلى القصر منها إلى الطول ، ذات ركب حسنة التكوين ، كبيرة الحوافر ، لها ذيل طويل قوي ، وشعر قصير كث على الجسم ، أحمر اللون أو بني ، ناعم الملمس».

هذه الفقرة لا تهمنا لأوصافها فحسب ، ولكن لأنها تمثل لنا كتاباً ضخماً كتب باللغة الفينيقية وكان يتكون من اثنى عشر جزءاً في فرع من أهم فروع المعرفة ذات القيمة العملية ، وقد اهتم قدامى الكتاب بهذا الميدان من التأليف كما فعل الإغريق فكتب «أرسطو» عن الحيوان وكذلك فعل الرومان حيث كتب (فارو) و (كولوميلا) عن الحيوان وربما تأثرا في ذلك بما كتبه «ماجو» وبعد ذلك اهتم العرب أيضاً بهذا الميدان فكتب الجاحظ كتابه المعروف عن الحيوان .

ولا ينبغي في هذا الصدد أن نغفل أخشاب جبل لبنان التي كانت موجودة في الغابات بوفرة تفوق كثيراً حالتها الآن . ولقد اشتهرت المدن الفينيقية منذ أقدم العصور بتصدير هذه الأخشاب ، وكانت مصر من أكبر الدول المستوردة لها ومن أهم الأمثلة التي يمكن أن نذكرها في هذا المجال المركب الضخمة التي عثر عليها في إحدى الحفريات أورا هرم خوفو والتي ثبت أن جميع أخشابها من خشب الأرز ، وترجع إلى القرن الثامن والعشرين قبل الميلاد .

رابعاً: العسكرية

عاش الفينيقيون في ظروف وبيئة جعلت منهم بحارة أكثر منهم جنوداً، وربما يبدو ذلك غريباً لما تمعنت به الجيوش البوئية من مميزات قتالية تحت قيادة «هانيبيعل»، ولكن واقع الأمر يؤيد ما ذهبنا إليه حيث أن جيوش «هانيبيعل» لم تكن بأكملها مؤلفة من البوئيين (الفينيقيين) بل كانت تضم أيبيريين ولبيين وغاللين وآيطاليين.

ولما كانت بلاد الفينيقيين في المشرق تقع على الطريق البري بين مصر وبين أقصط طوار غرب آسيا فإنها كانت دائمة في طريق الغزاة، وفي أغلب الأحيان كان عليها إما أن تقاوم ما يفرض عليها من حصار أو أن تفتح أبوابها للغزاة دون مقاومة، فهذه البلاد حتمت عليها الضرورة أن تكون جيدة التحصين، وما يؤيد ذلك ما يظهر في النقوش الآشورية على بوابات «بالاوات»^(١) البرونزية التي من عهد شلمناشر الثالث (٨٥٩ - ٨٢٤ ق.م.) حيث تتبين فيها منظر سور مدينة صور ذو الأبراج والشرفات فوق جزيرتها الصخرية، كما تتبين أسوار هذه المدينة في نقوش سنخريب (٧٠٥ - ٦٨١ ق.م.) في «كيونجك» وتمثل «لوى» ملك صور وصيدها وعائلته عند هربرهم من المدينة، وتظهر صورة المدينة الفينيقية المحصنة على بعض عمارات صيدها التي ترجع إلى أوائل القرن الرابع ق.م. - ويمكننا أن نتصور ما يؤدي إليه حصار مدينة فينيقية محصنة مثل صور على ضوء ما ورد في نبوة حزقيال^(٢). حيث

(١) «بالاوات» قرية بالعراق على بعد ٢٥ كم جنوب شرقى الموصل عثر فيها سنة ١٨٧٨ على هذه البوابات وهي الآن بالمتحف البريطاني.

(٢) حزقيال ٧/٢٦ - ١٢.

جاء فيها :

« . . . هكذا ، قال السيد الرب : هأنذا أجلب على صور نبوكلدوننصر ملك بابل . . . فيقتل بناتك في الصحراء بالسيف : و يجعل عليك متresseة ويركم عليكم تلا ويرفع عليك المجنب ويلقى على أسوارك صدمات منجنقه ويهدم بروجك بأدوات حربه . . . وحوافر خيله تطاً جميع شوارعك ويقتل شعبك بالسيف وأنصاب عزتك تهبط إلى الأرض ويسلبون ثروتك وينهبون تجارتك وينقضون أسوارك ويهدمون بيتك الشهية ويلقون حجارتك وخشبك وترابك في وسط المياه » .

ولا نعرف إلا القليل عن أي عملية عسكرية برية اشترك فيها الفينيقيون الشرقيون أو منظماتهم ، ولو أن مثل هذه العمليات قد حدثت بالفعل حيث أنها نعرف مثلاً أن «سلمناصر الثالث» هزم ملك «أرواد» هزيمة ساحقة كما يبدو ذلك في نقوش بوابات «الآلات» سالفه الذكر - أما معلوماتنا عن أساطيل هؤلاء الفينيقيين فهي أكثر من ذلك كثيراً ، فمن المعروف أن القوى العظمى التي كان على الفينيقيين أن تتعامل معها كانت قوى برية (غير بحرية) فإذا ما احتاجت هذه القوى إلى أساطيل بحرية فإنها كانت تلجم إلى الفينيقيين ليبدوهم بها ويزودونها بالرجال والعتاد ، وقد استخدمتهم «سرجون الثاني» حينما هاجم قبرص كما ساعدت أساطيل الفينيقيين الفرس في حروبهم ، حيث استعان بهم «دارا» في حربه ضد اليونانيين الأيونيين كما أن أسطول «أكزركسس» في سلاميس سنة ٤٨٠ ق.م. كانت به ٣٠٠ سفينة ذات الصنوف الثلاثة من المجاذيف من بين ١٢٠٧ سفينة ، وكان بحاراتها يرتدون خوذات ومشدات للخصر من الكتان ويحملون دروعاً خفيفة وبنال - وحارب جزء الأسطول المكون من الفينيقيين (الذي كان يعد أحسن أقسام الأسطول) على الجناح الأيسر في مواجهة الأثنين وأبلى بلاء حسناً كالمعتاد ، ولم تكن سفنهم ذات الصنوف الثلاثة من المجاذيف التي استعملوها حينئذ من طراز السفن الحربية الحديثة في ذلك العهد رغم أن كل السفن التي استخدمت في الحروب حتى موقعة «الآlia»^(١) (٥٣٥ ق.م.) كانت خمسينية (أي تحمل كل

(١) معركة بحرية هزم القرطاجيون فيها الفوكاين (الذين كانوا قد تركوا مدنهما في إيونيا بعد أن فرض كورش سلطانه عليها ، وأسسوا مستعمرة «الآlia» في كورسيكا) ودمروا مستعمرتهم سنة ٥٣٥ ق.م.

منها ٥٠ مجدافاً) Pentecontrs) فهذه الأخيرة أقدم كثيراً وأصغر حجماً حيث يقول ثيوكيديس^(١) أن الكورنثيين كانوا أول من بني السفن الثلاثية الصنوف من المجاذيف (حوالي ٧٠٠ ق.م.) بين اليونانيين ويمكن أن نتصور بأن رواية «كليمنت السكندرى»^(٢) عن أن الصيدونيين هم الذين اخترعواها لها نصيب من الصحة بينما كان نخاو^(٣) ملك مصر يستعمل سفناً ثلاثية صنعت في مصر سنة ٦٠٠ ق.م. حسب ما رواه هيرودوت - والظاهرة العامة في كل السفن الحربية في ذلك الوقت تتمثل في مقدماتها المدببة لتدرك أعداءها أو لتصف ريش (نصال) مجاذيفها عندما تمر بجوارها ، ويقول البعض أن ذلك كان اختراعاً فينيقياً ولكن شيئاً ماثلاً وجد في السفن الممثلة على نصل خنجر يرجع إلى عصر البرونز المبكر عشر عليه في «دوراك» بفرجيجيا في آسيا الصغرى مما يوحي ، من جهة أخرى ، بأنه اختراع «إيجي» نقله الفينيقيون عن الميكينيين .

ويبدو أن الموانئ الفينيقية الشرقية كانت بصفة رئيسية مرافيع (مراسي) تحتمي بها السفن، فحينما رأى حيرام العظيم ملك صور أن موقع مدنته أمام جزيرتين غير بعيد عن الشاطئ يهيء فرصة طيبة لإنشاء مرفأين بينهما وبين المدينة أحدهما شمالي والأخر جنوبي ليكفل حماية السفن بهما كان اتجاه الرياح وهو نظام أصبح معتاداً في فينيقيا وما زال المرفأ الشمالي باقياً تستعمله القوارب المحلية بينما ردم المرفأ الجنوبي بفعل حاجز الأمواج الذي أقامه الاسكندر، ومع ذلك يبدو أن الفينيقيين الشرقيين لم يعرفوا الأحواض الداخلية. (Cothons).

ومن الروايات المفصلة التي تركها «بوليبوس»^(٤) و «ليفي»^(٥)

(١) مؤرخ أثيني عاش حوالي ٤٧١ - ٤٤٠ ق.م. وكتب عن الحرب بين أثينا واسبرطة - انظر ما سبق صفحة ٧٣، ١٠٨.

(٢) عاش حوالي ١٥٠ - ١٢٠ م ، وقد ولد من أبوين وثين في أثينا ولكنه اعتنق المسيحية وعاش بالاسكندرية .

(٣) ثاني ملوك الأسرة ٢٦ المصرية .

(٤) عاش ٢٠٤ - ١٤٢ ق.م. وكتب أربعين كتاباً عن التاريخ في اليونان ختمنها سنة ١٣٣ ق.م.

(٥) عاش (٥٩ ق.م. - ١٧ م) كتب تاريخاً عن روما توقف في ٩ ق.م. وقد تضمن فترة تأسيسها.

وغيرها عن حروب صقلية وروما عرفنا عن عادات القتال التي مارسها الفينيقيون الغربيون قدرًا أكبر كثيراً مما نعرفه عن تلك التي مارسها الفينيقيون في المدن الشرقية - فقرطاجة بما وراءها من بقاع داخل القارة وجدت بمرور الزمن أن رعاياها الأفريقيين يشكلون جنوداً ممتازين فاستخدمتهم إلى أقصى حد ، ولكن ذلك أدى إلى ضرورة إعداد القرطاجيين أنفسهم كذلك للقتال برا في أوقات الثورات الأهلية .

ويحلو حرب «مالخوس» وخلفاؤه من أسرة «ماجون» في القرن السادس ق.م. لا بد وأن صار لقرطاجة جيش قوي من كل من المدنيين ومن الرعايا الذين لم يكونوا غير مدربين على القتال وقد كون هذا بالإضافة إلى تعزيزات من المدن الخليفة في صقلية ومن المرتزقة قوة هائلة ، وقد اشتبتقت قرطاجة منذ أواخر القرن الخامس ق.م. حتى هزتها الأخيرة سنة ١٤٦ق.م. في حروب متكررة ولكنها لم تنشيء جيشاً دائمًا (تحت السلاح) ولم يكن ذلك شأن اليونان أو الرومان في ذلك الوقت أيضاً حيث أن قوات الرومان الدائمة لم توجد قبل القرن الأول ق.م.

ولم يكن لقرطاجة كذلك هيئة للضباط المحترفين وكان قوادها يعينون لمدة عام - وحينما يكونون ناجحين وأقوياء يظلون في القيادة سنوات طويلة كما حدث بالنسبة لعائلة «بارسيد Barcid» أثناء الحرب البونية الثانية فقد ظل كل منهم في القيادة سنوات طويلة ولا بد أن ذلك قد مكن قرطاجة من التفوق على خصومها وبالمثل حين كان يتفوق الخصوم الناجحون فإنهم كانوا يظلون في مراكزهم فترات طويلة مثل «ديونيزيوس» حاكم سيراكيوس (مات سنة ٣٦٧ق.م.) و(تيموليون Timoleon) القائد اليوناني (الذي أرسله الكورنثيون لتنظيم شؤون المستعمرات اليونانية التي استنجدت بالوطن الأم أي اليونان بسبب الحروب الدائمة التي تتعرض لها)، و«اسكيبيو افريكانوس» (مات سنة ١٨٢ق.م.) الذين استطاعوا هزيمة قرطاجة.

وقد لعب استخدام الجنود المرتزقة دوراً هاماً في حروب قرطاجة الكبيرة ولم يكن ذلك فكرة جديدة بل شاع في الشرق منذ زمن طويل ويشير سفر

حزقيال إلى ذلك في كلامه عن صور في القرن السادس ق.م. حيث ورد فيه : « كانت فارس ولود (ليديا) وبوت (بوت) في جيشك ، رجالك المحاربين »^(١) ثم نشط استخدامهم بعد ذلك سريعاً في القرن الخامس ق.م. عامة حيث يذكر ديدور بأن هاميلكار استخدم في جيشه مرتزقة من إيطاليا وغالباً وأسبانيا في معركة « هيميلا » بصفلية (سنة ٤٨٠ق.م.) - وقد حارب اليونان أنفسهم فيها بعد كمرتزقة للقرطاجيين ضد اليونان ، وفي بعض الأحيان مثلاً كما حدث عند استيلاء « ديونيزيوس » على « موتيا » (بصفلية) سنة ٣٩٨ق.م. لقوا اهتماماً ضئيلاً من آسييرهم أبناء جنسهم غير أن القوة القتالية الرئيسية في الجيوش البوانية كانت من أهل قرطاجة أنفسهم ومن رعایاها وأهلهما الليبيون والاسبان وهو ما يمكن توقعه ، ورغم أن تكاليف المترزقة كانت باهظة فقد ظلت قرطاجة لا تستغنى عنهم إلى آخر الحرب البوانية الثانية في معاركها الكبيرة مع أنها كانت ذات امبراطورية واسعة يمكنها أن تجند منها . كذلك لم يكن مثل هؤلاء الرجال أيضاً مطاعين (ليني العريكه) كما تحققت من ذلك في حرب المترزقة ^(٢) عندما عجزت عن دفع أجورهم في نهاية الحرب البوانية الأولى .

وقد استخدمت الجيوش البوانية في معاركها مشاة مزودين بأسلحة ثقيلة ، ولا بد أن جنود اليونان والجنود المترزقة (ومعظمهم من اليونان في الجبهتين المتعارضتين) كانوا متشابهين في المظهر - فهذه القوات كانت تسلح بالسيف العادي وحربة ، وفي أول الأمر كانوا يحملون دروعاً مستديرة ، وبعدئذ دروعاً مستطيلة ، ومثل هذه استخدمنا الرومان والغال في نفس الوقت تقريباً - وفضلاً عن ذلك كانوا يزودون ببزة (عدة) حربية ، وقد وجدت صدرية وحامية للظهور من البرونز جحيلة الزخرف من القرن الثالث قبل الميلاد بمقدمة في قصور الصف (Ksour-es-saf) في تونس وهي من إنتاج « كمبانيا » (في جنوب إيطاليا) يحتمل أنها كانت ملكاً لمترزقة من إيطاليا .

(١) حزقيال ٢٧/١٠

(٢) انظر أعلاه ص ٨٧.

وقد استخدمت جيوش ذلك الوقت قوات من الفرسان والرماة بالمقلاع ورماة السهام وقوات خفيفة التسلیح ولم يشد القرطاجيون عن ذلك ، ولما توسع الغزاة المقدونيون ، فيليب والاسکندر ، في استخدام الفرسان المقدونيین والتیسالیین حذرت قرطاجة حذوهم فشكلت قوات من خیالة « النومیدیین » المتأذین ثم من الاسبان والغالیین فيما بعد حيث كانت منهم قوات خیالة « هانیبعل » حينما دخل الى ایطالیا التي شكلت نحو ربع جيشه بأكمله - وقد استخدمت قرطاجة إلى وقت اندلاع الحروب البوئية كثيرا من العجلات الحربية حيث أنها كانت ترسل مع جيوشها قوات من العجلات الحربية إلى الخارج عبر البحار ، إلى صقلیة وغيرها - ويروى « دیودور » أن عدد العجلات الحربية التي يجر كلا منها زوج من الخيول يصل في كل مرة تستخدم فيها إلى ٢٠٠٠ عربة ، ويفرض أن هذا العدد مبالغ فيه فإنه على الأقل يدل على أن العربة الحربية كانت سلاحا رئيسيا في القوات القرطاجية - ولا بد أنهم جلبوا استعمالها من الشرق حيث كان قتال العربات اعتياديا ، والعربات الحربية الشرقية كانت إلى زمن السلوقيين تزود أحيانا بسيوف أو مناجل ومن المحتلم أن العربات القرطاجية كانت كذلك أيضا .

ويبدو أن إقلاع القرطاجيين عن استعمال العربة يتفق ووقت إدخال الفيل كحيوان للقتال ، ولكن لا يجب أن نفهم وجود صلة مباشرة بين ادخال أحد الأسلحة والاقلاع عن استعمال الآخر - وقد أدخلت الفيلة في حروب البحر المتوسط بعد أن التقى بها اليونان في حروب الاسکندر بالهند . ولما كان لقرطاجة مورد قريب في شمال أفريقيا فإنها جعلتها عنصرا في جيوشها ابتداء من أوائل القرن الثالث ق.م. حيث استخدموها في صقلیة واسبانيا ، وقد نجح هانیبعل بهارته في العملية الشاقة التي قام بها في جعل أكثر من ثلاثين فيلا تجتاز جبال الألب في سنة ٢١٨ ق.م. عبر بها كلها ولم يمت سوى واحد منها من البرد فيما بعد - وفي المعارك الكبرى كان العدد المعتمد للفيلة تحت إمرة القائد يتراوح بين الخمسين والمائة ، ومن المؤكد أنها كانت سلاحا ناجحا فمن بين نصوص معاهدة السلام سنة ٢٠١ ق.م. التي أبرمت بعد معركة « زاما » ما يحتم على قرطاجة عدم استخدامها ويوجب عليها أن تتوقف حتى عن اصطياد

وأسر فيلة شمال أفريقيا - وفي الشرق كانت الفيلة تحمل المقاتلين في هوادج مخصنة ، أما في الغرب فإن دورها ينحصر في أن يسوقها سائق بمنخس ، وكان الفيل يزود بنوع من الدرع الواقي لجسمه ثم يدفع لاقتحام صفوف العدو فيثير فيها الرعب والاضطراب - وقد أحبط «اسكيبيو» ذلك بأن فتح مرات بين صفوف جيشه فكانت الفيلة تندفع فيها دون أن تحدث أضرارا ولم تكن هذه الحيوانات نعمة خالصة إذ كانت أحيانا تصاب بالذعر فتهاجم صفوف

جيشهما

أما عن فن الحصار الحربي فقد بلغ درجة عظيمة من التقدم خلال القرن الرابع قبل الميلاد وحدث الكثير من هذا التطور في صقلية ، ولكن كثيرا من الخطط التي كانت تبدو في ذلك الحين حديثة عهد في غرب البحر المتوسط لا بد وأنها كانت معروفة منذ زمن طويل في الشرق حيث عرف الأشوريون الكثير عن وسائل الحصار الحربي المعتادة مثل المنجنيق أو المدق وروابي (أو آكام ترابية) الهجوم والأبراج وتقويض المنشآت من أعلى أو حتى من أسفل الأسوار ومع ذلك فربما كان سلاح وحيد وهو المنجنيق (الحدافة) قد اخترعه «ديونيزيوس» أو اخترع من أجله لأن «ديودور» يذكر بأن استخدامه لأول مرة كان بواسطته في «موتيا» عام ٣٩٨ ق.م. وكان يلقي بكرات المعدن والأنقال لمسافة عدة مئات من الأمتار ، وكان أثره حينئذ فوريأ ولم تعد المدن تشعر بالأمن داخل سور واحد بل كان لا بد لها من أسوار في صفوف متعددة لتبعد المهاجمين فلا تكون في مدى مرماهم ولذلك فإن «موتيا» بسورها الوحيد المشرف على الشاطيء تعرضت بشدة للأضرار حينما أعاد ديونيزيوس» بناء السد (حاجز الأمواج) الموصل بينها وبين اليابسة واستطاع أن يضع أدوات حصاره ويجعل قذائفه بعيدة المدى تصيبها ، ولا شك أن مدننا أخرى وقعت سريعا في نفس المتاعب .

وقد أفادت قرطاجة من هذا الدرس في القرن الثالث ق.م. حينما قامت ببناء تحصيناتها الشهيرة عبر الجزء الضيق من البرزخ لأنها كانت مكونة من ثلاثة أجزاء : سور سميك ذو أبراج على أبعاد منتظم واستحکامات (سواتر) للرجال والفيلة والخيول في مرحلتين ومتراس متوسط (يجعل أنه كان سدا

ترايبيا) وخارج ذلك خندق من خلفه سياج ذو أوتاد . وقد كشف عن هذه السلسلة من التحصينات عن طريق التصوير الجوي بواسطة القائد دوفال سنة ١٩٤٩ الذي كشفت تفاصيله بعدها عن خندق خارجي عرضه ٢٠ متراً وأخر داخلي عرضه ٣٥ متراً ذو صفوف من ثقوب الأعمدة (الحفر التي كانت تثبت فيها الأعمدة) وبه كذلك حفر ضيقة هي مواضع فلنكات سياج ذو أوتاد فيما بينها ، وكانت هناك دهاليز تصل بين الواجهة والمؤخرة على أبعاد متتظمة كما زودت بعض زوايا الحصن بالطوابي - ويتفق هذا تماماً مع وصف «بوليبيوس» عن المنشآت المارجية ، ولكن لم يكتشف بعد خط السور الأساسي الذي كان من داخل كل ذلك .

ومع أن الأسطول كان يشمل خط الدفاع الأول عن قرطاجة يبدو أن أساطيلها في زمن الحرب لم تكن على درجة من القوة التي كانت تقدر لها حيث أنها هزمت تكراراً ، لا من اليونان فحسب بل ومن الرومان أيضاً رغم أنهم ، كما يروى ، لم يكونوا معتادين على القتال البحري في زمن الحرب البونية الأولى حتى أنهم استخدمو مقاتلة (Quinquereme) بونية خمسينية المجاديف أسروها كنموذج لبناء أسطولهم الجديد ، ولمعرفتهم بأنهم لا يضارعون أعداءهم في الملاحة اخترعوا جهازاً عبارة عن لوح خشبي سميك ذو كلابة (كوبيري متحرك) ليتمكنهم من الامساك بالسفن البونية والهبوط إليها وبواسطة هذا الاختراع نجحوا في كسب معركة «ميلاي Mylae» (٢٦٠ ق.م.) على الساحل الشمالي لصقلية ، وهي أول اشتباك بحري عظيم في الحرب (وفي ثلاثة معارك أخرى من بينها آخر هذه المعارك الثلاثة وهي معركة جزر «أيجيتس Aegates» (١) سنة ٢٤١ ق.م.

وكان القرطاجيون ما زالوا يعتمدون على الأسلوب القديم من صدام السفينة المضادة بمقدمة سفينتهم أو التجديف بها في محازة السفينة المضادة لتحطيم مجاديفها وكان مجدهم من المواطنين القرطاجيين ، وقد شهد الكتاب القدامي لهم مرات كثيرة بالشجاعة .

^١ (١) جزر صغيرة غرب صقلية .

وكانت السفن (Quinquereme) خمسينية المجاديف التي حلّت محل السفن ثلاثية صنوف المجاديف في صدارة الصنوف ، حسب ما رواه «ديودور» ، من اختراع ديونيزيوس العظيم ولكن لا شك في أن أحواض بناء السفن القرطاجية سرعان ما صنعت على غرارها وكانت الأسطول في حروب صقلية تتالف عادة فيها بين ٢٠٠، ١٠٠ سفينة وفي الحرب البونية الأولى اتجهوا إلى تسيير أكثر من ٢٠٠ سفينة كان من بينها سفن صغيرة أيضا .

والمرفأ (Cothon) القرطاجي المستدير كان به ٢٢٠ حوضا منها ١٦٠ - ١٧٠ يستوعبون سفنا خمسينية المجاديف ، ومن العسير أن نتصور كيف يمكن ، على ضوء الطبوغرافيا الحالية حول المسطح المائي المستدير ، إنشاء مكان يتسع لاستيعاب قدر بهذه الكثرة حتى ولو كانت بعض المراسي جافة ، ولكن الدلائل القديمة لا يمكن نبذها بسهولة فمن الممكن أن تكون إعادة بناء المنطقة على يد الرومان قد طمست المعالم الطبوغرافية التي يمكن أن تفسر هذا اللغز - والمرفأ (Cothon) الفينيقي الآخر الوحيد المؤكّد هو المرفأ الصغير الذي في «موتيا» ومساحته 37×51 مترا وقناة المؤدية إلى البحر عرضها ٧ أمتار في أضيق أجزائها ، ومثل هذا الحوض يحتمل أنه بني أساسا من أجل السفن الصغيرة حيث أن السفنثلاثية المجاديف كانت بالكاد تدخل عبر القناة (إذ أن آثار هذه السفن التي كشف عنها في أثينا تدل على أن عرضها كان ستة أمتار وثلاثة أرباع المتر) كذلك لم يكن في الامكانيات أن يستخدم المرفأ إلا عدد ضئيل في وقت واحد ، ويشير مؤلف (Bellum Africanum) أي حرب أفريقيا^(١) إلى أحد المرافئ في «هادروميتوم» (Hadrumetum) (سوسة) في سنة ٤٤ ق.م. ولكن لم يمكن التعرف على موقعه ويوجد حوض داخلي في «مهدية» فيما بين «سوسة» و«صفاقس» مساحته 56×72 مترا يؤخذ على أنه فينيقي - وقد اعتقد بعض الأثريين بأنه ربما كان من العصور الوسطى ولكنهم ذكروا ذلك قبل النشر عن مرفا «موتيا» الأصغر منه مما يرجح أن حوض «مهدية» الداخلي هو حوض فينيقي .

(١) يحتمل أنه أحد خصباط يوليوس قيصر رافقه في حملته على أفريقيا حوالي ٤٦ ق.م.

خامساً: الدين

من الغريب ان الفينيقيين القدماء وهم أصحاب الفضل في تطوير الكتابة قدماً والوصول بها الى مرحلة الحروف الهجائية ، لم يعثر لهم على كتابات كافية تفيد في دراسة تاريخنهم أو نظمهم أو دينهم ومعتقداتهم ، فكما حدث عند دراسة تاريخ الفينيقيين أو نظمهم السياسية من الاعتماد على مصادر أجنبية من مصرية أو آشورية أو يونانية أو لاتينية في أغلب الأحيان لاستبط جوانب من هذا التاريخ أو تلك النظم كذلك عند دراسة الدين نفعل الأمر ذاته ونلجأ الى هذه المصادر الأجنبية - على علاتها - من أجل استجلاء ملامح الدين والمعتقدات الفينيقية ، والى عهد قريب كنا نقتصر في هذه الدراسة على التوراة وكتابات الاشوريين للمرحلة المتقدمة ، ثم على كتابات الأغريق واللاتين بالنسبة للمرحلة المتأخرة في العصرین اليوناني والروماني - ولكن هذه المصادر أضيفت اليها ثروة جديدة في الفترة بين الحرين العالميتين حين كشف كلود شيفر Claude Schaeffer عن آثار «رأس شمرا» أو «أوجاريت Ugarit» قدماً - على الساحل السوري ولا زالت الحفائر والابحاث مستمرة عند رأس شمرا والدراسات لا تقطع بالنسبة لنتائجها ، ويهمنا من هذه الحفائر مجموعة النصوص التي ترجع الى القرنين الخامس عشر والرابع عشر قبل الميلاد والتي عثر عليها مكتوبة على ألواح من الطمي المحروق بحروف هجائية في كتابة مسمارية وتدور موضوعات أكثر هذه النصوص (التي أمر بجمعها الملك «نقماد Niqmad» في منتصف القرن الرابع عشر ق. م. حول الدين أو السحر ، وحول عبادة الموق أو العبادات التي تتعلق بالخصب ، وكذلك مجموعة من القصص والاساطير التي تشبه القصص الدينية في التوراة أو مثيلاتها عند السومريين والبابليين .

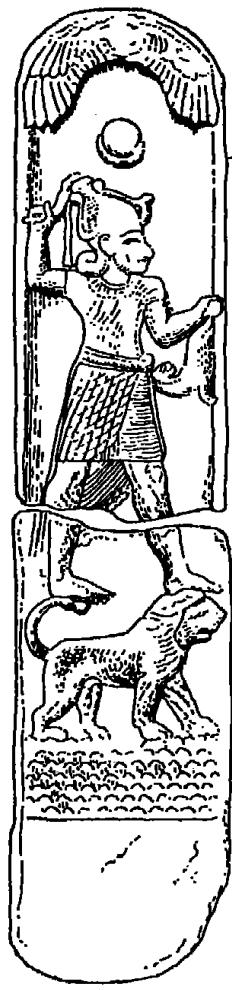
وما من شك في أن هذه المجموعة الكبيرة من النصوص هي مصدرنا الرئيسي الآن عن الآلهة الكنعانية والتي سادت أيضاً في المدن الساحلية التي كونت مجموعة من المدن الفينيقية وخاصة في الشمال.

ويأتي على رأس أسرة الآلهة الكنعانية الإله «أيل» أو «أيل داجون» (الذي شبهه الأغريق بالله «كرونوس»، وهو أبو الإله «زيوس»)، ويصور أحياناً في صورة الثور أو العجل، ومقره حقول «أيل» في الغرب، ويفهر كقرص الشمس، وهو الإله الذي يرعى الانهار ويقرر المطر.

وللإله «أيل» زوجة هي «عشيرات البحر»، وهي تمثل أيضاً الآلة الأم. وقد ولد «لأيل» و«عشيرات البحر» ولد هو «بعل»، وهو رب الجبال والمطر والعواصف ويعد أيضاً إله الجو، فهو إله في عنفوان الشباب، ومقتله التماثيل الصغيرة التي عثر عليها، وقد اخذ قرنين وملوحاً بعضاً أو مسكاً بصاعقة (شكل ٤).

وتروى لنا إحدى لوحات رأس شمرا وصفا طريفاً لبناء معبد للإله «بعل»، قام به الآلة أنفسهم بناء علىاقتراح من والدته «عشيرات البحر»، ويصف هذا النص كيف قام «بعل» نفسه بقطع أخشاب الأرض من أجل البناء، بينما يرسل ابنه «عاليان» ضوء السماء، وتقوم خادمة عشيرات بصناعة قوالب الطوب كما قامت «عشيرات» بمهمة جمع الأموال للبناء وتأسيس خزينة للمعبد.

وتذكر نصوص أخرى صفات اختص بها «بعل» فيما يتعلق بالخشب والزراعة، ولكن قبل أن نروي تفاصيل هذه الأسطورة يجب أن نذكر أن العلماء لا يتفقون حول تفسير وترجمة جميع جزئيات نصوص هذه الأسطورة، وأحياناً يختلفون حول أسماء الآلة نفسها أو ينفون وجودها إطلاقاً. فهناك من العلماء من يرفض وجود ابن للإله «بعل» يسمى «عاليان» ويفسرون ذلك بأن اصطلاح «عاليان بعل» يدل على صفة للإله يعني «الرفيع» أو «العالى»، وليس أسماء لإبن «بعل».



شكل ٤ عن Harden, op.cit., p.192

أما الاسطورة ذاتها فتدور حول صراع «بعل» (وابنه عاليان) ضد «موت» - الذي يمثل حرارة الصيف - ويبداً الصراع «بيعل» قوياً قبل وصول «موت» ، ويرسل الصواعق (من برق ورعد) والمطر مدراراً ، والرياح والأعاصير (كما يحدث في شهر شباط) . ولكن سلطان «بعل» لا يصمد كثيراً أمام قوة «موت» . ويضطر «بعل» إلى أن يخلي المجال لـ «موت» الذي يأمر بأن تسود الحرارة والدفء .

وهكذا يموت «بعل» أولاً ، وينزل إلى بطن الأرض . ويبقى ابنه

عاليان» بمفرده بعض الوقت متمثلاً في الشمر على الشجر تحت وطأة حرارة الشمس القوية ، وأخيراً يضطر «عاليان» إلى السقوط واللحاد بوالده داخل الأرض ولكنه قبل سقوطه يجتمع بأخته وزوجته «عينات Anat» (عين أونبع الماء) . (وفي تفسيرات أخرى تمثل «عينات» اخت «بعل» نفسه) ، واجتماعهما يمثل الربيع .

وتبحث «عينات» بعد ذلك عن أخيها حتى تجده تحت الأرض فتخرج جسمه وتذهب به إلى قمة الجبل «سافون»^(١) ، حيث تدفنه وتضحي من أجله . ثم تفتش عن «موت» وتسأله أن يرد أخيها إلى الحياة ، ويرفض ، فتمسك به «عينات» وتقتله ، وتصف النصوص مشهد قتلها متمثلاً في شكل سنابل القمح التي تنضجها حرارة الصيف .

وبعد ذلك أعيد أخوها إلى الحياة ، وتستأنف الدورة الزراعية سيرتها من جديد .

وهذه أسطور تتعلق بالخصب الزراعي كما هو واضح مما هو شائع في أكثر الديانات القديمة وأكثر الأساطير شبهاً بهذه الأسطورة الكنعانية ، هي الأسطورة المصرية التي تروي مقتل «أوزيريس» بواسطة أخيه «ست» وتطوف أخته وزوجة «أوزيريس» ، والمسماة «إيزيس» باحثة عن أخيها حتى تجده في «جبيل» وتعود به إلى مصر ولكن «ست» يجده مرة أخرى فيقطعه إلى أربعة عشر قطعة ويرمي بكل منها في جزء من أجزاء مصر وتتولى إيزيس مرة أخرى مهمة جمعها واحدة واحدة وتضمها بعضها إلى بعض وتقوم بتحنيطه ودفنه ثم يبعث ويولي حاكماً على العالم السفلي .

ونصوص أوجاريت التي تحدثنا عنها حتى الآن تصف دينا عناصره الكنعانية من سوريا ، وما من شك في أن هذه الديانة ذاتها والآلهة أنفسهم هم الذين سادوا أيضاً وعبدوا في المدن الفينيقية وخاصة في الشمال ، فالديانة

(١) من المرجع أن المقصود به هنا كما يفهم من حوليات سرجون ، قمة جبل في لبنان

الفينيقية كنوعية في صميمها وهذا أمر لا شك فيه ، ولكن ينبغي أن نذكر أن الدين الفينيقي لم يبق كنوعاً خالصاً فإن دوام النفوذ المصري الذي بلغ في بعض الأحيان سيطرة مصرية وعلى مراحل متطاولة متتابعة على الساحل السوري بأسره لا بد وأنه كان له أثره في مزج عناصر من الدين المصري بالدين الفينيقي ، ويتبين هذا من تماثيل الآلهة الصغيرة التي تحمل خصائص وتترن بملابس مصرية (شكل ٥) وكثيراً ما شبّهت المعبودات الفينيقية في الاعتقاد الشعبي بشبيهاتها المصرية ، كما حدث في تشبه الآلة «بعلات» ربة جبيل بالآلة «إيزيس» أو «هاتور» المصريتين ، كما يتضح التأثير المصري في العمارة والمباني الدينية الفينيقية التي اقتبست كثيراً من مصر ، ويعكّرنا أن نرى هذا الاقتباس واضحاً من ظهور أساليب العمارة المصرية على شواهد القبور ومذابح المعابد سواء في المدن الفينيقية الشرقية أو الغربية .



شكل ٥ عن Harden, op.cit., p.204.

وكذلك كان التأثير البابلي وال Assyrian أمراً طبيعياً نظراً لوجود أصل سامي لكل من البابليين والكنعانيين ، ويبدو أن التأثير البابلي وال Assyrian كان أكثر وضوحاً في مجال الطقوس والمراسيم الدينية منه في فن البناء .

ولا بد أنه وجد كذلك تأثير يوناني على الدين الفينيقي منذ العصر

الميكيني ، ولكن التأثير اليوناني من العصر الكلاسيكي لم يجد طريقه الى المدن الفينيقية إلا بعد القرن الخامس قبل الميلاد ، فمنذ ذلك الوقت نجد تأثيرات إغريقية في العمارة الدينية وفي النحت والنقش على المقابر وغيرها - ولعل كثيراً من هذه الأشياء تم صنعها بواسطة فنانين يونانيين .

وفي فترة انتشار الفينيقين في مستعمراتهم التي عمت الحوض الغربي للبحر الابيض المتوسط كانت ديانتهم وعقائدهم تشتمل على العناصر الكنعانية التي سادت في وطنهم الأصلي مختلطة بمؤثرات من عبادات الاقطار المجاورة التي سبقت الإشارة اليها ، ومع ذلك ظلت ديانتهم كنعانية في أساسها وقد نقلها المستعمرون الفينيقون فيما وراء البحار سواء في قرطاجة أو في « موتيا » أو « قادس » أو في غيرها ، فالآلهة فيها كلها واحدة في خصائصها وإن لم تحفظ بنفس الأسماء في جميع الحالات ، وكانت الطقوس الدينية تمارس بنفس الطريقة التي كانت تمارس بها في المدن الشرقية الفينيقية ، وإذا ما تراءى لنا أحياناً أن بعض التقاليد الدينية في الغرب لم يستدل على مثيل لها في الشرق فلا يمكن التأكيد بأن هذه قد أستحدثت في الغرب بل ربما كان جهلنا بجوانب كثيرة من تفاصيل العبادات في المدن الفينيقية في الشرق هو السبب في ذلك ، فلا يبعد مثلاً أن الاكتشافات الاثرية في المستقبل قد تثبت أن عادة مثل التضحية بالأبنية التي ثبت وجودها في الغرب كانت تمارس أيضاً في الوطن الأم ، وإذا لم يثبت ذلك فإن هذا يدعو الى الغرابة .

وقد ذكرنا أن كبير الآلهة حسب نصوص رأس شمرا هو الاله « ايل » ، ولكن هذا الاسم ما هو الا الكلمة السامية لالله كما يتضح مثلاً في الوهيم الموجودة في التوراة (وهي جمع إله) ونجدتها أيضاً في الكلمة العربية وقد أدخلت عليها أداة التعريف « ال » فأصبحت « ألل » ، كذلك وجدت كلمات أخرى عامة مثل « بعل » و معناها « رب أو سيد » و « بعلات » و معناها « سيدة أوربة » . و « ملك » و معناها « ملك أو حاكم » و « أدون » (العبرية ادوناي) و معناها « سيد » وهذه الكلمات العامة يمكن استخدامها منفردة أو متصلة باسم الاله .

ولا تقتصر هذه الظاهرة على المدن الفينيقية في الشمال بل يمكن أن تتبعها أيضاً في المدن الجنوبيّة حيث شاعت آلهة أخرى أو أسماء أخرى لآلهة ، فإذاً في صور هو «ملقارت» الذي رفع من شأن صور، وهو أحد الآلهة الرئيسي في الفينيقية الكبرى وخاصة في قرطاجة التي ينسب تأسيسها إلى مدينة صور حيث كان يطلق عليه عادة اسم «بعل ملقارت» وكلمة «ملقارت» هذه تتكون من كلمتين فينيقيتين وهما كلمة «ملك» أي ملك و«قارت» أي مدينة وهذا يعني أنه الله (بعل) رب المدينة وقد شبه الأغريق ملقارت «بهرقل»- ويبدو أنه في أول الأمر كان يعتبر إلهًا للشمس ، ولكنه بعد ذلك ، وبعد أن أصبح الفينيقيون أهل ملاحة ، اكتسب صفات بحرية أيضاً - وكانت لعبادته في قرطاجة أهمية كبيرة حيث أن هذه المدينة ظلت عدة قرون ترسل في كل سنة المكوس وتقديم الولاء لمعبده «ملقارت» في المدينة الأم «صور» ، وقد ظهر اسم هذا الإله في عدد من أسماء الابطال في التاريخ القرطاجي مثل «هاميلكار (= هايلقار) وبوميلكار (= بوملقار).

وكانت عبادة الإله «ملقارت» شائعة في «قادس» حيث أقيم له معبد بواسطة جماعات من الفينيقين من مدينة صور يرجع تاريخه، حسب الاعتقاد السائد، إلى القرن الثاني عشر قبل الميلاد ، وقد ظهرت صورة له على عملة «قادس» في عصور متأخرة - وقد أورد الشاعر اللاتيني «سيليوس ايتاليكوس» (في القرن الأول بعد الميلاد) وصفاً لهذا المعبد حيث يقول إن المعبد باق دون أن يلحق به أذى ولا زال الكهنة يتبعدون فيه ، حسب الطريقة الفينيقية القديمة ، حفاة الأقدام ، يرتدون الملابس الكتانية ، وإن هناك ناراً دائمة الاشتعال دون أن يوجد في المعبد أي تمثال للعبادة .

وكما كان لصور إلهها «ملقارت» كذلك كان لمدينة صيدا إلهها «أشمون» الذي شبهه الأغريق «باسكليبيوس Asclepius» وكان في أصله إله أرضياً يتصل بالحياة الزراعية - ولكن كان من خصائصه، مثل «اسكليبيوس»، العناية بأمر الصحة وعلاج المرضى - وبوصفه إله أرضي يتصل بالحياة الزراعية فقد رمز للخصب وجعلوا له زوجة إلهية هي «عشتاره»

(Astarte) وبناتها عند البابليين «تموز» و«عشتار» وعندهما الإغريق «أدونيس» و(فينوس) وعند المصريين «أوزريس» و(إيزيس).

هكذا كان أشمون أكثر من إله محلي لصيدا ، وهناك ما يدل على أنه اكتسب أهمية كبيرة في قرطاجة أيضاً ولعله فاق الإله ملقارت نفسه فقد وقف القرطاجيون في دفاعهم الأخير عن مدinetهم في سنة ١٤٦ ق . م . عند معبد هذا الإله الذي كان موجوداً في قلعة المدينة .

هذه هي أهم الآلة الفينيقية الأولى التي سادت في الشرق ووُجِدَت طرقها إلى الغرب أيضاً ، وهناك آلة غيرها كثيرة مثل «رشف» (Resheph) الذي كان إلهًا للبرق والضوء ، وشبهه الإغريق بـالإله «أبولو» ، وقد عبد أيضاً في قرطاجة حيث وجد له معبد خاص به وبـالإلهة «شبشب Shapash» التي تُمثل الشمس وتظهر في أسطورة الصراع الذي حدث بين «بعل» و«موت» .

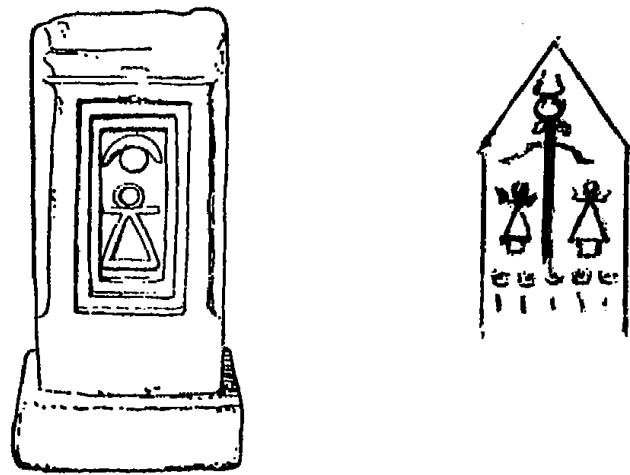
وما دمنا قد أشرنا فيها سبق إلى أن مؤثرات خارجية قد أثرت على ديانات ومعتقدات الفينيقيين فلا بد لنا كذلك من أن نبين أن الآلة الفينيقية لم تكن جماعتها سامية الأصل وإنما هي خليط من آلة سامية وأسيوية شأنها في ذلك شأن الآلة التي عرفت وعبدت في بلاد النهرين حيث نجد آلة سومرية الأصل آسيوية مختلطة بـآلة بابلية سامية ، ويكشف هذا الاختلاط في الآلة الفينيقية الأسطورة التي تروي بشأن بناء معبد للإله «بعل» ، فبينما يبدو أن الإله «بعل» آسيوي الأصل وأنه لم يكن واحداً من أسرة الآلة السامية التي يرأسها الإله «ايل» وهو يقابل عند السومريين وعندهما الـإله «داد» أو «حداد» فهو يمثل كبير الآلة الآسيوية الأصل إلا أنه أقحم في أسرة الآلة الكنعانية السامية حيث تذكر الأسطورة بأنه لم يكن له معبد في أول الأمر في حين أن الآلة الأخرى كانت لها معابدها ، ثم أذن له الإله «ايل» في أن يتخد له معبداً وعلى ذلك ينبغي أن نفهم من هذه الأسطورة أنه الحق بأسرة الآلة الفينيقية مؤخراً .

ولا شك في أن هذا الإله قد انتقلت عبادته إلى الغرب مع الفينيقيين سواء

في مدينة قرطاجة أوفي غيرها من المستعمرات - ففي قرطاجة عبد إله كبير له خطره باسم «بعل هامون» وكان الإغريق والرومان يشبهونه بالإله «كردونوس» الذي كان له معبد في قرطاجة تردد ذكره في بعض النصوص وكان من قبل يشبه بالإله «زيوس Zeus» لأنه هو الإله الذي يظهر في قسم «هانيبال» أمام والده عندما تعهد بعداوة أبديّة لروما ، وقد عثنا على كثير من شواهد المقابر الفينيقية في الغرب مقدمة للاله «بعل هامون» والإلهة «تانيت» المسماة (Tanit Bene Baal) ومعناها الآلهة «تانيت المواجهة لبعل أو وجه بعل». أي أن «بعل هامون» في هذه الشواهد يظهر على أنه الإله الأول. ولكن هناك شواهد أخرى مقدمة اليه وحده مما يدل على مكانة هذا الإله، وما من شك في أن هذا الإله ما هو إلا الإله «بعل» الشرقي الذي يشابه في هيئته الإله «آمون» المصري ، وربما كان ذلك لأن الإله «آمون» كان له معبد ذاتع الصيت بالنسبة للساحل الافريقي الشمالي بأسره وهو المعبد الموجود في واحة سيوه ، ومتى يزيد في تأكيد هذا التشبّه أن الإله «بعل هامون» كان يمثل بقرني الكبش ولتحياً مثل الإله «آمون» المصري .

أما الآلهة الأخرى ، التي نقابلها في الغرب وهي «تانيت» فتمثل لنا مشكلة ، لأن اسم «تانيت» غير معروف في مجموعة الآلهة التي عبدت في المدن الفينيقية الشرقية . ونظراً لأننا لا نعرف في الشرق إلهة تشبهها شأنًا غير عشتّرته » فقد درج الباحثون الحديثون على تشبّهه يصطدم ببعض الصعوبة وخاصة بعد أن عثنا على شاهد من القرن الثاني ق. م . في قرطاجة أقيم تحية للآلهة «عشتّرته وتانيت لبنان» فليس من المؤكد إذا أن «تانيت» لبنان هي نفس الآلهة «تانيت وجه بعل» ، لأن عشتّرته كانت رمزاً للخصب ومرتبطة بالأرض بينما كانت «تانيت بعل» ، ربة سماوية مرتبطة أساساً بالقمر ولعل الهمال والقرص اللذان يظهران على كثير من المباني الدينية والجنسية في الواقع الفينيقي الغربي كانا يمثلان الإلهة وزوجها «بعل هامون» وفي بعض الأحيان كان يرمز إليها بيد مرتفعة أو بصلجان أو بما يسمى «علامة تانيت» فاليد تمثل من غير شك المباركة والحماية وهي رمز لا يزال استخدامه شائعاً في كثير من البلاد الشرقية العربية .

وكان الصوجان يتخذ شكلاً مؤلفاً من هلال وقرص فوق عصى ، تتخذ شكل الشرائط (شكل ٦) أما علامة «تانيت» فهي رمز غامض يتكون من مثلث على رأسه قرص وينفصل عنه بزراعٍ أفقي ، ولكن كثيراً ما أدخلت على هذا الشكل تعديلات جزئية ، وأحياناً يضاف إليها هلال مقلوب فوق القرص ، والشكل النهائي يشبه الجسم الانساني (شكل ٦ب) . وهي شديدة الشبه أيضاً بعلامة «عنخ» المصرية التي ترمز للحياة ، ولكن ليس هناك دليل قاطع على أنها مشتقة منها سوى أنها تشبهها في الشكل ، ولم توجد هذه العلامة إلا في الغرب فقط ولا نجد لها أثر قبل القرن الخامس ق . م .



شكل ٦ عن Harden, op.cit., p.163 شكل ٦ عن Harden, op.cit., p.99

ويؤكد بعض العلماء أن تغييراً جوهرياً حدث في الديانة الفينيقية في قرطاجة أثناء القرن الخامس ق . م . وأنه نتيجة لهذا التغيير فقد «ملقارب» و«عشترته» مكانتهما واحتلتها «بعل هامون» و «تانيت بني بعل» . ومثل هذا

التغيير يعني انقطاع الصلة الدينية بين قرطاجة والمدينة الأم ، وأنه قد صاحب هذا التغيير انتشار للأفكار الدينية في مصر ولبيبا ، وأن التغيير الديني لم يخل من رد فعل سياسي أدى إلى انقسام بين بعض الأسر الكبيرة ، فمنها من تمسك بالآلهة الكبرى القديمة مثل «ملقارب» ومنها من تبعد للآلهة الجديدة التي شاعت وانتشرت .

وما هو جدير بالذكر أن بعض الآلهة المصرية وجدت طريقها إلى قرطاجة مثل «هاتور» و «أوزيريس» و «إيزيس» ، ولكن أكثرها إنتشاراً كان «بس» وهو إله ثانوي يمثل في هيئة قزم قبيح المنظر وكانت تماثيله الصغيرة تستخدم كتمائم بعضها صنع في مصر وبعضها صنع في قرطاجة .

وأخيراً يمكننا أن نذكر إنما شاعت عبادته في العصر اليوناني الروماني ، ويعتبر بذلك آخر مراحل تطور العبادة الفينيقية بعد أن امتزجت أيضاً بمؤثرات إغريقية ، ونقصد به الإله «أدونيس» الذي تتصل عبادته أشد الاتصال بالإلهة «عشتارت» وتصوره الاسطورة المتعلقة به في هيئة شاب قتله خنزير وحشي كان يصيده وأن عشيقته «عشترته» نزلت إلى طبقات الجحيم لتنزعه من الموت .

أما القصة الثانية في ثوتها الأغريقي الذي يرجع إلى القرن الخامس ق.م . فتذكر أن «أم أدونيس» كانت قد تحولت إلى شجرة عند ولادته ، ولما ولد التقطتها «أفرو狄ت» ، وهامت به حباً ، ثم حدث خلاف بين «أفرو狄ت» وربة أخرى بشأنه وكانت «أفرو狄ت» تعرف مصيره المشئوم ، فحاولت منعه عن الصيد فلم تفلح ، ومات «أدونيس» من ضربات الخنزير الوحشي ، ثم أعادته أفرو狄ت إلى الأرض .

ويتبين من ميلاد «أدونيس» الغريب أنه أحد آلهة الزراعة والطبيعة فهو روح النباتات المعبد في كل فينيقيا ، وكانت له أعياد سنوية اسمها «الأدونيات» ، ومع ذلك فهناك غموض يكتنف هذا الإله ، إذ لم يعثر على اسمه مذكوراً في أي نص فينيقي أو يوناني أو لاتيني من النصوص المكتشفة في

فينيقيا ، وليس اسمه سوى صيغة متأخرة من الكلمة السامية «أدون» بمعنى السيد .

ولم تكن التسمية «بأدونيسيس» شائعة عند غير اليونان ، ففي الشرق (في العبرية والسريانية) كان الإله «تموز» الذي عبد في بلاد النهرین باعتباره المختص بالخصب والأنبات ، هو المقابل لهذا الإله .

ولكن هناك إشارة متأخرة عن هذا الإله تزيل بعض الغموض عنه ، جاءت فيها ذكره الكاتب «دمستيروس» (Damscius) (من القرن الرابع الميلادي) حيث يقرن أسطورة «أدونيس» بأسطورة «اسكليبيوس» (إله بيروت) إذ يقول : «ليس أدونيس مصرياً ولا يونانياً ، بل فينيقيا ، وأنه يسمى «ايسمونوس» وإنه ابن «صاديقوس» .

وبرغم تأخر هذه الرواية فإنها تلقي بعض الضوء على شخصية هذا الإله الفينيقي ، وتفيد أن اسم أدونيس غطاء أو لقب وضع فوق اسم أشمون على نحو يخفى لقب « Buckley » وهو الاسم الحقيقي الذي يسمى به الإله الأعظم ، وأما ارتباط مولده بشجرة فهو تصور طبيعي في بلد ذي غابات ، وتجارة الخشب كانت من أهم صادراته .

أما الصلة بينه وبين عشتار特 فهي انعكاس للبيئة أيضاً . « فأدونيس » رمز الخصب والأشخاص ، وإذا جاء الريح في الصيف القائل قضى على ذلك الخصب (وتترجم ذلك الأسطورة فتقول قتلته خنزير وحشي) كي ينبعث مرة أخرى . أما «عشترت» فكانت تندب موت حبيبها «أدونيس» حتى يعود .

سادساً: الفن

(١) : الأصول :

لا يخدعنا عن الفينيقيين شيء بقدر ما تخدعنا فنونهم ، فلا يمكن إنكار أن فناني فينيقيين ولدوا في فينيقية وثقافتهم فينيقية كانوا يتميزون بهذه الفنون وتألقوا فيها ولكن حينما نتلمس تمييز ابتكاراتهم الفنية أو تحديد مميزات الفن الفينيقي فإننا نواجه صعوبات جمة .

فحوالي نهاية عصر البرونز^(١) وجد خليط عظيم من العناصر الفنية على الساحل السوري وما وراءه ، ومنذ عهد الأسرة الثانية عشرة المصرية إن لم يكن قبلها عرفت القطع الفنية المصرية الرائعة لدى السكان الكنعانيين ، أي أنهم قلدوا الأشكال المصرية ومظاهرها على أشياء صنعواها محلياً - وظلت التأثيرات المصرية تنفذ إلى الفن في الليفانت^(٢) في عهد ملوك الأسرة ١٨ الأقوية ، ولذا لا يدهشنا أن هذه الاتجاه ظل قوياً حتى بعد تدهور قوة مصر في عهد الرماسنة المتأخرین .

ولم تكن تأثيرات بلاد النهرين الفنية واسعة الانتشار في الألف الثاني ق. م. كالتأثيرات المصرية ، ويلحظ ذلك بصفة خاصة في فن حفر الأحجار الكريمة ففي الاختام الاسطوانية وأختام (الضغط) التي تعرف باسم الاختام

(١) انتهى عصر البرونز حوالي نهاية القرن الثاني عشر ق. م. وهو ينقسم إلى : برونز قديم ٣٠٠٠ - ٢١٠٠ ق. م. ، برونز متوسط ٢١٠٠ - ١٥٥٠ ق. م. برونز حديث ١٥٥٠ - ١١٠٠ ق. م.

(٢) الليفانت يقصد بها ساحل الإقليم السوري وما وراءه في الداخل .

السورية الحبيبة يظهر في مظاهرها وأسلوبها أنها مأخوذة عن الأشورية والبابلية ولكن مع فوارق واضحة وخلط من بعض المظاهر المصرية تدل على أنها نسخ مقلدة - فلم يكن هناك تأثير ميزوبوتامي^(١) قوي على الفنون العظمى في سواحل الليفان حتى بلغت اشور مركز الصدارة في الأول ق.م . - وقبل ذلك كانت رسوم الليفان المنحوتة وطرزها تعتمد أكثر على مثيلاتها في الأناضول - وما كشف عنه في أوجاريت مثل لوحة «إله الجو» الشهيرة (شكل٤) يبدو فيه الكثير من المؤثرات الحبيبة في الزي والسبايا ولكن الأوضاع والمواقوف كانت أكثر ميلاً إلى التأثير المصري ، وفي القرنين الخامس عشر والرابع عشر ق. م . جلب الحوريون (الميانيون)^(٢) مؤثرات حضارية مختلفة ، ولكن لم يكن لهؤلاء الناس فن تميز خاص بهم - ولا يمكن أن ننسب لهم منتجات فنية سوى بعض الاختام الاسطوانية والفالخار الحوري الأسود الملون بالأبيض .

وقد وجدت كذلك مؤثرات إيجيبية حيث عثر في أوجاريت على لحاف (قطع) من الفخار المتعدد الألوان من العصر المينوي^(٣) الوسيط ترجع إلى أوائل الألف الثاني ق. م . فقد عثر مثلاً على جزء من قدح فضي في بيلوس عليه رسوم حلزونية من طراز كريتي - ولكن ربما يغلب على هذه المؤثرات أنها كانت بطريق غير مباشر ، وليس بطريق مباشر ، إلى أن حل النصف الثاني من الألف الثاني ق. م . حينها نشر الميكينيون مستوطناً لهم شرقاً .

ولم يعثر في التنقيبات الدقيقة بأي موقع كبير على أي شيء يرجع إلى عهد أقدم من القرن السادس ق. م . وليس معنى هذا أن الواقع الأثري في الوطن الفينيقي لا توجد بها ولن توجد آثار من عهود أقدم ، ففدي وجدت في

(١) درج بعض الباحثين على اطلاق اسم ميزوبوتاما الذي يعني أرض الجزيرة (أي ما بين نهري دجلة والفرات) على بلاد النهرين بأكملها على سبيل التجاوز ، والمقصود من كلمة ميزوبوتامي هنا أي يتسبّب إلى بلاد النهرين .

(٢) شعوب غير سامية ظهرت منذ منتصف الألف الثالث ق.م . وأصبح لهم كيان سياسي من منتصف الألف الثاني ق.م . في شمال بلاد النهرين وسوريا .

(٣) نسبة إلى الحضارة المينوية التي ظهرت في كريت .

لبنان مقابر في «خربة سلم»^(١) و«قريعة»^(٢) و«خلدة»^(٣) عثر بها على فخار يرجع إلى أقدم عهود عصر الحديد ، وربما يتوج عن استمرار التنقيب نتائج أفضل ، وفضلاً عن ذلك فإن برونزيات صغيرة وأشياء أخرى صغيرة من طراز فيينيكي أمكن الحصول عليها بالشراء وهذه لا بد أنها جاءت من إحدى مدنها ، ويمكننا كذلك أن نستنتج من أشياء طرازها فيينيكي جاءت من موقع فلسطينية ، من أوائل عهد الملكية العبرية ، مثل حazor وMigdo وسامريا وكذلك من موقع في سوريا واشتر أنها ربما كانت من صنع فنانين فيينيكيين ، غالباً ما يكون عسيراً تمييز الطراز الفينيكي الحقيقي عن طراز مماثل خليط من ساحل سوريا الشمالي وما جاوره في الداخل - والفن الفينيكي الحقيقي يشف عن تأثير مصرى أقوى مما يمكننا تمييزه من تأثير المنطقة السورية حيث سادت التقاليد الآسيوية (وخاصة الحيثية) فقد توجد به بعض المظاهر الميزوبوتامية ولكنه كذلك يحتفظ بظاهر ميكينية ولو أن هذه أندر مما كان يمكن توقعه نظراً لما عرف عن قوة التأثير الميكيني في مجالات أخرى من حضارة الشرق .

(ب) عصر البرونز الأخير :

لكي نوضح الفن الفينيكي الناشيء يمكن ان نبدأ بتابوت احيرام من بيبلوس فهو وإن كان من عمل القرن الثالث عشر ق . م . إلا أن احيرام أعاد استعماله في أوائل القرن العاشر ق . م . وأصبح المؤرخون يجمعون على تاريشه بزمن كتابة نقوشه أي (بالقرن العاشر ق . م) . وتمثل المناظر التي على جانبيه الطوليين حاكماً ملتحياً يجلس على عرش بجانبيه أشكال مجنة لأبو الهول وأمامه موكب من سبع خدم ومتعبدين يتقدمون نحو مائدة موضوعة أمامه محملة بالأطعمة وفي أعلى المنظر صف من اللوتس ، فالكثير من هذا الطراز مصرى ولو أن الأشخاص الممثلين في المناظر يلبسون ملابس ليفانتينية تشد عند الخصر بزنار (حزام) ، وعلى كل من جانبي التابوت المستعرضين أربعة من النساء النائحيات عاريات الصدور - وتمثل في أسفل التابوت أربعة أسود كما

(١) جنوب غربى بنت جبيل وشقا (المثارة) وشمال غربى صور .

(٢) القرية شمال صيدا بالقرب من دير المخلص .

(٣) خلدة جنوبى بيروت .

يمثل اثنان منها على حافة غطاء التابوت ، على جانبيها أشكال رجال ملتحية - وعلى الغطاء من أعلى نقش محفور يمثل شخص الملك بطوله - وتذكرنا الأسود بأشكال مشابهة في الفن الاشوري والحيثي - وأشكال الرجال والأشكال التي على الاطار ليفانتينية سورية أما حزام اللوتس فهو مصرى باكمله .

وتدين لوحة عاجية وجدت مع هذا التابوت وتماثيل مجموعة عاجيات مجدو الشهيرة^(١) ، من أمشاط وصناديق أدوات تجميل وملاءق وتطعيمات الأثاث ، خليط من الاتجاهات الفنية المصرية والливانتينية - فكثير من الأثاث والزخرفة في المناظر مصرى ولكن أشكال الأشخاص آسيوية ومعظمها يلبس زياً محلياً - وصراعات الحيوان التي تزين كثيراً منها تبين خليطاً من الطرز الآسيوية والآسيوية - وقد عثر على قطعة من حوالي هذا التاريخ في «مينة البيضا» (ميناء أوغاريت) مثلت عليها إلهة على جانبيها حيوانات وهما في مظهرها أكثر شبهاً بالفن الإيجي (إن لم تكن في الواقع من صناعة إيجية) وخاصة في نقبتها المزركشة وجذعها العاري - وهي تدل بوضوح على قوة التأثير الإيجي على شمال سوريا حيث نجد فيها إلهة في زي إيجي بينما تمثل بقية القطعة مظاهر أخرى محلية (شكل ٧) .

ومن طلائع القطع الفنية الفينيقية التي ظهرت فيما بعد تماثيل كثيرة ببرونزية صغيرة من أوغاريت وبيلوس و«إينكومي» (في قبرص) وموقع أخرى من عصر البرونز الأخير ، وقليل من هذه كان من موقع في الساحل الفينيقي مثل «بيروتوس» (بيروت) أو «انتارادوس» (طرطوس) أو من فلسطين مثل «مجدو» ، ومعظمها سبائك من معدن رقيق عادة وهي سيئة التشكيل وتمثل آلهة أو إلهات (بعض المحلي واستارته) يلبسون أزياء بسيطة أو عراة وكانتوا أحياناً يصنعون أزواجاً أو في مجموعات كل منها أربعة وكل منها تفتقر إلى مزايا خاصة ولكن تجمعها صفات مشتركة - فالأشكل تلتزم وضعاً أمامياً كثيناً وغير جذاب - ويوجد أيضاً طراز أحسن من التماثيل الصغيرة صنع باتفاق في موقع من عصر البرونز المتأخر عثر على أمثلة لها في أوغاريت وأماكن أخرى .

(١) مجموعة من أكثر من ٢٠٠ قطعة وجدتهابعثةأمريكية في أطلال ثلاثة غرف من مبنى يظن أنه كان قصر حاكم مجدو - وهي صناعة فينيقية في الغالب .



شكل (٧) عن Harden, op.cit., p.60

(ج) القرن التاسع ق . م . وما بعده في الوطن الفينيقي :

توجد فجوة كبيرة بين طرز عصر البرونز المتأخر وبين طرز المجموعة التالية إذ أن هذه لا يوجد من بينها ما يرجع إلى ما قبل القرن التاسع ق.م. ولا يمكن أن توجد مثل هذه الفجوة في الشواهد الأثرية الأخرى، فمهما كان الأمر لم يعثر على ما يدل على حدوث فترة توقف طويلة في استمرار المدن الفينيقية نفسها حتى بعد إغارة شعوب البحر على الساحل السوري، وفضلاً عن ذلك فإن المجموعتين تتشابهان في الطراز ولا يمكن التعرف إلا على فجوة ضئيلة أو لا توجد على الإطلاق في التقاليد الفنية.

فمجموعة العاجيات من «السامرة» و«ارسلان تاش»^(١) والأماكن الآشورية «غمرود» و«خورسباد» التي ليست كلها من طراز واحد يظن أنها تغطي فترة تزيد على مائة سنة من آخر القرن التاسع ق . م . إلى القرن الثامن ق . م . - وطال الجدل بين العلماء حول ما يمكن ، ان نعزوه إلى مدارس فينيقية وما يمكن نسبته إلى مدارس سورية (أي ما يعرف حالياً بأنه آرامي وليس كنعانياً) أو ربما مدارس أشورية .

والبعض يميز بين مجموعتين رئيسيتين : مدرسة فينيقية وأخرى سورية ، والأولى تبين خليطاً قوياً من المظاهر المصرية والآسيوية في أسلوب فينيقي غنوجي ومنها مثلاً لوح وجد في «ارسلان تاس» تتمثل عليه «امرأة في النافذة» تتبع للإلهة «استارته» وموضع اللوح كنעני في جملته ولكن المرأة ترتدي شعراً مستعاراً مصرياً (شكل ٨) وهناك لوح آخر من «ارسلان تاش» أيضاً طرازه أكثر مصرية إذ يبين امرأة في زي ومظاهر أساسها ما تميزت به الإلهة المصرية ايزيس مجنة وتتسك زهور اللotos (شكل ٩) ولكنها تواجه شجرة حياة آسيوية ولا يمكن أن يوجد مثال أحسن منه يوضح المؤثرات المصرية .

ومن صيدا وجد إناء من العظام في هيئة امرأة مجوفة الجسم وتلبس رداء ذو أكمام طويلة وتبعد ملامحها آسيوية أكثر منها مصرية وإن كانت تضع شعراً

(١) قرية كردية كبيرة على بعد ١٥٩ كم من حلب في الطريق إلى الموصل جنوب شرقى قرقميش .



شكل (٨) عن Harden, op.cit., pl.61



شكل (٩) عن Harden, op.cit., pl.70

مستعاراً مصرياً ومن بيروت وجد تمثال صغير من العاج كان جزءاً من إماء للدهون وهو يمثل امرأة تلبس رداء طويلاً بحزام وصدرها عاري في الطراز الآسيوي المأثور .

ومن هذه يتضح أن الفنان الفينيقي (والواقع أن الفنان السوري أيضاً إذا لم يكن فينيقياً ينبع في طراز سوري) كان يتمتع بالتحكم جيداً في المادة وبالإحساس التام بالإنشاء حيث استطاع أن ينفذ منظراً معقداً في فراغ صغير محدود دون أن يبدو فيه اكتظاظ أو حشر، وتشكيله للتماثيل جيد أيضاً وخاصة إذا اعتبرنا عدم طواعية العاج - ومن العسير أن نقرر بأن تصميماته التي تبدو دينية لم يقصد بها إلا أن تكون زخرفية فحسب وليس لها قصد ديني ، ولا ينطبق ذلك على العاجيات فقط بل ينطبق أيضاً على الفنون الفينيقية الأخرى بما في ذلك فن الطرق أو صناعة الأقداح المعدنية ، وهي مثل العاجيات تكاد توجد في كل مكان فيها عدا فينيقياً ، فهي تأتي من أماكن في أشور ومن قبرص (بكميات وافية) ومن اليونان ومن أتروريا - بل وكثير منها مصرى في مظهره أكثر من العاجيات والبقية ليفانتينية أو حتى أشورية أكثر في مظهرها ولو أنه لا توجد واحدة منها تخلو من مسحة مصرية - وقد أدى عدم العثور عليها في فينيقيا إلى اعتقاد البعض بأنها يمكن أن تكون قبرصية ولكن يبدو أن الطرز المصرية الأشورية الخلطية في زخارفها تدل على موطنها الأصلي الرئيسي لأنه إذا كانت هذه قبرصية فإنها تكون أقل تأثراً بالمؤثرات المصرية وأكثر تأثراً بالطرز اليونانية الهندسية الشبيهة باليونيكينية .

وتبيّن قطعة من إماء فضي «أماتوس» خليطاً تماماً في الطرز ، ففي الإطار الخارجي رماة سهام أشوريون وجندو يونانيون يهاجمون مدينة على اليمين بينما ترتفق جنود ملائهم مصرية الأسوار على اليسار ومصريون آخرون يقطعون أشجار إيجية ذوات محورين وفي الإطار الثاني نجد آلة مصرية وجعنانا مجذحاً موضوعة على قواعد أو مذابح في صورة مصرية ، وبالقرب من ذلك فينيقيان (أو آسيويان على الأقل) يسكنان بعلامة الحياة (عنخ) المصرية على جانبي زخرف فينيقي من ساق النخيل في طراز غنوجي .
وفي «براينيست» باليطاليا عثر في قبر «برنار ديني» الذي يعود إلى أواخر

القرن السابع ق.م. على انانين مختلفين تماماً - فأخذهما فضي يكاد يكون مصري الطراز تماماً ويتوسطه رسم يمثل فرعوناً يقتل اعداءه وحوله أربعة قوارب من البردي تحمل الله أو جعارين مجنة إلا ان رسماً لأسد مظهره آسيوي تحت الفرعون ، وفي الحاشية رجل سوري (ليفانتيني) جاثم ذو لحية - ويوجد نقش طويل يشبه الكتابة الهيروغليفية غير انه لا معنى له ولكن يوجد نص فينيقي أيضاً (أضيف فيما بعد) يعطينا اسم صاحبه وهو «اشمونازار» بن «استو» وهذا هو أكثر هذه الأواني كلها مصرية في مظاهره وإن كان بالتأكيد غير مصري الصنع (شكل ١٠) - أما الثاني الفضي المموه بالذهب



شكل (١٠) عن Moscati, op.cit., p.74

فهو في أساسه آسيوي في هيئته بإطار الرسم الخارجي به يحيى عربات حربية ورماة سهام وبناء اشوري المظهر جداً، له أبراج ولكن يوجد كذلك جعران مجذح - والإطار الداخلي به ثمانية خيول تسب وبعض الطيور - أما في الوسط فيوجد خليط من الأشخاص من طراز مصرى وأسيوي والمظهر الخاص الغريب في هذا الاناء هو ذلك الشaban الذي يحيط الرسم بأكمله (شكل ١١) واستناداً إلى أن الانائين وجدا معاً يفترض معه أنها تقريرياً متعاصرين مما يجعلنا



شكل (١١) عن Harden, op.cit., p.190

نعجب لأن مثل هذه الرسوم المختلفة أمكن أن تخرجها مصانع فينيقية في وقت واحد - ويمكن أن نلاحظ خليطاً آسيوياً مصرياً ماثلاً على الآناء الفضي الممه بالذهب الشهير الذي من «إيداليون» في قبرص ، ففي الافريز الداخلي نرى مناظر قتال - آدميين مع أسود وحيوانات (خرافية) مجذحة وأشكال أبوالمول - أما الدائرة الوسطى فهي تشبه الدائرة الوسطى في آناء براينستي حيث أن بها منظر فرعون يقضي على أعدائه (شكل ١٢) .

ويبدو تذوق الفنان الفينيقي بوضوح في تأليف المناظر وخاصة حينما يعالج إطاراً دائرياً وهو ما نلمسه في كل الأواني ، فمع أن مناظرها بها الكثير من التفاصيل إلا أنها تتناسق في سهولة ودون تراحم ولذا لا نعجب لما ذكره هومر عن شهرة الفنانين الصيدليين .



شكل (١٢) عن Moscati, op.cit., p.72

وقد أنتج هذا الوطن الأصلي في هذه الفترة أقداح معدنية في هيئة تماثيل أكثر من الطرز السابقة ، والأسلوب العام يذكرنا بأواني العاج التي عثر عليها في صيدا (وفي بيروت) التي سبق أن أشرنا إليها - ^(١) هذا وقد عثر على تمثال آخر صغير من البرونز وهو يمثل أثني تلبيس نقبة ثلاثة الشيايا تصل إلى الركبة ويحتمل أنه من أصل إيجي ، وكل هذه التماثيل ممثلة في الوضع الأمامي الجامد ولا يمكن الادعاء بأنها عمل فني حقيقي .

ومثال الذكور الصغيرة التي من تلك الفترة يصعب تمييزها عن بشارير هذه التماثيل التي ترجع إلى أواخر الآلف الثالث فهي خشنة سيئة التشكيل ، وربما كان انتاجها على نطاق واسع لاهداها إلى أحد الهياكل ومن هذه مثال لشخص يرتدي غطاء رأس مخروطي ويقبض بيديه على طبق غير عميق Patera ويجلس على عرش على جانبيه أسود بوجوه آدمية .

أما في مجال نحت الأحجار فإنه يذكرنا بالأساليب الفنية التي اتبعت في العاج ، ومن ذلك لوحة من القرن التاسع ق. م. من «ماراتوس (عمريت:جنوب طرطوس)» ارتفاعها ١,٧ مترًا عليها نقش يمثل قرصاً مجمنحاً مصري الهيئة وقرصاً فينيقياً وهلالاً فوق الإله « Buckley » في زي مصرى وتاجاً وثعباناً، ومع ذلك يقبض على أحد الأشبال ويقف فوق أسد يقف بدوره على ما يرمز إلى الجبل أو العاصفة (شكل ٤) ^(٢) وكلها اتجاهات يمكن بسهولة مناظرتها في الفن الأشوري .

ويوجد نقش جميل في المرمر من أرورد يشبه كذلك العاجيات في كثير من التفاصيل ، ويحتمل أنه من نفس العصر تقريباً ، فعليه منظر لسجادة مزخرفة بأشكال في هيئة تخيل فينيقية مشذبة بين حواف منقوشة ، (وهذه السجادة) تعلو شكلاً جائعاً لأبو الهول وهو مجمنح ويلبس التاج المزدوج - وفي أسفل

(١) انظر ما سبق ص ١٥٦، ١٥٨.

(٢) انظر أعلاه ص ١٤١.

اللوحة مذبح منخفض أو منضدة (شكل ١٣) - وهناك نقش مهم يحتمل انه من نفس الأثر عليه منظر سجادة مشابهة في زخرفها ولكنها هنا تعلو زوجا من الحيوانات الخرافية المجنحة مثل ما نقش على قطعة عثر عليها في مالطة ، وليس من بين هذه الأمثلة ما يرجع إلى وقت متأخر عن القرن السابع ق.م.



شكل (١٣) عن Harden, op.cit., p.192

وترجع التوابيت الحجرية التي في هيئة آدمية من صيدا ومن الغرب الى القرنين الخامس والرابع ق. م. فهي أحدث من كل ما ناقشنا سابقا وهي غالبا مؤنثة ويفتهر في القليل منها تأثير مصرى ملحوظ في شكل وزينة رؤسها ، وإن كان الفنانون سرعان ما تحولوا الى الاسلوب الجديد من تصوير ملامح وزينة رأس يونانية ، ونادرًا ما مثلوا من الشخص أكثر من رأسه وبقية الجسم مستدق في هيئة موبياء وينتهي بعارضه مفرطحة تمثل القدمين ، وبعض أمثلة من الغرب تظهر الهيئة الآدمية والزي بصورة أكثر وضوحا .

وتوضح هذه التوابيت كيف كان الفن اليوناني يغزو الوطن الفينيقي في

هذا الوقت - ففي نفس مقبرة «تابنيت» ملك صيدا التي حوت تابوتا مصرية وجدت دفනات متأخرة في توابيت مظهرها يوناني بأكمله وتؤرخ بالفترة ما بين أواخر القرن الخامس وأوائل القرن الرابع ق. م. ، وأقدمها المعروف باسم تابوت «الستراب» (الوالى) مصنوع من رخام باري وله غطاء سنامي (منحني) مزخرف «بقواعد عليا» Acroteria وعلى أحد جانبيه الطوليين يمثل رجل جالس وخدم وحصان وعجلة حربية وعلى الجانب الآخر يمثل صيد فهد ، والجوانب القصيرة عليها أربعة شبان يتحدثون ومنظر حقل - وآخرها تابوت الاسكندر المصنوع من رخام بيتنل Pentelic marble (من أتيكا باليونان) وعلى أحد جوانبه معركة اليونان والفرس وفي وسط المعمدة يرى الاسكندر بلباس رأس من جلد الأسد - ولا يوجد شيء فينيقي في طرازه - فمن هذه التوابيت نلمس اقتراب فناء الفن الفينيقي والثقافة الفينيقية التي ظلت قائمة أكثر من خمسة مائة عام .

ولقد جاءت النهاية سريعة حقا ، ومع ذلك توجد بعض الآثار من طراز فينيقي حقيقي يحتمل أنها كانت معاصرة تقريبا لهذه التوابيت - وربما يكون أجملها لوحة «بعلياتون» ، من «أم العمد» التذكارية الموجودة حاليا في «كوبنهاجن» وهي تصور «بعلياتون» نفسه (الذي يحتمل أنه كان رجل دين) ووجهه واضح الملامح ويلبس رداء سابغا وغطاء راس قصير مستدير - وفي أعلى اللوحة قرص مجنب وثعابين (شكل ١٤) ، وهذه اللوحة تعد أحسن من اللوحات العديدة المماثلة التي من صور أو من «أم العمد» جنوب صورو وهي جميعاً من تاريخ متقارب ربما كان القرن الرابع ق. م. او متأخر عن ذلك قليلاً وفن تصويرها يبدو فيه التأثير اليوناني - والقطعة الأخرى المعاصرة هي لوحة ييهاوملك Yehauomilk من بيلوس تبين رجلاً ملتحياً في رداء طويل بعباءة وغطاء رأس مستدير منخفض ويمسك بطبق مسطح أو قليل الغور Patera^(١) نحو الإلهة حتحور جالسة ولها غطاء راس ذو قرون ، ولباس الرجل فارسي المظهر ولكن من الواضح أنه فينيقي لأنه يشبه بعض أشكال أشخاص كهنوتية فينية شرقية من تاريخ أقدم (وكذلك بعض أمثلة غربية) ، ومثل هذه القطع تلتها أمثلة

(١) طبق مسطح من الفخار أو الفضة لصب سوائل القرابين .



شكل (١٤) عن Harden, op.cit., pl.43, p.137

قليلة مماثلة ولكن غزو الاسكندر قضى على الفن الفينيقي في هذه الأرجاء تماماً.

الفن الفينيقي في قبرص :

يبدو أن الفن القبرصي قد تطور تدريجياً أثناء الجزء الأول من الألف الأول إلى طراز لا شك في أنه ينحدر جزئياً من الفن الميكاني ومتأثر جزئياً بمؤثرات من فينيقيا وسوريا ومن اليونان نفسها، أما الاتجاهات والطرز المصرية التي يمكن رؤيتها في الأشياء القبرصية فليس من الضروري أن تدل على احتكاكات مباشرة بمنتجات الفنانين المصريين إذ يمكن أن تصل عن طريق فن ليافانت (سوريا) كما حدث بالنسبة للمؤثرات الأشورية دون شك - وفي أثناء القرن الثامن ق. م. وصلت مؤثرات إيجيبية جديدة زادت في قوة العناصر الإيجيبية في الفن القبرصي وأدت إلى ما عرف باسم الطرز الفينيقية المتاغرفة من القرن السابع ق. م. وما بعده ، ومع أن فن قبرص يمكن أن يكون قد نشا وتطور محلياً ، أي أنه لم يكن في جوهره يونانيا ولا فينيقيا فإن عناصره الفينيقية والمييللينية تعد ثانوية جاءت فيها بعد - وعلى ذلك فإن صعوبات كثيرة تواجهنا عن الفن القبرصي بعض الأشياء مثل تيجان الأعمدة الأيوالية الأولى والأشياء الممثلة عليها سعفatas النخل ، وبعض طرز من المصوّغات وتماثيل نذرية صغيرة يمكن تحديدها فينيقية في حين أن الأواني المعدنية المزينة وبعض التمام والجعارات والدلاليات العاديّة المتفرقة كلها تدل هنا وفي أماكن أخرى على أنها جاءت عن طريق التجارة الفينيقية - وما يلفت النظر أنه بالرغم من أن بعض الفخار القديم يشبه في هيئته وصقله فخاراً من فينيقيا وفلسطين ومن موقع غربية فإن معظم الفخار القبرصي من ذلك الوقت يبيّن خصائص محلية تبدو فيها المؤثرات القبرصية الميكانية ، ولا بد أنها نمت محلياً دون تسلب رئيسي للمؤثرات الفينيقية .

* * *

والخلاصة أن الفن القبرصي وإن بدت فيه بعض مؤثرات فينية فمن النادر وجود أشياء قبرصية يمكن اعتبارها عن حق فينية.

وتتجلى المؤثرات الفينيقية - أو الآسيوية القرية - في قبرص في قائم إناء نحاسي أو برونزى ربما كان محرق للبخور من نوع ينسب عادة إلى الأعوام الأخيرة من الألف الثاني ق. م. وكل من جوانبه الأربع يمثل إطاراً مفرغاً مثلت فيه أشكال مختلفة ، ويمكن أن تكون هذه القطعة قد صنعت في قبرص ولكنها ارتبطت فنياً بشمال سوريا لا بفينيقيا .

ويكمن أن غير عناصر فينية عرضاً في منحوتات وتماثيل فخارية صغيرة قبرصية من أوائل عصر الحديد - وأمتع تمثال صغير من الحجر الجيري هو لسيدة مظهرها حديث بصورة غير عادية فليس هناك شك في ارتباطه بالساحل الآسيوي ويقف التمثال على قاعدة مربعة تحتها أربعة رؤوس تماثيل أخرى ويتحمل أن ذلك كله كان يد وعاء حجري كبير ، وشعر التمثال معصوب من الأمام تجعله يسقط على الكتفين في ضفائر وخلف الرأس في كمية كثيفة (ويمكن مقارنته بتمثال البرونز الصغير المشار إليه فيما سبق ص ١٦٢) والتمثال يلبس رداء سابغا فوقه عباءة ثقيلة ويقبض على نهايتها باليدي اليسرى ويلبس عقوداً وأساور وصندلاً ، ولا يبدو فيه تأثير ميكيني أو مصرى (شكل ١٥) والغالب أنه مستوحى من الساحل السوري ولو أن مادته (الحجر الجيري) يدل على صناعة محلية .

وهناك أيضاً تماثيل رجال تبين تأثير الوطن الفينيقي ، فالبعض يلبس رداء بسيطاً قصير الأكمام من طراز كهنوتى وهو فينيقي نموذجي ويلبس غطاء الرأس المدبب الشائع في كثير من التماثيل الصغيرة البرونزية التي من أواخر الألف الثاني ق. م. وما بعده من فينيقيا وسوريا - وطراز رجل الجليد من تماثيل الفخار الصغيرة التي وجدت بالمئات في مقاصير هياكل « كيتيون Kition » في قبرص وغيرها يمكن مقارنتها بما عثر عليه في « المينا Almina » بتركيا وما بعدها جنوباً . فالجسم المجوف ذو القاعدة الدائرية نموذجي والوجوه



شكل (١٥) عن Harden, op.cit., pl.170

والرؤوس تصور أحيانا في طراز ليفانتيني وأحيانا أخرى تصور خشنة في أسلوب طفولي - وقد وجدت رؤوس فخارية كبيرة من طراز طفولي نماذل تذكرنا بقطع مبكرة من «قرطاجة» و«إيبيريا».

وتنم التفصيلات المعمارية عن مظاهر ليفانتينية كثيرة، وأجدرها باللحظة وأوضحتها تيجان الأعمدة اللولبية التي يطلق على طرازها «الايولي المبكر- ProtoAeolic» وقد استخدمت كعنصر زخرفي خالص في اللوحات وكذلك كأعمدة معمارية ودعامات - واللوالب كانت تصاحبها أحيانا عناصر فينية أخرى مثل سعف النخيل المجنح وأشكال أبو الهول مثل ما على لوحة من «جوجلوي - Golgoi». «أثينيو - Athienio» في قبرص (شكل ١٦) وسعف النخيل المجنح ونبات اللوتون كما في لوحة أخرى من نفس الموقع - وقد وجدت أمثلة لها في شمال



شكل (١٦) عن Harden, op.cit., pl.45

أفريقيا بل وفي إسبانيا وهي لا شك منقولة في تاريخ متاخر - وهناك طراز آخر من تاج العمود القبرصي مصرى الأصل لأنه مؤسس على اللوتس ونراه على المقصورة الفخارية الصغيرة من «إيداليون - Idalion» وهي في اللوفر الأن التي نسب عادة إلى القرن السابع ق. م. أو ما حوله ، والأعمدة خشنة الصنع ولكن نبات اللوتس فيها لا يمكن أن نخطئه .

والخلاصة أنه لا يجب أن نبحث عن طرز الفن الفينيقي في قبرص حيث وجدت مؤثرات أخرى حالت دون وجود فن فينيقي خالص .

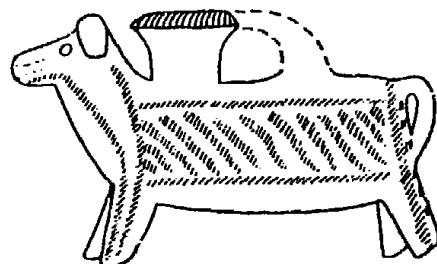
الفن الفينيقي في الغرب :

كانت المؤثرات الشرقية في الفن الفينيقي الغربي سائدة قبل القرن الخامس ق. م. ثم حلت فيه بعد ذلك مؤثرات أخرى وخاصة الهيللينية .

ويعني «الفن الفينيقي الغربي» ، بالطبع ، الفن القرطاجي لأن سيادة قرطاجة السياسية أدت بها إلى السيادة الفنية أيضاً - ولا يختلف الأمر سواء كانت المستعمرات الأخرى من تأسيسها أو كانت مستوطنات مستقلة ثم دخلت تحت سيطرتها حيث يمكن أن نترسم المؤثرات القرطاجية ، أي البونية ، في كل مكان حتى في الأشياء التي يبدو بوضوح أنها من إنتاج محلي وليس واردة من قرطاجة .

فإذا ما بدأنا بالأشياء الشائعة مثل الفخاريات مثلثة نجد أن هذه كانت على الأرجح صناعات محلية وليس مستوردة من أماكن بعيدة ، ولو أن بعضها منقول ، وعلينا أن نميز البونية الحقيقة من تلك التي تدخل في نطاق طرز البحر المتوسط من الخليط اليوناني الآسيوي وترجع إلى أوائل القرن الأول ق. م. ففي أقدم طبقة في «تانيت» (Tanit) بقرطاجة وجد عرضاً تمثال فخار صغير كان موضوعاً بجوار وعاء لحفظ رماد الموتى وقارورة من فخار في هيئة بقرة والجسم ملون بخطوط حمراء (شكل ١٧) وجدت فوق قارورة (Amphora) ذات عروتين من فخار مماثل - ومثل هذه التماثيل الصغيرة

للحيوان فينيقية نموذجية وجدت في كثير من المواقع في الشرق وفي الغرب وطرازها مشتق من الطرز الميكينية المبكرة، ويمكن أن نقارنها بالمثال المستورد (ربما كان من قبرص) الذي وجد في وديعة أقدم هيكل عثر عليه في «ستناس» (Cintas) بتونس ، كما وجدت في نفس الطبقة تماثيل صغيرة بدائية خشنة الصنع (من طراز وجد أيضاً في القبور المبكرة في «إبیزا» (Ebiza) لها ما يماثلها تماماً في قبرص - فمثل هذه الأشياء لا بد أنها صنعت محلياً .



شكل (١٧) عن Harden, op.cit., p.97

وتوجد تماثيل صغيرة أخرى من تاريخ متأخر (يمحتمل أنها من أواخر القرن السابع أو أوائل السادس ق. م .) التي ربما كانت محلية الصنع ولكن يظهر فيها تأثير أجنبي كبير - وهناك إناء غريب خاص للقرابين متعدد الأوعية به سبعة أوعية منفصلة كل منها في هيئة زهرة السوسن (شكل ١٨) مثل الذي



شكل (١٨) عن Harden, op.cit., p.198

وُجِدَ فِي الطبقة السفلية في «تانيت» (Tanit) وفي المقابر البوئية المعاصرة ، وله فضلاً عن ذلك رأس حتحورية فوق رأس بقرة طوله القرنين - فالفن وإن كان خليطاً إلا أن أساسه «بني» ، ومن جهة أخرى فإن تماثيل صغيرة لمعبدات جالسة وواقة من القرن السادس ق . م . مظهرها يوناني أو مصرى إلى درجة أنها لا يمكن أن تكون محلية الصنع لأنه يوجد مما يدل على أن الفنانين اليونان والمصريين عملوا في قرطاجة في هذا التاريخ المبكر .

ومع التماثيل الصغيرة يمكن أن نناقش الأقنعة التي كثيراً ما وجدت في قرطاجة وفي سردينيا «وابيبيزا» ولكنها لم توجد في صقلية أو إسبانيا لسبب غير واضح - فهذه يوجد منها نوعان رئيسيان: الوجه العادي الطبيعي والوجه المتجمهم - والنوع الأول مؤسس على الطرز المبكرة المصرية أو اليونانية وتمثل إثاث مبسمات وأحياناً تصاف إليها حل وملها واحد من «درمك» (Dermech)^(١) في قرطاجة ما زال يحتفظ بحلقة الأنف وكانت له فيها سبق حل في الأذنين أيضاً - أما (الاقنعة) الأخرى التي تشبه (بأكمالها) الأقنعة التتكرية فلها ثقوب واسعة للعيون وكذلك للفم ولها وجوه مشوهه عادة ، أشبه بأقنعة القبائل الأفريقية منها بأي شيء مألف في آثار البحر المتوسط وخاصة لأن بها وشم غالياً (شكل ١٩) - ومنذ عهد قريب وجدت أقنعة مشابهة بتجاويف للعيون ولكنها ليست في مثل ذلك التشويه في الملامح وهذه الأقنعة الغربية كانت لها على الأقل أصول شرقية بعيدة ويمكن اعتبارها فينيقية تماماً .

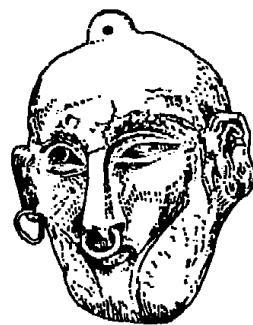
وهناك طراز ثالث يبدو «بنياً» بأكلمه وليس له نظائر في الشرق يمثله قناع «دويمس» (Douimes) الشهير في قرطاجة الذي يمثل رجلاً في أنه حلقة وليس به تجهم والعيون واللاماح الأخرى جيدة النحت (شكل ٢٠) .

وتسود طرز القرن الخامس ق . م . والطراز اليوناني تماثيل قرطاجة الصغيرة ، وكثير منها لا يمكن تمييزه عن النماذج المعاصرة في الجزء اليوناني من

(١) جنوب قرطاجة .



شكل (١٩) عن (٢٠) Moscati, op.cit,n pls. 72 & 74



شكل (٢٠) عن (٢٠) Harden, op.cit., p.199

صقلية وأماكن أخرى - ولكن البعض ، إن لم يكن الكل ، صنع في قرطاجة بواسطة مهاجرين يونان ، وهي تمثل معبدات من الجنسين - منها مثلاً رأس معبد ، ربما كان بعل حمون ، له غطاء رأس عالي مثل قلنسوة فارسية أو رؤوس «ديمتر Demeter» (وهي إلهة عبدت في قرطاجة) في شكل مبادر كالي وجدت في كميات عظيمة في موقع معبد في «سانت مونيك» (وإن كان هذا في طرازه بوني أكثر منه يوناني) ومنها تمثال نذري لرجل يقف بصلابة إلى الأمام وذراعه اليمنى ممتدة - وعلى طول ساحل أفريقيا الشمالي وجدت تماثيل صغيرة من هذا الطراز المتأخر وجدت في المقابر البوانية .

وإذا عربنا إلى «إيبيرا» وأسبانيا نجد ، من جهة ، عدداً من التماثيل الصغيرة يونانية في أكملها أو في أساسها ، ومثل تلك جاءت من مدن يونانية في شمال شرق أسبانيا أو صنعت محلياً بواسطة فنانين يونانيين - ومن جهة أخرى نجد تماثيل ليست يونانية الطراز بأي حال ، فهي بالأحرى خليط من الطرازيين الفينيقي والإيري ، وهي إما عارية أو تلبس ملابس مزخرفة بسخاء ، وغالباً ما كانت تلبس أغطية رأس براقة وحلق لا تختلف عنها ترتديه «سيدة الشئ» (Lady of Elche) التي أصبح من المتفق عليه أنها إيبيرية (شكل ٢١) - وفي إيبيرا عثر على اكتشاف ذو أهمية خاصة وهو وديعة (أساس) تؤلف من تماثيل نصفية لمعبودة عرفها الأثريون الإسبان على أنها «تانيت» وقد وجدت في موقع معبد يبدو أنه استمر من القرن الخامس ق. م. إلى عصور الرومان - وهذه التماثيل ليست بونية في صفاتها فحسب بل في الملامح أيضاً.

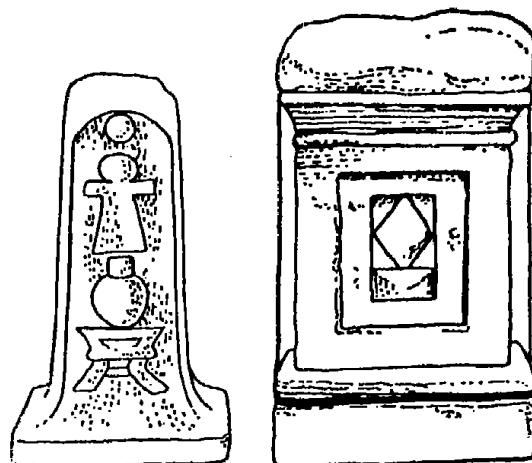
ولم توجد منحوتات حجرية كبيرة في الطبقات الأقدم في قرطاجة ، ومع ذلك فقد عثر في الطبقة الثانية من معبد «هادروميتum Hadrumetum» (تونس) (بين القرن الخامس وأوائل القرن الثالث ق. م. .) على لوحة غير كاملة من الحجر الجيري تبين الإله «بعل» على عرش على جانبيه منحوتين بهيئة أبو الهول وأمامه متعبد ، ويرتدى «بعل» غطاء رأس مخروطي وله لحية ويلبس المتعبد رداء ساماً نموذجياً طويلاً - والمنظر في تركيبه شبيه بطراز العاجيات الفينيقية .



شكل (٢١) عن Moscati, op.cit., pl.78

وأقدم اللوحات «البونية» في هياكت قرطاجة ، «نورا» (Nora) (بسردينيا) ، «موتيا» (Motya) (بصقلية) لا يمكن أن تكون أقدم من القرن السادس ق . م . - فأشكالها الفجة ورسومها البدائية لا يمكن أن تمثل أي تقليد في خاص ، ولكنها هامة حيث تبدو أنها تنحدر مباشرة من اللوحات التي وجدت في المعابد الشرقية الأقدم عهداً بكثير .

أما خليفاتها وهي لوحات طراز المذبح فهي ذات قوالب مصرية ولها قمم مدرجة وأحياناً بها شكل قرص أو شكل ديناري (أي المعين) أو شكل رجل غير متقن في ناووس ، فقد نحتها دون شك عمال نحت أحجار البناء لا مثالين ، ولكنها على الأقل في شكل لا يأس به وبها بعض اتجاهات فنية ضئيلة (شكل ٢٢) ، وقد دام عملها من القرن الخامس إلى القرن الرابع ق.م. وببعضها يرجع بالتأكيد إلى ما بعد القرن الرابع ق.م. وهي في فن يوناني حقيقي ونحتها يونانيون ، ومن بينها اللوحة الجميلة في تورين التي كرسها القاضي «ملكياتون» (Milkyaton) للإلهة «برسيفون» (Persephone) وهي إلهة صقلية - وقد وجدت طرز مشابهة في إنقاها ، ولكنها أقدم قليلاً وطرازها فينيقي / مصرى ، في سردينيا مثل المثال الجميل عن «سولكس» (Sulcis) (بسردينيا) وبين أمراة في ناووس إيوبي تحت قرص مجنب ومجموعة



شكل (٢٢) عن Harden, op.cit, p.98

من « ثعابين » (Urae) ، ويوجد القليل من الطراز اليوناني أيضاً في « سولكس » (Sulcis) .

أما السلسة المتعددة من اللوحات المنحوتة في الحجر الجيري الصلب فتبدأ حوالي ٣٠٠ ق . م . وهذه وجدت بالآلاف في قرطاجة ، ولكن ليس مثل لوحات المذابح التي وجدت عادة في مواقع خارج شمال أفريقيا وهي أحياناً ذات إتجاهات فنية واضحة - أما التي من منطقة « درملق » (Dermech) فهي خشنة النحت وأحياناً تغطي بملاط ، ولكنها تحفظ بقليل من الروح الفنية التي ربما كانت وقتاً ما موجودة على غطائها الملاطي في رسومها التي تصور الحياة القرطاجية - وكثير من اللوحات في نطاق « تانيت » (Tanit) صنعت من حجر دقيق الحبيبات جداً وليس من الملاط وهي تبين غالباً مناظر منحوتة (منقوشة) يمكن مقارنتها بمناظر الأمواس النحاسية المعاصرة لها (شكل ٢٣) - ولا شك في أنها من انتاج فنانين يونان أو فنانين دربهم اليونان .

وقد وجدت اللوحات الجيرية أيضاً في مقابر قرطاجية - وقد عثر في « سانت مونيك » على عدد منها يظهر عليها أشخاص متعبدين في نواويس رباعية بسيطة أو في أعمدة في طراز يوناني أو شكل يوناني/فينيقي - وهذه قد نحتت طبقاً لنماذج تندم فيها الفردية ، ومع أنها تخلو من الكتابة حالياً إلا أنها ربما كانت في وقت ما تحوي نقوشاً ملونة تدل على أصحابها - ويختلف عن ذلك تمثال أكثر أهمية على قاعدة طويلة خشنة النحت يبدو أنه كان قائماً فوق قبر ، وتعود أهميته إلى طرازه اليوناني/البوني - فرداء المرأة لم يكن يونانياً بالتأكيد ولا بد أنه كان رداءً محلياً لأن العناية بإخراجها تحجلت في تحديد خطوط الشعر منفردة في تسريحة الرأس ، والأكثر أهمية من ذلك أن مشابهته الدقيقة لتمثيل وداع الطقوس في قبرص تبين أن صلة الطراز بين الفن الفينيقي الشرقي والفن الفينيقي الغربي لم تقطع حتى في القرن الثالث ق . م .

وتتصبغ نفس الظاهرة في التوابيت التي في هيئة آدمية من « سوليوس » (Soloeis) (في صقلية وقادس باسبانيا) - وليس المحتمل أن تكون هذه قد

جلبت من الشرق ولكنها تشبه تماماً قرينتها الشرقية ، ولو أنها عادة تبين قدرأً أكبر من الشكل الأدمي ، وهكذا فإن مثالاً من « سوليوس Solois » يبين سيدة تلبس زياً « دوريأً » Doric وتمك إنانه دهان (عطري) بينما تميز الشكل الذي على تابوت « قادس » بتمثيل الزراعين والقدمين .

ولم يوجد في قرطاجة تابوت في هيئة آدمية ، ولكن بدلاً من ذلك لدينا في قرطاجة شمال (درمك Dermech) التوابيت الشهيرة من جبانة (سانت مونيك St. Monique)، وهي ترجع الى سنة ٣٠٠ق.م. وقد نقشت أغطيتها بنقوش بارزة تمثل الأشكال الأدمية .

وأجمل ثلاث توابيت منها تمثل كاهنة وكاهنين أحدهما وجد في نفس المقبرة التي وجدت بها الكاهنة ، واحتفظت صورة الكاهنة بكثير من ألوانها الأصلية عند اكتشافها وهي تلبس زياً يونانياً مغطى من الوسط إلى أسفل بأجنحة طائر (يحتمل أنه النسر ، حاكاة لأشكال إيزيس ونفتيس المصريتين) ولكن تحمل في يدها اليمني حمامه وهو مظهر تبدو فيه صلتها بأفرو狄ت أو (ديميتر Demeter) (برسفون Persephone) وهي إلهة من قرطاجة غطاء رأسها يعلوه رأس صقر ويتهي بشرابات على الكتفين بمخالب الطير ، ومهمها كان تفكيرنا عن السجايا والمميزات الأخرى فإن وجه السيدة يوناني خالص وتابعه الكاهنين متجانسين تماماً فيها عدا أن أحدهما ليس له غطاء رأس ويرتدى الآخر عصابة أو شال (Stole) قصير كجزء من الزي الケهنوتى البونى ، وكليهما ملتح ومظهرهما يوناني في ملامحهما ومعطفيهما اللذين لا أكمام لهما - والتابوت الرابع من هذه السلسلة يمثل سيدة ، ليست كاهنة ، تلبس ملحفة ذات ثنائية للرأس تبدو بكثرة على التماثيل العادية والتماثيل الصغيرة الهللينية ، ومن نفس الجبانة تسعه توابيت تبدو بلاز خرف تقريباً ولكنها كانت في وقت ما مزينة تماماً وكل الثلاثة عشر تابوتاً في هيئة المعابد اليونانية ذات الخلية التي في قمتها ، وهي كمجموعة لا بد وأنها كانت من صنع يونانيين عاشوا في قرطاجة وجعلوا ثقافتها الفنية متاغرقة ، كما أن يونانيين آخرين غيروا ثقافة الإتروسكيين الفنيين تماماً .

ومعظم الأشياء الفنية التي من البرونز ووُجِدَت في فينيقيا من صناعة أجنبية ، وما يلفت النظر أن قرطاجة والموضع الغربي الآخر فيما يليه لم تنتج تماثيل برونزية صغيرة في الطراز الفينيقي الشرقي .

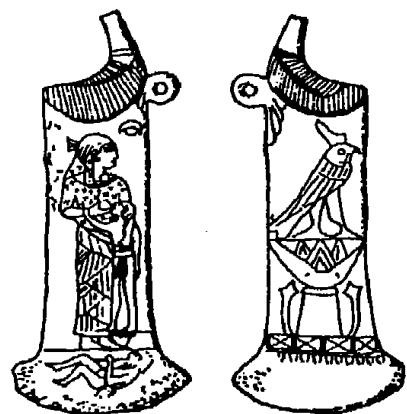
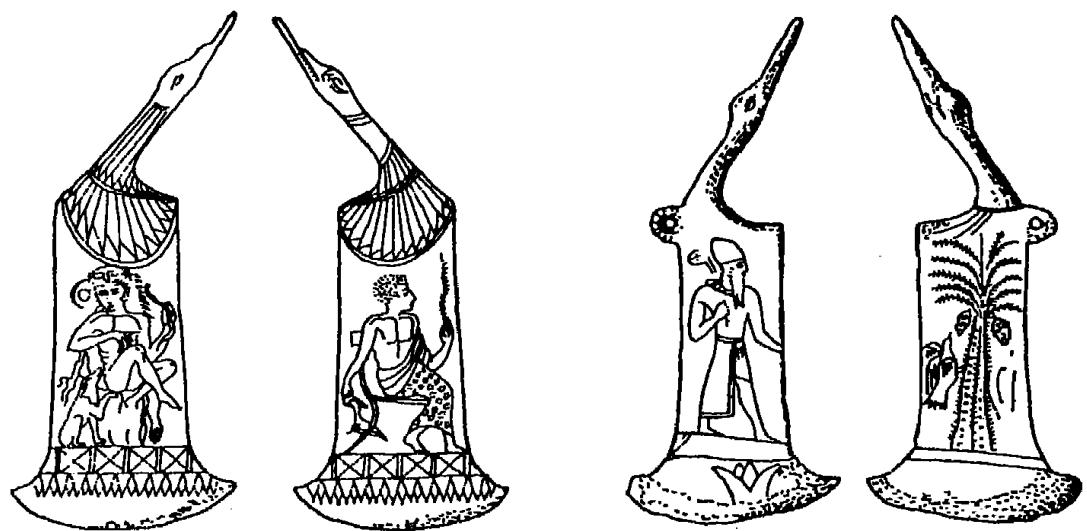
ولاشك في أن الأمواس البرونزية التي عثر عليها في قرطاجة وسردينيا وايبيريا أكثر (بونية) من أي انتاج آخر في الفن الفينيقي الغربي ، ومع أن بعضها وجد في مقابر من القرن السادس ق.م. وما قبله إلا أن الغالبية العظمى منها جاءت من مقابر القرن الرابع ق.م. أو ما بعده في (سانت مونيك) وأماكن أخرى .

وأقدم الأمواس ليست بها زخارف إلا في حالات قليلة وهي لا تخرج عن رسوم منقطة بسيطة ، أما الأمواس الأحدث فهي غالباً مزينة بنقوش تمثل أشكال ومعبدات أورمزوز مقدسة بعضها مصرى وبعضها (بوني) والبعض مزيج من هذين ، والطرز اليونانية أندرا - وأحياناً نجد طرازاً يونانياً على أحد الوجهين وطرازاً مصرياً أو مصرياً/بونياً على الوجه الآخر ، وهي مثل كل الطرز منها كان أصلها تبدو دينية في مضمونها فهي تمدننا بأحسن الأمثلة للطرز والرموز المقدسة التي سادت في قرطاجة ، وتدل غلبة الطابع المصري فيها وخاصة فيما يتصل بآيزيس /حورس على أنه بالرغم من المؤثرات الهellenistica التي سادت في قرطاجة وبالرغم من تغلغل العبادات اليونانية فإن الأشكال الدينية البوانية ظلت مرتبطة بالمصرية إلى حد ما (شكل ٢٣) ^(١)

أما نحت العاج الذي كان بارزاً في أعمال الفن الشرقية فله ما يقابله في الغرب وإن لم يكن في نفس الإتقان الفني ولكنها في طرازها أكثر مصرية .

وقد وجدت في إسبانيا (في مقابر بمقاطعة كرمونا Carmona) مصنوعات عاجية كثيرة وخاصة من الأمشاط ، ومع أنها وجدت مع دفنت أييرية إلا أنها بوضوح فينيقية الطراز ، وقد أصبح هذا الطراز منحطاً في مصانعه الغربية .

(١) انظر ص. ١٧٧، ١٧٨.



شكل (٢٣) عن Harden, op.cit., p.205

ويتصل بصناعة العاج عمل الكؤوس والأقراص المزخرفة من بيض النعام، بزخارف ملونة وليست منحوتة ، ومثل هذه الأشياء يبدو أنها لم توجد في الشرق ولكنها تتوافر في موقع فيينيقية غربية كثيرة ، وهي في قرطاجة تتشرفيها بين القرن السادس والقرن الثالث ق.م . إما في هيئة كؤوس صنعت من بيض كامل أو ناقص ، أو أقراص خشنة التجهيز عليها رسم وجه ملون ، لا شك في أنها للوقاية ، أما الأكواب فهي أحسن تمثيلاً في أماكن أخرى وخاصة في إيبiza (في إسبانيا) و (فيلاريكوز Villaricos) (بإسبانيا أيضاً) وهي موقع أبييري بوني خليط ، وعدم شيوع هذه الأكواب في صقلية وسردينيا ربما كان عرضياً ، وهي في العادة تحمل زخارف هندسية أو تمثل عليها أشكال مختلفة وفناها سيء على العموم ، مع أنها كانت تتوقع أن يكون أحسن من ذلك لأنها عملت على سطح قشر بيض النعام الجميل الأملس .

الخل الفينيقية :

من العسير جداً التمييز بين الطرز الشرقية والطرز الغربية في الخل لأن هذه الأشياء الصغيرة لا بد وأنها كانت البضاعة التي يتاجر فيها التجار الرحالة ، ومع أن الأصل المحلي يبدو أحياناً واضحاً في الغرب وخاصة في إسبانيا إلا أنها غالباً لا تستطيع الحكم بأن شيئاً ما صنع في منطقة معينة من البحر المتوسط ، وربما كان الكثير من الخل الممتاز وخاصة تلك التي صنعت حتى القرن الخامس ق.م . قد صنع في فيينيقيا أو قبرص أو مصر ، فتشابهها الدقيق في التشكيل والصناعة يدل على أنها كلها صنعت في أماكن لا يبعد أحدها كثيراً عن الآخر .

ومعظم مصوغات الزينة الفينيقية التي وصلتنا في حالة جيدة كانت من الذهب أما المصوغات الفضية فلم تكن في أغلب الأحيان جيدة الحفظ لأنها لم تحتمل الدفن في التربة الملحة بالموقع الساحلي ، أما البرونز فيبدو أنه لم يستخدم إلا في صنع الأشياء ذات الأغراض العملية مثل المشابك (التي لم تكن أبداً شائعة في البلاد الفينيقية كما كانت في اليونان وإيطاليا) والأساور ،

ومن المحتمل أن الفينيقيين تعلموا صياغة الذهب جزئياً من الميكينيين وجزئياً من المصريين . ولكنهم مهروا في فن الطرق والتحبيب اللذين أصبحا شائعين في اتروريا أيضاً في القرن السابع ق.م. وربما كان ذلك باقتباسه عن فينيقيا ، وقد رأينا كيف أن الطراز الفينيقي في صناعات أخرى مثل العاجيات تميز بخلط من الاتجاهات المصرية والميكينية والأشورية أو الآسيوية الأخرى ، وأنها كانت أميل لرسوم الحيوان والنبات والأشكال الهندسية منها للشكل الإنساني ، وإذا ما مثلوا البشر فإنهم غالباً يكونون أقل نجاحاً في تأليفهم الفردي ، وبعض الخل التي عثر عليها في قرطاجة وسردينيا وغيرهما يمكن أن تكون من أصل فينيقي ، أو من صنع فينيقيين في الدلتا المصرية نظراً لأن عنصر الصقر المصري كان يتخذ مكاناً بارزاً فيها .

ولا بد أن دلaiات في هيئة تماثيل صغيرة من الذهب كانت صناعة شرقية أيضاً (ستة منها جاءت من قبرص وبسبعة أخرى موزعة في متاحف نيويورك ودوسلدورف واكسفورد) ، وكلها لها أنسشوطنان للتعليق من الخلف ويرى البعض أنها تمثل آلهة الأمة بينما يرى آخرون أنها تمثل رجالاً من المعبدين وهي جيدة الصنع من طراز مصرى / فينيقي وترجع إلى القرن السابع أو السادس ق.م.

والقطعة القبرصية المغایرة تماماً والتي تبين مميزات فينيقية كثيرة عبارة عن لوح ذهبي مثل عليه رجلان في عجلة حربية ومن فوقهما امرأتان لها أغطية رأس عالية وقد عثر بقبرص أيضاً على أمثلة كثيرة من طراز بسيط من الحلقات عثر على مثيلاتها في قرطاجة .

والمقابر في قرطاجة و«ثاروس» في سردينيا جاءت منها دلaiات دائيرية كثيرة جحيلة التحبيب وأخرى أكثر بساطة من هذا الطراز . وفي إسبانيا عثر على حل تتمثل فيها اتجاهات محلية وتأثيرات شرقية فينيقية ومصرية .

والخل البونية المتأخرة يظهر فيها التأثير اليوناني إلى درجة عدم وجود ما يدعوه إلى مناقشة الفن الفينيقي فيها ، ورغم ذلك فإن هذه الاتجاهات اليونانية غالباً ما تصاحب ،

بعلمة (تانيت Tanit) أو الهلال والقرص أو رموز أخرى فينية لتمدننا بالدليل ، حتى ولو كان اليونانيون هم الذين صنعواها ، على أنها صنعت في قرطاجة أو بعض مراكز (بونية) أخرى .

وترتبط الأختام والجعارين (التي تشكل مظهراً ثابتاً في أثاث المقبرة الفينيقية) بالحلق ، وفي بداية عصر الحديد كانت الأختام الأسطوانية وأختام الطبع المخروطية هما النوعية الأساسية في أختام الشرق الأدنى ولكل منها تاريخ طويل ، وحتى في بلاد النهرين أخذ الختم المخروطي يحل تدريجياً محل الختم الاسطوانى لدى الجمهور ولكن هذا الأخير لم يتم بل ظل في الواقع مستخدماً في بلاد النهرين حتى العصر الفارسي ، ولكن فينيقيا ببداية الألف الأول ق. م. فقد الختم الاسطوانى شعبيته وأصبح الجعران والأشكال القرية منه وشبه المخروطية هو الطراز الشائع والسائد في الأختام ، ولكن يبدو أن الأخيرة لم تنتشر غرباً وهكذا نجد أن أشكال الجعارين والأشكال القرية منها هي التي نجدها في كل الواقع الفينيقية الغربية في القرن السابع ق. م.- وفي بادئ الأمر كانت مصرية الطراز ولو أنها لم تكن بالضرورة مصنوعة في مصر ، واستمر هذا الطراز إلى القرن الخامس ق. م. وبعد ذلك أصبح التأثير اليوناني سائداً وضمت رسوم الجعران لهذا التقليد الجديد. وقد وجدت مع ذلك موضوعات فينية خاصة كما في مثالين من سردينيا أحدهما يبين ملكاً يهاجم أسدًا والآخر يبين الإله (بعل) جالساً على عرش بجوار مذبح للحرق.

الخلاصة :

إن طبيعة التراث الفني الفينيقي باتجاهاته المستعارة وظرفه الخلطة تجعل تحليله صعباً للغاية .

ففي المشرق يتوقف الفن الفينيقي ويبدأ الفن السوري أو القبرصي ، والأشياء التي يعثر عليها في أماكن بعيدة عن مواطنها الأصلية في اليونان مثلاً أو إيطاليا يصعب الجزم بأنها صنعة الفينيقيون أنفسهم وأيها صنعة الآخرون لأجلهم وخاصة اليونانيون .

ومع ذلك فإن الفنان الفينيقي لا تعوزه المهارة في بعض الأشياء ، فالعاجيات والأقداح المعدنية المصورة التي من الشرق تظهر مهارته في التأليف وإحساسه العظيم بالأسلوب الفني ، كذلك الحال من قرطاجة وثاروس (Tharrus) في سردينيا ومواقع أخرى تبين لنا مقدرته في صناعتها واستطاعته ملائمة الشيء الذي يصنعه للغرض الذي يعمله من أجله .

وفي النحت وصناعة التماثيل الصغيرة سواء في الجمر أو المعدن أو الصلصال لم يكن الفنان الفينيقي بالغ المهارة تقريرًا ، ومعظم الأعمال الجيدة التي خلفها ، مثل التوابيت المنحوتة ، لا يحتمل أنها من صنع الفينيقيين لأنها تتسمى إلى فترة متأخرة حينها وضع الفنانون اليونانيون أقدامهم على كل من الساحل الفينيقي وقرطاجة ، أما الأشياء الأقل شأنًا مثل التماثيل المعدنية الصغيرة والكمية الهائلة من تماثيل الصلصال الصغيرة فهي رخيصة وكانت تتجعل على نطاق واسع من أجل استخدامها الدينية وهي لا ترقى إلى مرتبة الفن .

وهكذا فإن الفن الفينيقي ليس مزيجًا من الطرز فحسب بل إنه كذلك مزيج من المهارات ، وأحسنها جيد جداً ، وأسوأها ليس جديراً بأن يسمى فناً ، والواقع أننا لكي تكون صورة واضحة ينبغي أن نذكر أن الفنان الفينيقي ، ولو أنه كان ذا ميل فني ، إلا أنه كان أقل اهتماماً بالفن عن إهتمامه به من أجل الثمن الذي يستطيع الحصول عليه من ورائه في الخارج .

سابعاً: نشأة الكتابة واختراع الحروف المجائية

حاول الإنسان أن يسجل أفكاره منذ أقدم العصور ومع ذلك لم يتمكن من تسجيل كلامه إلا بعد كثير من التجارب والمحاولات التي استغرقتآلاف السنين . ويجب أن نستبين فرقاً كبيراً بين تسجيل الأفكار وتسجيل الكلام ، ذلك أن الإنسان البدائي حاول أن يسجل أفكاره ومعانيه عن طريق رسم الصور التي تمثل المعنى الذي يريده . وقد ابتدأت جميع الشعوب باستخدام طريقة رسم الصور من أجل الكتابة ، وكانت الصور في هذه اللوحات الأولى مستقلة تماماً عن الكلام لأن الرسالة المدونة بالصور لم تكن تمثل تماماً منطوق الكلام الذي يصف المعنى المقصود ، فكان لكل رسالة تصويرية معنى واحد ويمكن أن تفسر بواسطة القارئ بطريقة واحدة فقط ، ولكن يمكن قراءتها ، أي أن يعبر عنها بألفاظ في طرق مختلفة متعددة وكذلك بلغات مختلفة .

من هذه المحاولات الأولى أخذ الإنسان يطور فنه وطريقه في الكتابة حتى استطاع أن يصل إلى الطريقة الحديثة في الكتابة ، وهي التي يمكن أن تعرف بأنها «لغة مكتوبة» وليس معاني مصورة . فأي رسالة في طريقتنا الحديثة للكتابة تقرأ وتنطق بنفس الألفاظ والكلمات التي نطقها أو قالها صاحب الرسالة وفي لغة معينة طبعاً - وقد أمكن الوصول إلى هذه المرحلة الحديثة عن طريق جعل الكتابة تسجل أصوات اللغة وليس معاناتها وتم ذلك عن طريق اختراع الحروف المجائية التي تمثل جميع أصوات اللغة ، وقد لعب الفينيقيون دوراً هاماً في سبيل الوصول بالحروف المجائية إلى درجة متقدمة جداً ، وأصبحت من أعظم ما ينسب إليهم في تاريخ الحضارة الإنسانية .

وتعتبر الكتابة الفينيقية أول كتابة استخدم الإنسان فيها الحروف المجائية

فقط ، وعن الفينيقيين أخذ الأغريق القدماء الحروف الهجائية وأدخلوا عليها بعض التعديل - وبعد ذلك أخذها اللاتين وسائر الشعوب الأوروبية ، كما أن الشعوب السامية المجاورة أخذت الحروف الفينيقية وطورتها مثل العبرانية والأرامية والعربية بعد ذلك .

ولا ينبغي أن يتبدّل إلى الذهن أن المحاولة الفينيقية كانت المحاولة الوحيدة للوصول إلى الكتابة بالحروف الهجائية ، أو أنهم توصلوا إليها كاملة دفعه واحدة فالنقوش الفينيقية التي وصلتنا لا تفيده كثيرةً في دراسة تطور هذه الكتابة لأن أقدم نقش فينيقي أبجدي وصل إلينا بهذه الكتابة ، وقد بلغت حد الكمال ، هو النقش الموجود على تابوت احيرام ملك جبيل ، الذي يرجح أكثر العلماء الآن أنه يرجع إلى أوائل القرن العاشر قبل الميلاد ، ولا شك في أن كثيراً من الكتابات الفينيقية سبقته .

وقد أثبتت جهود الآثريين والعلماء أخيراً أن العناصر السامية الغربية القاطنة في غرب آسيا قد شغلت كثيراً بأمر تيسير الكتابة ، ولعل اتصالاتهم العديدة واحتلاlem بالتجارة والتسلق التجاري بين عدد من الدول القديمة ، وضرورة إلماهم بعده من لغات الشعوب التي كانوا يتصلون بها هو الذي ساعدهم وحفزهم على السعي للوصول إلى طريقة سريعة وسهلة للكتابة ، ترجمتهم من عناء استخدام الكتابات المعقدة التصويرية أو المقطوعية حسب الطريقة المصرية أو البابلية ، ويفكـد صحة هذا القول عدد من النقوش الكتابية التي عثر عليها في أماكن متعددة في المنطقة الممتدة بين نهر النيل وببلاد النهرين ، أي شبه جزيرة سيناء وفلسطين والمدن الفينيقية والأراضي الكنعانية في سوريا .

ولعل أهم تلك النقوش جميعاً هي التي عثر عليها في رأس شمرة أو أوجاريت (كما كانت تسمى قديماً والتي تقع على الساحل السوري قرب اللاذقية) وهي عبارة عن بلدة صغيرة لها ميناء قريب منها ، ولكن آثارها التي كشف عنها في الفترة بين الحرين العالميين تدل على قدمها في التاريخ وأنها كانت مركز نشاط للتجارة والصناعة منذ بداية العصر التاريخي بل وربما قبل

ذلك أيضاً . ويوضح من آثارها أنها في أثناء الألف الثالث قبل الميلاد كانت تحت تأثير سومري وبابلي كبير ، ثم أصبحت منطقة للنفوذ المصري في أثناء الجزء الأكبر من الألف الثاني ق . م . ، ثم تقلص عنها النفوذ المصري في نهاية عصر البرونز (أي في الجزء الأخير من الألف الثاني ق . م .) ، ويدو أنها تعرضت للتدمير نتيجة زلزال في هذا الوقت وبدأت تدخل مرحلة من الضعف والتخلف .

وأهم ما أسفرت عنه التنقيبات بها العثور على مكتبة ضخمة تشتمل على عدد كبير من الألواح من الطمي المحروق التي ترجع إلى القرن الرابع عشرق.م. وهي تدل على تعدد المجتمع الأوجاريتى إذ أنها حوت كتابات بسبع لغات مختلفة : سومرية وبابلية وأشورية ومصرية وحيثية وأوجاريتية ولغة سابعة لم يمكن قراءتها . ومن الطريف أن نذكر أنه عثر بين هذه اللوحات على عدد من القواميس للترجمة من السومرية والبابلية إلى الأوجاريتية ، مما يدل على آثار مدرسة لتعليم الكتابة والحساب وربما اللغات الأجنبية أيضاً .

وقد لاحظ الأثريون والعلماء الذين قاموا بحفائر رأس شمرة ودراسة نقوشها أن العدد الأكبر من هذه النصوص مكتوب بالكتابة المسмарية . ولكن حينما حاولوا قراءتها لم يجدوا أنها تتضمن لغة سومرية أو بابلية أو أشورية أو أي لغة أخرى من اللغات المعروفة التي كانت تستخدم الكتابة المسмарية فأدرك العلماء حينئذ أنهم أمام لغة جديدة ، وما يسر أمر حل رموزها أمران : الأمر الأول هو أن كتاب هذه النقوش اعتادوا الفصل بين كل كلمة وأخرى بشرطة رأسية والأمر الثاني أنه حين جمع العلماء الرموز المسмарية المستخدمة في هذه الكتابة تبين أنها محددة العدد إذ أن عددها ٢٩ رمزاً وأنها مستخدمة بطريقة تختلف تماماً عما ألفه العلماء في الكتابات المسмарية الأخرى ، وعند ذلك أدرك هؤلاء العلماء أنهم أمام كتابة بالحروف الهجائية - ونظراً لأن أوجاريت تقع في منطقة تنتشر فيها العناصر السامية وخاصة العنصر الكنعاني ، استنتجوا أن هذه الكتابة تسجل لغة سامية - وبعد محاولات سريعة ثبتت صحة ما ذهب إليه هؤلاء العلماء وأن نقوش أوجاريت تتضمن لغة سامية وثيقة الصلة باللغة الكنعانية وتعتبر لهجة من لهجاتها ، وبذلك تكون هذه النقوش قد أمدتنا بأقدم

كتابة كاملة بالحروف الهجائية . ولكن نظراً لأن الكتابة المسمارية التي استخدمت في الكتابة الأوجاريتية ، لم تكن لتصبح إلا للنقش على الطمي (الذي غالباً ما كان يحرق بعد الكتابة عليه) أو الحجر لذلك لم يتشر استخدامها في بيئات أخرى يغلب عليها الطابع التجاري لأنها كانت تفضل الكتابة على الورق أو الجلد ، وإن كان قد عثر على نقشين في فلسطين يشتملان على كتابة شبيهة بالأوجاريتية .

عدا نصوص أوجاريت عثر أيضاً على نقوش أخرى يعتقد بعض العلماء أنها تمثل المرحلة الانتقالية في تطور الكتابة قبل الوصول إلى الحروف الأبجدية الفينيقية التي وجدناها في نقش احيرام - ومن تلك النقوش التي تمثل المرحلة الانتقالية في تطور الكتابة إلى الأبجدية الصرفة تلك الكتابات التي عثر عليها في منطقة تعرف باسم « سراة الخادم » في وسط شبه جزيرة سيناء حيث توجد مناجم الفيروز والنحاس وتشتمل أكثرها على نقوش مصرية بالكتابة الهيروغليفية مكتوبة على لوحات جنائزية أو تماثيل نسائية صغيرة مقدمة لربة المعبد في هذا المكان وهي الإلهة المصرية « هاتور » ، ولكن بالإضافة إلى ذلك وجد أيضاً نحواً من اثنين عشرة نقشاً مكتوبة بكتابة مختلفة وترجع كلها كما يرجح الأنثريون إلى الفترة الواقعة بين ١٦٠٠ و ١٥٠٠ قبل الميلاد . وقد أثارت هذه اللوحات القليلة ذات الكتابة الجديدة اهتمام العلماء نظراً لأن الطابع الغالب عليها هو الكتابة بالصور المتطرفة إلى درجة بعيدة فهي تحمل شيئاً مع الكتابة المصرية من ناحية والكتابة الفينيقية من ناحية أخرى - وقد استطاع العالم الأنثري آلن جاردنر^(١) أن يضع الأسس الأولى لحل رموز هذه الكتابة الجديدة ، ولوأن جهود العلماء لم تنته بعد من فك جميع رموزها ، ولكن اتضحت أن اللغة المكتوبة بها لغة سامية ، وهذا طبيعي لأن المصريين القدماء كانوا يستخدمون عملاً من البدو الساميين القريبين من منطقة التعدين .

ولم يقتصر الأمر على نصوص « سراة الخادم » في سيناء وإنما يمكن العثور على عدد من الكتابات في فلسطين مثل نقوش مجده وخش وشكيم وبيت شمش ، كلها تحمل كتابات بحروف هجائية تمثل حلقة وصل أخرى

(١) السير آلن جاردنر عالم إنجليزي متخصص في اللغة المصرية القديمة .

أكثر تطوراً بين الكتابة السينائية والحرروف الفينيقية ، ومن ذلك يبدو أن التطور قد سار شمالاً، وكلما تقدم شمالاً ازداد إنتشاراً في الفترة ما بين ١٦٠٠ ، ١٢٠٠ ق. م. أو بعد ذلك حتى استكملت الكتابة الفينيقية تطورها الكامل وخير مثال يذكر في هذا المجال هو نقش من «تل الدوير» يمكن أن نتبع فيه التحول التدريجي من الحروف المكتوبة بالصور إلى الحروف الفينيقية غير التصويرية حتى أصبحت الكتابة أكثر شبهاً بالكتابة الفينيقية كما نعرفها في نقش احيرام ، وبالرغم من أن كثيراً من هذه النقوش لم يكن قراءتها قراءة سليمة تماماً إلا أنها في مجموعها ثبت بما لا يدع مجالاً للشك صدق نظرية القائلين بتطور الكتابة من الكتابة السينائية إلى الحروف الفينيقية .

هذه الكتابة الفينيقية كما يمثلها أقدم نماذجها وهو نقش احيرام من جبيل ، تتكون من اثنين وعشرين حرفاً تخلصت تماماً في شكلها من أي رسم أو صور للأشياء ، وأصبحت خطوطاً مجردة تقريباً . وما من شك في أن هذه كانت أنجح جميع محاولات العناصر السامية التي تمت خلال الألف الثاني ق.م. للوصول إلى طريقة جديدة سهلة الكتابة - ولقد ظهر تفوقها بسرعة سواء من ناحية البناء الصوتي أو من ناحية الشكل ، واشتق منها عدد من الشعوب السامية الأخرى كتاباتهم مثل أهل سائر المدن الفينيقية وفلسطين والأراميين ، والكتابة الفينيقية تجري من اليمين إلى اليسار وكذلك سائر الكتابات السامية .

ومع أن هناك علاقة من حيث الشكل بين بعض الحروف الفينيقية وبين الكتابات السامية السابقة والكتابة المصرية كما هو الحال بالنسبة للحرروف الدالة على الألف والباء والميم والتاء ، فإن هناك حروفاً يصعب فيها إثبات هذه العلاقة - ولعل سبب ذلك يرجع إلى أن بعض الحروف تطورت في عملية النقل أو تغيرت لتصبح أيسر وأناسب للكتابة في بيئه جديدة . أوروبا وجدت بعض الحروف غير مناسبة لأمر ما فاستعيض عنها بشكل آخر جديد ، وهذا يعتبر شكل الحروف مسألة ثانوية في إثبات أن الكتابة الفينيقية متطرفة من الكتابات السامية الأولى التي تربطها وبالتالي بالكتابة المصرية .

أما الدليل القوي القاطع على وجود هذه الرابطة وهذا التطور فهو التكوين

الصوتي للأبجدية الفينيقية . فهناك ظاهرة واحدة مشتركة بين هذه الكتابات جمِيعاً من حيث بنائها الصوتي ، إذ أنها جمِيعاً تتكون من عدد محدود من العلامات أو الرموز ، يتراوح بين ٣٠ - ٢٢ رمزاً ، وكل واحد منها يعبر عن صوت ساكن معين ، دون أن توجد فيها رموز دالة على الحروف المتحركة .

فنحن أمام طريقة للكتابة بحروف هجائية ساكنة . وإذا ما رجعنا إلى نظم الكتابة التي اتصل بها الفينيقيون مع الشعوب السامية الغربية عموماً وهي المسماوية والخطية الميكينية والمصرية بكتاباتها الثلاث ، لوجدنا أن الكتابة المصرية هي التي تقدم لنا نفس هذه الطريقة في الكتابة أي بطريق رموز لأصوات ساكنة فقط . وهي الرموز الأربع والعشرين التي كل منها يدل أصلاً على مقطع ذي ساكن واحد ثم استخدمت هذه الرموز للتعبير عن الأصوات الساكنة فقط - هذا الاتفاق التام في التعبير بالكتابة عن الأصوات الساكنة فقط هو الذي أخذته الشعوب السامية الغربية ووصل إلى أرقى مراحل نضجه في الحروف الأبجدية الفينيقية ، ولا ينبغي أن يرجع السبب في أن الساميين أخذوا بالطريقة المصرية في الكتابة دون غيرها من الطرق إلى وجود علاقات تجارية وحضارية وثيقة بينهم وبين مصر فحسب ، ولكن لعلهم وجدوا أن الطريقة المصرية للكتابة كانت أنساب للتعبير عن اللغات السامية ، ويجب أن نذكر أن اللغة المصرية تنتمي إلى مجموعة اللغات الحامية التي تعتبر بصفة عامة فرعاً من مجموعة اللغات السامية الأولى .

مراجع مختارة

أولاً - باللغة العربية:-

- (١) ابراهيم رزقانة وأخرون «حضارة مصر والشرق القديم» (الألف كتاب بالقاهرة).
- (٢) أولبرايت، وليم، «آثار فلسطين» مترجم إلى العربية (القاهرة ١٩٧١).
- (٣) طه باقر، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة، (بغداد ١٩٥٥/٥٦).
- (٤) فيليب حتي، «تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين» مترجم (بيروت ١٩٥٨).
- (٥) ج. كونتنو، «الحضارة الفينيقية»، مترجم (القاهرة ١٩٦٥).
- (٦) محمد أبو المحاسن عصافور:-
 - (أ) الشرق الأدنى قبل عصوره التاريخية (اسكندرية ١٩٦٢).
 - (ب) علاقات مصر بالشرق الأدنى القديم (اسكندرية ١٩٦٢).
 - (ج) معالم تاريخ الشرق الأدنى القديم (بيروت ١٩٧٩).
 - (د) معالم حضارات الشرق الأدنى القديم (بيروت ١٩٧٩).
- (٧) محمد عبد القادر محمد «الساميون في الصور القديمة» (القاهرة ١٩٦٨).
- (٨) س. موسكاني «الحضارات السامية القديمة» مترجم (القاهرة ١٩٦٥).
- (٩) نجيب ميخائيل «مصر والشرق الأدنى القديم» الجزء الثالث «سوريا».

ثانياً - باللغة الأجنبية:-

- (1) Albright, W.F., «The Archaeology of Palestine» (London 1963).
- (2) Barmaki, D., «Phoenicia and The Phoenicians» (Beirut 1961).
- (3) Contenau, «La civilisation Phénicienne» (Paris 1949).
- (4) Hall, H.R., «The Ancient History of the Near East» (11th ed. London 1963).
- (5) Harden, D.B., «The Phoenicians», (London 1962).
- (6) Montet, P., «Byblos et l'Egypte» (Paris 1928).
- (7) Moscati, S., «The World of The Phoenicians» Translated by Hamilton (London 1968).
- (8) Pirot in Dictionnaire de la Bible (Tome Septième, Supplément), Paris 1968.
- (9) Pritchard, J.B., «Ancient Near Eastern Texts Relating to the Old Testament» (Princeton 1950).
- (10) Scharff, A., and Moortgaat, Aegypten und Vorderasien in Altertum» Munich 1950.

فهرس الأعلام

<p>ارتجوزكسيس: ٤٧، ٥٠، ٥١.</p> <p>ارجوس: ١١٨.</p> <p>ارجوين: ١٢٦.</p> <p>أرزيلا: ٧٠.</p> <p>ارسطو: ١٢٨.</p> <p>ارسلان تاسيس: ١٥٦.</p> <p>أرواد: ١٥، ١٥، ١٨، ٢٠، ٢٨، ٢٩، ٤٢.</p> <p>اسبرطه: ٩٣.</p> <p>استارته (عشتارت): ٦٤، ٧٤، ١٥٦.</p> <p>استرابون: ١٠٠.</p> <p>أسدود: ٣٦ هامش.</p> <p>أسرحدون: ٤٤، ٤٥، ٤٩، ٦٠.</p> <p>أسطورة اوزيروست: ٣٠.</p> <p>اسكيلبيوس: ١٤٥، ١٥٠.</p> <p>اسكولوم: ٨٤.</p> <p>اسكيبيو: ٨٩، ٩٠، ٩٤، ٩٦-٩٨، ١٢٧.</p> <p>اسكيللاكس: ١٢٣.</p> <p>اسوس: ٤٧.</p> <p>أشارباس: ٦٤.</p> <p>أشمون: ١٩ (هامش ٢).</p> <p>أتسمونزر أور (أشموبازار): ١٩، ٥٠، ١٥٩.</p>	<p>(أ)</p> <p>إبرو (نهر): ٨٨.</p> <p>ابشم واي: ٣٢.</p> <p>أبولو: ١٤٦.</p> <p>ابيانوس: ١٠٠.</p> <p>أبي بعل: ٣٥، ٣٦، ٣٩.</p> <p>اتورويا: ١١٩، ١٢٠.</p> <p>اتيكا: ١٦٤.</p> <p>اتيليوس ريجولس: ٨٢.</p> <p>اثيوبيا: ٤٤.</p> <p>اجاثوكليس: ٨٠، ٨١، ٨٣، ١٢٧.</p> <p>اجريميتوم: ٧٦، ٧٩.</p> <p>اجزركسيس: ٤٦، ٧٦.</p> <p>اجيلجيلى (أوجيجيل): ٦٩.</p> <p>احاب: ٤٠.</p> <p>احيرام (أو حيرام): ٣٦-٢٤، ٣٩، ٤١.</p> <p>احيرام الثاني: ٤٢، ٤٩.</p> <p>اخناتون (انظر: امنتحب الرابع).</p> <p>أخولا: ٦٨.</p> <p>أداد (أنظر حداد).</p> <p>أداد نيراري الثالث: ٤٢، ٤٩.</p> <p>ادون: ١٥٠.</p> <p>ادونيس: ١٩ هامش ٢، ١٤٦، ١٤٩، ١٥٠.</p>
--	--

- امنتحب الرابع (اختهاتون): . ٣٣
 امنمحات الأول: . ٣١
 امنمحات الثالث: . ٣٢
 امورو: . ٣٢
 امون: . ٣٤، ٣٥، ١٤٧
 اميليانوس: . ٩٧
 انتارادوس: (انظر طرطوس).
 انطلياس: . ٢١، ٢٢
 اوتيكا: . ٥٤، ٥٦، ٦٦، ٦٨، ٨١
 اوخاريت: . ٢٦، ٢٧، ١٣٩، ١٤٢
 اورشليم: . ٣٨
 اووزوس (إله): . ٣٧
 اوغسطين: . ١٢٥
 اوبيا: . ٦٧، ٥٦
 اوزيريس: . ١٤٢، ١٤٦، ١٤٩
 اوسا: . ٥٦
 او فيلاس: . ٨١
 اوناس: . ٣٠
 ايبروس: . ٨٤
 إيبiza: . ٥٧، ٧١، ١٠٨، ١٧١، ١٧١، ١٧٢
 ايتوابل: . ٤٥، ٤١، ٤٠، ٣٦، ٣٥
 ايتوابل الثاني: . ٥٠، ٤٩
 ايتوilia: . ٩٣
 ايجيتس: . ١٣٦
 اي달يون: . ٥٥، ٥٩، ٦٠، ١٦١
 ايزابيل: . ٤١، ٤٠
 ايزيس: . ٣٠، ١٤٢، ١٤٣، ١٤٦
 امنتحب الثالث: . ٣٢
 اشور نيبال: . ٢٩، ٤٤، ٤٥، ٥٢، ٦٠
 اشور ناصربال: . ٢٨
 اشور ناصربال الثاني: . ٤٢
 أعمدة هرقل (انظر جبل طارق): . ٧٨، ٨٠
 أفروديت: . ٥٦
 اكرركسيس: . ١٣٠
 الاحساء: . ١٤ هامش ٣
 الاسكندر الأكبر: . ٢٩، ٣٩، ٤٧، ٨٠، ٨١، ١٣١
 الإلية: . ١٣٠، ٧٤
 الأمورويون: . ١٤
 البترون: . ٤١، ٢١
 البيبا: . ٧٠
 البيضباء (ميناء): . ٢٧
 الجوز (نهر): . ٢١
 الرباط: . ١١٦
 السامرة: . ١٥٦
 الصيدونيون: . ١٤ هامش ٢
 العبيد: . ٢٦
 الغال: . ٧١
 الفلسطينيون (قبائل): . ٣٩، ٣٦
 الكتاب المقدس: . ١٤ هامش ٢
 الكنعانيون: . ١٤
 المكسوس: . ٣٢
 الملالية (قرية): . ١٨
 اليسا: . ٤١، ٤٤، ٦٦-٦٤، ١١٠
 امستو: . ١٥٩
 امنتحب (امنوفيس) الثالث: . ٣٢

ايسمونوس: ١٥٠.

ايريكس: ٧٥.

ايكتزيوم: ٦٩.

ليل: ١٤٠، ١٤٤، ١٤٦.

إيلولايوس (لولي): ٤٣.

إيلي بعل: ٣٥، ٣٦.

إيمسا: ٥٦.

اينكومي: ١٥٤.

ايونيا: ٧٣.

(ب)

بارسيد: ١٣٢.

بالرمون: ٥٧، ٣٠.

باتتلليريا: ٥٧.

بتروكلوس: ١١٧.

براينيست: ١٥٨.

بس: ١٤٩.

بستان الشيخ: ١٩.

بطلميوس: ٨١، ٦٠.

بعن (ملك): ٤٤-٤٦.

بعن: ٧٧، ١٤٧-١٤٤، ١٤٢-١٤٠.

١٥٠، ١٥٤، ١٦٢، ١٧٤، ١٨٣.

بعن - اتسار: ٤٠.

بعلات: ١٤٣، ١٤٤.

بلوات: ٩٩.

بلوتوس: ١١٨.

بلينيوس: ١٢٣.

بوت (بونت): ١٣٣.

بودا اشتارت: ٥١.

بورت ماهون: ٥٧.

بوسته: ٦٧.

بوليبوس: ١٣١، ٧٩.

بروميلكار: ٨١.

بونه: ٦٨.

بني: ١٣، ٧٤، ١٧٤، ١٧٩.

بنيه: ٥٦، ٦٧، ٦٩، ٦٧، ١٧٩.

بيلوس (انظر ايضاً جبيل): ١٩، ٢٥، ٢٨، ٤٢، ٤٥، ٤٨، ٤٩، ٤٩، ١٠٦، ١٥٤.

بيبي الأول: ٣١، ٣٠.

بيبي الثاني: ٣١، ٣٠.

بيت شمش: ١٨٨.

بيجماليون: ٤١، ٤٤.

بيرحسن: ٢١.

بيرجي: ٧٤.

بيرسا: ٦٦.

بيبرووت: ٢١، ٣٨، ١٥٠، ١٥٤.

١٦٢.

بيروس: ٨٤، ٨٦.

بيزرتا: ٦٨، ٨١.

بيتيل: ١٦٤.

(ت)

تابسوس: ٥٦، ٦٨.

تابنيت: ١٩، ٥٠.

تاريتم: ٨٤.

تاماسوس: ٥٩، ٦٠.

تامودا: ٥٦، ٧٠.

تاموسوس: ٥٥.

ثانية: ١٤٧، ١٧٢، ١٧٤، ١٨٣.

تني: ٣٠.

تحوتس الثالث: ٣٩.

ترازمين: ٩١.

تربيبا: ٩٠.

- | | |
|--|--|
| <p>جمدة نصر: ٢٦</p> <p>جنايوس سيرويليوس: ٩١</p> <p>جورايا: ٥٦، ٦٩</p> <p>جوزو: ٥٧</p> <p>جوبلجي: ٥٩، ١٦٨</p> <p>جونوجو: ٦٩</p> <p>جييجيلي: ٦٩، ٥٦</p> <p>جيلا: ٧٨</p> <p>جيلون: ٧٧، ٧٦</p> <p>(ح)</p> <p>حداد (الله): ١٤٦</p> <p>حرقيا: ١٢٩</p> <p>حلب: ٢٦</p> <p>حلف: ٢٦</p> <p>حدى بك: ١٩، ١٨</p> <p>حص: ٣٨</p> <p>حنون: ١١١، ١١٩، ١٢٣، ١٢٦-١٢٣</p> <p>حورمحب: ٣٣ (هامش).</p> <p>حيرام (انظر كذلك احيرام): ٤٦، ١١٠</p> <p>(خ)</p> <p>خالدي: ٢١</p> <p>خربة سلم: ١٥٣</p> <p>خربيس: ١٢٦</p> <p>خع سخموي: ٣٠</p> <p>خلده: ١٥٣</p> <p>خورشيد: ٤٣</p> <p>خوفو: ٣١، ٣٠، ١٢٨</p> <p>(د)</p> <p>دارا: ١٣٠</p> | <p>تشوللو: ٦٩، ٥٦</p> <p>تشيرشيل: ٦٩</p> <p>تل الدوير: ١٨٩</p> <p>تل الرطبة: ٥٦</p> <p>تل العمارنة: ٤١، ١٧</p> <p>تموز: ١٤٦، ١٥٠</p> <p>تشيس: ٥١</p> <p>توكيكيدس: ١٠٨</p> <p>تونس: ١١٤، ١٣٣</p> <p>تياسا: ٥٦، ٦٩</p> <p>تيترامنيستوس: ١٠٧</p> <p>تيجلات بلاسر الأول: ٤٢، ٢٨، ٣٥، ٤٢</p> <p>٤٨</p> <p>تيجلات بلاسر الثالث: ٤٣، ٤٢، ٢٨</p> <p>٤٩</p> <p>تيريللوس: ٧٦</p> <p>تيفاري فيلياناس أو فيليوناس: ٧٤</p> <p>تيمياتيريا: ١٢٣</p> <p>تيوكيديوس: ٧٣</p> <p>(ث)</p> <p>ثاروس: ٥٧، ١٠٨، ١٨٤</p> <p>ثيرا: ٥٧</p> <p>تيرون: ٧٦</p> <p>ثيمياتريون: ١٢٥</p> <p>ثيوكيديس: ١٣١</p> <p>(ج)</p> <p>جابوس ترنيتيوس فارو: ٩٢</p> <p>جبل الكمرون: ١٢٦</p> <p>جبل طارق: ٧١، ٧٨</p> <p>جبل ملزه: ٦٨</p> <p>جبيل (بيبلوس): ١٤٣، ١١٤، ١١١</p> |
|--|--|

<p>(ز)</p> <p>زاما: ٩٦، ١٣٤.</p> <p>ذكر فعل: ٣٥، ٣٤.</p> <p>زيوس: ١٤٠، ١٤٧.</p> <p>(س)</p> <p>ساجنتوم: ٨٨.</p> <p>ساحورع: ٣١.</p> <p>سانت سفيرا: ٧٤.</p> <p>سانت مونيك: ١٧٨.</p> <p>سبراته: ٦٧، ٥٦.</p> <p>ست (إله): ١٤٢.</p> <p>سرابة الخادم: ١٨٨.</p> <p>سرجون الثاني: ٢٨، ٤٣، ٤٩، ٥٥، ٥٩.</p> <p>سردينيا: ٥٧، ٧٠، ٥٩، ٧٤-٧٢، ١٧٦، ١٧٢، ٨٧، ٨٦، ١٨٣-١٨١.</p> <p>سلاميس: ١٣٠.</p> <p>سليمان: ٣٦، ٣٩، ٤٠، ٥٤.</p> <p>سمبرونيis: ٨٩، ٩٠.</p> <p>سميرا: ٢٨، ٢٩، ٤٤.</p> <p>سنجحيب: ٢٨، ٤٣، ٤٩، ٦١، ١٠٠، ١٠١.</p> <p>سنوحى: ٣١.</p> <p>سوسه: ١٣٨.</p> <p>سوليس: ٥٧.</p> <p>سولكنس: ١٧٦.</p> <p>سولونتو: ٥٧.</p> <p>سوليوس: ١٧٨.</p> <p>سي الأولى: ٣٣، ٣٨.</p> <p>سيدي عبد السلام: ٥٦.</p>	<p>داريوش الثاني: ٤٧.</p> <p>داريوش: ٤٦.</p> <p>داود: ٣٦، ٤٨.</p> <p>درملك: ١٧٢، ١٧٨.</p> <p>دمسيقيوس: ١٥٠.</p> <p>دورا (طنطورة): ٤٧، ٥٠.</p> <p>دوراك: ١٣١.</p> <p>دوروبيايوس: ٧٥.</p> <p>دويس: ١٧٢.</p> <p>ديتر: ١٧٤، ١٧٨.</p> <p>ديودور (الصقلي): ١٢٧، ١٣٣-١٣٥، ١٣٧.</p> <p>ديونيزيوس: ٧٩، ١٣٢، ١٣٣، ١٣٥.</p> <p>(ر)</p> <p>رأس بون: ٦٨، ٥٦، ٨٠.</p> <p>رأس شمرا: ١٧، ٢٥، ٢٠، ١١١، ١١٣، ١١٥، ١٣٩، ١٤٤.</p> <p>راشجون: ٦٩.</p> <p>ربعدي: ٣٢.</p> <p>رجولوس: ٨٦.</p> <p>رشف: ١٤٦.</p> <p>رعمسيس (أو رمسيس) الثاني: ٢٧، ٣٣، ٣٤، ٣٥ (هامش).</p> <p>رعمسيس الثالث: ٢٧، ٣٩.</p> <p>رعمسيس التاسع: ٣٤.</p> <p>رودس: ٥٥.</p> <p>روساديير: ٧٠.</p> <p>روما: ٧٥، ١١٩، ٩٧-٩١، ٨٨-٨٢.</p> <p>رينان: ١٨.</p>
--	--

، ١١٧ ، ١١٥ ، ١١١ ، ١١٠ ، ١٠٠
. ١٦٢ ، ١٤٥ ، ١٢٩

(ط)

طرابلس: ٤٧ ، ٤٨ ، ٦٧
طرطوس: ١٨ ، ١٥٤ ، ١٦٢
طروده: ٥٦
طهرقه: ٤٤
طنجة: ٥٧
طيبة: ٣٧ ، ٣٤

(ع)

عالیان: ١٤١ ، ١٤٢
عبد عشتارت: ٤٠ ، ٥١
عبد عشراتا: ٣٢ ، ٣٣ ، ٣٧ ، ٣٨
عبدلليتي: ٢٨
عزيزرو: ٣٨
عسقلون: ٣٨
عشتار: ١٤٦
عشتاريyo: ٤٠
عشترته: ١٤٥ ، ١٤٨ ، ١٥٠
عشيرات البحر: ١٤٠
عكا: ٣٥
عمري: ٤٠
عمریت (= ماراتوس): ١٦٢ ، ١٨
عينات: ١٤٢

(غ)

غزه: ٣٨

(ف)

فاپیوس: ٩٢ ، ٩١
فارس: ٧٦ ، ١٣٣
فارو: ١٢٨ ، ١١٤

سیراکیوز: ٦٣ ، ٦٢ ، ٧٩ ، ٨٦ ، ٨٠
. ١٢٧

سیرتس: ٧١

سکیبیو: ٨٢

سیلینونته: ٧٨

سیلیوس إیتالیکوس: ١٤٥

(ش)

شارون (سهل): ٥٠

شامبليون: ١٧

شبس: ١٤٦

شعوب البحر: ٢٧ ، ٢٨ ، ٣٩

شكیم: ١٨٨

شلمناصر الثالث: ٤٢ ، ٢٨ ، ٤٨ ، ٩٩
. ١٢٩

شلمناصر الخامس: ٤٣ ، ٢٨ ، ٤٩

شیبیت بعل: ٣٥ ، ٣٦

شیفر: ٢٠

شینیه: ٢٠

(ص)

صادیقوس: ١٥٠

صخور الحمام: ٢١٥

صفاقص: ١٣٧

صقلية: ٧١ ، ٧٥-٧٩ ، ٨٢ ، ٨٧-٨٤
، ٩٣ ، ١١٨ ، ١٠١ ، ١٣٤-١٣٢
، ١٧٧ ، ١٧٦ ، ١٨١

صور: ٢٨ ، ٤٥-٣٥ ، ٤٧-٤٩
، ٥٤ ، ٦٠ ، ٩٩ ، ٦٤ ، ١١٠ ، ١١١
، ١٤٥ ، ١٣١-١٢٩ ، ١١٥

صوصه: ٦٨

صیدا: ١٨ ، ١٩ ، ٢١ ، ٣٥ ، ٣٦
، ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٢-٤٥ ، ٤٧-٤١

- | | |
|--|---|
| <p>كروكان: . ٦٨</p> <p>كرمونا: . ١٧٩</p> <p>كرونوس: . ١٤٠ ، ١٤٧</p> <p>كريت: . ٥٥</p> <p>كريسيوس (نهر): . ٧٩</p> <p>كلود شيفر: . ١٣٩</p> <p>كمانيا: . ١٣١</p> <p>كورسيكا: . ٧١ ، ٧٤ ، ٨٧</p> <p>كورش الثاني: . ٤٦</p> <p>كورنوك: . ١٢٤</p> <p>كونيليوس اسكيبو: . ٩٠</p> <p>كولوميلا: . ١١٤ ، ١٢٨</p> <p>كونتنو: . ١٩</p> <p>كيتيون: . ٥٥ ، ٥٧ ، ٥٩ ، ١٦٧</p> <p>كثييرا: . ٥٥</p> <p>كيرتا: . ٦٩</p> <p>كيليكيا (كوي): . ٤٣ ، ٥١</p> <p>كيرنجل: . ١٢٩</p> <p>
(ل)</p> <p>لابيوس: . ٥٥ ، ٦١-٥٩</p> <p>لاتيوم: . ١٢٠ ، ١١٩</p> <p>لامبيدوس: . ٥٧</p> <p>لامتا: . ٦٨</p> <p>لوكرام: . ٦٦</p> <p>لوكيوس اميليوس باولوس: . ٩٢</p> <p>لولي: . ١٠٠ ، ١١٠ ، ١٢٩</p> <p>ليبيتس: . ٦٨ ، ٧٥</p> <p>ليبيتس ماجنا: . ٦٧ ، ٥٦</p> <p>ليثي: . ١٣١</p> <p>ليكسوس (مستعمرة): . ٧٠ ، ٥٧</p> <p>ليكسوس (نهر): . ١٢٦ ، ٥٤</p> | <p>فون الشباك: . ٢١</p> <p>فستوس افينيوس: . ١٢٤</p> <p>فلامينيوس جايوس: . ٩١</p> <p>فالاس: . ٥٥</p> <p>فنخو: . ١٣</p> <p>فيلاريكوز: . ١٨١</p> <p>فيليبس: . ٤٠</p> <p>فينكس: . ١٣</p> <p>فيليوسوس: . ٦٤</p> <p>فيليب الخامس: . ٩٣ ، ١٣٤</p> <p>فيليب فيل (أو فيليبيل): . ٦٨ ، ٥٦</p> <p>
(ق)</p> <p>قادس: . ٥٤ ، ٥٦ ، ١٠٨ ، ٥٧ ، ١٧٨</p> <p>قادش: . ٣٨ ، ٢٧</p> <p>قرص: . ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٩ ، ٥٥ ، ٥٧</p> <p>قبرص: . ١٥٤ ، ١١٦ ، ١٠٠ ، ٦٠ ، ٥٩</p> <p>قادس: . ١٧٠ ، ١٦٨-١٦٦ ، ١٦١ ، ١٥٨</p> <p>قادش: . ١٧٧</p> <p>قرقميش: . ٤٥</p> <p>قرية: . ١٤٠</p> <p>قسطنطينية: . ٦٩ ، ٥٦ ، ٥٤</p> <p>قصر عقيل: . ٢٢ ، ٢١</p> <p>قميز الثاني: . ٤٦</p> <p>
(ك)</p> <p>كابوا: . ٩٤</p> <p>كاتانيا: . ٧٩</p> <p>كاتو: . ٩٦</p> <p>كارتشيدون: . ٦٤</p> <p>كامانيا: . ٧٤</p> <p>كاميروس: . ٥٥</p> <p>كاناي: . ٩٢ ، ٩١</p> |
|--|---|

(ن)

نيوخذنصر: .٤٥ ، .٥٠
نيوكدونصر: .١٣٠
نخاو: .٤٥
نقماد: .١٣٩
نهر ابراهيم: .٢١
نهر الكلب: .٣٨ ، .٢١ ، .٢١
نهر بيروت: .٢١
نورا: .١٧٦ ، .٥٩ ، .٥٧
نوميديا: .٩٧ ، .٩٦
نبنيوي: .١٠١ ، .١٠٠

(هـ)

هاتور: .١٤٣ ، .١٤٩ ، .١٨٨
هادروميتوم: .١٧٤ ، .١٣٧ ، .٦٨
هاليكوس (نهر): .٨١-٧٩
هانو: .٧٨-٧٧
هانيبال (= هانيبل): .٦٣ ، .٧٨ ، .١٤٧ ، .٩٥-٨٧
هاميلكار: .٧٤ ، .٨٠ ، .٧٨ ، .٧٦ ، .٨٧
.١٤٥ ، .١٣٣ ، .١١٠ ، .١٠٩ ، .٨٨
هرقلية: .٧٥ ، .٨٤
هرقل: .٦٦
هرماكون: .٥٦
هسلرويبل: .٨٨ ، .٩٥ ، .٨٩ ، .١٠٩
هومير(وس): .١٣ ، .١١٥
هيارباس: .٦٥
هيبو: .٥٦
هيبواكرا: .٦٨
هيبورجيوس: .٦٨
هيرودوت: .١٤ (هامش) ، .٣٧ ، .٤٦ ، .٥٦
.١٣١ ، .١٢٣ ، .١٢١ ، .١١٨

(م)

ماتان: .١٠٧
ماجو: .١٢٧ ، .١١٤
ماجون: .١٣٢ ، .٧٧ ، .٧٤ ، .٧٦
ماراتوس (عمريت): .١٦٢ ، .١٠٤
ماريالوس: .١٠٧
ماري: .٢٦
ماريون: .٥٩ ، .٥٥
مالخوس: .١٣٢ ، .٧٤ ، .٧٣
مالطه: .٥٧ ، .١٠٨
ماهون: .٧٢
مجدو: .١٨٨ ، .١٥٤ ، .٣٨
مرسى مداخ: .٦٩
مرسيليا: .٨٩ ، .٧٨
مقدونيا: .٩٣
ملقارب: .١٤٦ ، .٣٩ ، .١٤٥ ، .١٤٦ ، .٣٧
ملكياتون: .١٧٦
مهديه: .١٣٧ ، .١٢٥ ، .٦٨
منف: .٥٦
منكاورع: .٣٠
موت: .١٤٦ ، .١٤٢ ، .١٤١
موتيا: .١٣٣ ، .١٣٧ ، .١٤٤ ، .١٣٥ ، .١٧٦
موجادر: .٥٧ ، .٧٠
مولى بولسهام: .٧٠
مونتيه: .١٩ ، .٣١ (هامش)
ميتاورس (نهر): .٩٥
ميثوعشتارت: .٤٠
ميجالوبوليس: .٨٠
ميليللا: .٥٦ ، .٧٠
مينورقا: .٧٢ ، .٥٧

يافا: . ٥٠	هيلين: . ٥٦
ياكن لو: . ٢٩	هيميرا: . ٧٦، ٧٨، ٨٠، ١٣٣
باليوسوس: . ٥٥	هيميليكو: . ٧٨، ١٢٣، ١٢٤
بيهاو ملك: . ١٦٤	(و)
بهرام: . ٤١	وهران: . ٦٩
يوسيفوس: . ٤٨، ٤١	وينامون: . ٣٤، ٣٥
يول: . ٦٩	(ي)
بحنى (ملك): . ٣٦، ٣٥	ياتون ملك: . ٥١

To: www.al-mostafa.com